الثقافة الإسلامية

المستوى الثاني (٢٠١)

تأليف

الشيخ عبد الرحمن حبنكة　الشيخ محمد الغزالي

الدكتور مصطفى عبد الواحد

مراجعة

الدكتور محمد إبراهيم علي　الدكتور حسين حامد حسان

مركز النشر العلمي

جامعة الملك عبد العزيز

جدة

اهداءات ٢٠٠٤

المستشار الثقافى السعودي
محمد عبدا لعزيز العقيل
المملكة العربية السعودية

الثقافة الإسلامية

المستوى الثاني (٢٠١)

تأليف

الشيخ عبد الرحمن حبنكة   الشيخ محمد الغزالي

الدكتور مصطفى عبد الواحد

مراجعة

الدكتور محمد إبراهيم علي   الدكتور حسين حامد حسان

مركز النشر العلمي

جامعة الملك عبد العزيز

ص ب ١٥٤٠ - جدة ٢١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى : ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م).
الطبعة العشرون : ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م) .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حبنكه ، عبد الرحمن

الثقافة الإسلامية : المستوى الثاني ٢٠١/ عبد الرحمن حبنكة ، محمد الغزالي ، مصطفى عبد الواحد - ط ٢٠ - جدة

٢٨٠ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك X-٠١١-٠٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٠-٢٢٦-٠٦-٩٩٦٠ (ج٢)

١ - الثقافة الإسلامية - كتب دراسية ٢ - التعليم الجامعي - السعودية

أ - الغزالي ، محمد (م. مشارك) ب - عبد الواحد ، مصطفى (م. مشارك)

ج - العنوان

ديوي ٢١٤ ٢٠/٣٢٧١

رقم الإيداع : ٢٠/٣٢٧١
ردمك : X-٠١١-٠٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٠-٢٢٦-٠٦-٩٩٦٠ (ج ٢)

مطابع جامعة الملك عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بحمد الله وحسن توفيقه أصبحت مادة الثقافة الاسلامية مادة اجبارية « متطلبات جامعة » على جميع طلاب الجامعة باختلاف مستوياتهم الدراسية .

واهتماما بهذه المادة من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية باعتبارها الكلية المشرفة على تدريس هذه المادة فقد طلبت من بعض أساتذة مادة الثقافة الاسلامية بقسم الدعوة وأصول الدين بالكلية وضع منهج لهذه المادة يساعد الطلاب الدارسين على فهمها ويشرح بعض مفرداتها يكون في يد الطالب حسب مستواه . وقد وزع منهج هذه المادة على أربعة مستويات حسب المنهج المعتمد .

نسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ؟

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

راشد بن راجح الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

منهاج الثقافة الاسلامية

المستوى الثانى (٢٠١)

اولا ـ القرآن الكريم :

(أ) نزوله ـ الغرض من انزاله ـ حكمة نزوله منجما ـ جمعه وتدوينه ـ ثبوت نصه علميا .

(ب) فكرة عامة عن القراءات العشر مع المراد من قول الرسول (أنزل القرآن على سبعة أحرف) .

(جـ) دفع شبهات أعداء الاسلام حول القرآن (كالتشكيك بظاهرة الوحى ، والتشكيك بصحة بعض القراءات الثابتة وغير ذلك) .

(د) مضمونه وما اشتمل عليه من موضوعات .

(هـ) قيمته ومكانته باعتباره المصدر الأول للاسلام .

(و) أسلوبه واعجازه المثبت انه كلام الله حقـا ـ كونه لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه وليس فيه ما يخالف الحقائق العلمية بحال من الاحوال ، وما يبـدو فيه من ذلك لبعض الناس فهو من خطأ فى فهم النص القرآنى أو من خطأ فى المعرفة العلمية نسبت الى الحقيقـة العلمية ما ليس منها .

(ز) كيفية البحث عن آية أو موضوع قرآنى .

ثانيا : دراسة متانية عميقة لسورة او اكثر من القرآن :

وذلك بشكل يشـد الطلاب الى كتاب الله ، ويحببهم فيـه ، ويبرز لهم روائعـه الفكرية والعلميـة ومضامينـه التوجيهيـة والاصلاحيـة للأفراد والمجتمعات ، وهدايته المثلى الى سعادة الدنيا وسعادة الآخرى مع العنـاية ببيان الوحدة الموضوعية للسورة . للمدرس أن يختار من سور القرآن احدى السور التالية او ما يعادلها مما يراه محققا للهدف :

(النور ـ التوبة ـ آل عمران ـ الأنعام ـ الرعد)

ثالثا : السنة :

(أ) ما تشتمل عليه من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله (سيرته) وتقريراته (حياة الصحابة معه) ـ معانى الحديث والخبر والأثر والحديث القدسى .

(ب) منهج المسلمين الدقيق فى تحقيق الحديث وتحرى صحته ونفى الدخيل عنه . تدوين الحديث مع التركيز على دفع شبهات أعداء الاسلام حول ذلك .

(جـ) مهمة السنة : تفصيل لمجمل القرآن ، وبيان له ، وتطبيق عملى لأحكامه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(د) اهميتها ومكانتها فى رسم الصورة الكاملة للاسلام على أساس القرآن ـ وضرورتها لمعرفة الاسلام وانه لا يمكن معرفة كثير من أحكام الاسلام الا عن طريقها .

(هـ) تعريف عام بأهم كتب الحديث الصحاح وبأصحابها لاسيما صحيح البخارى وصحيح مسلم .

رابعا : الاجماع :

فكرة عامة موجزة عنه ـ كون القرآن والسنة هما الأساس له فى الحقيقة .

خامسا : اجتهاد علماء المسلمين وآراؤهم المستنبطة والمعتمدة على القرآن والسنة والمنبثقة عنهما والخادمة لهما (يدخل فى هذا القياس والاستحسان وغيرها من الأدلة) . (تعطى فكرة موجزة عن ذلك) .

سادسا : دراسة لطائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ينتقيها المدرس من صحاح الأحاديث التى تشتمل على أمهات أصول الاسلام مع تجديد الانتقاء من سنة لأخرى . ويحسن أن يراعى فى انتقائها ان تكون مشتملة على جوانب العقيدة والتربية ونماذج من تشريع الاسلام الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والاخلاقى والدعوة الى نشر الاسلام والجهاد فى سبيل الله .

القسم الأول

معلومات عامة حول القرآن الكريم

الفصل الأول ـ التعريف بالقرآن ، نزوله ، قراءاته ـ موضوعاته

كتب هذا الفصل الشيخ عبد الرحمن حبنكه الميداني

القرآن الكريم

القرآن هو كلام الله الذى انزله على نبيــه ورسوله محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ، مستجمعا للخصائص التالية :

١ ـ فهو الخاتم للكتب الربانية المنزلة على أنبيائه ورسله ، وقد نزل به على محمد صلى الله عليه وسلم أمين الوحى جبريل عليه السلام قال تعالى : **« نزل به الروح الأمين »** (١) .

٢ ـ وهو الجامع لأسس خاتمة رسالات الله للنــاس ، ولأصول الدين الذى ارتضاه سبحانه لهم ، وهو دين الاسلام .

٣ ـ وهو الكتاب المعجز فى مبناه البيانى ، فقد تحدى الله كل البلغاء ان يأتوا بمثله منفردين ومجتمعين ، والمعجز فى مضمونه ومعــناه ، اذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو تنزيل من عزيز حكيم ، واعجاز القرآن الدائم هو الدليل المستمر الخالد على أنه كلام الله حقـا ومنزل من لدنه .

٤ ـ وهو الكتاب المحفـوظ المصــون من التحريف والتبـديل والزيادة والنقصان ، بمقتضى الكفالة الربانية المعلنـة بقول الله تعالى : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »** (٢) وقد تهيأ له من وسائل الحفظ ما لم يتهيأ لأى كتاب آخر فى تاريخ الناس . وبحفظه ونشره فى أقطار الأرض تقوم حجة الله البالغة على عباده ، وتنقطع أعذارهم ، اذ هو يشتمل على تبليغ مستمر للرسالة التى حملها رسول الله لهم ، وهو بمثابة استمرار الرسول المبلغ بين الناس فهذا بلاغه معلن محفوظ .

٥ ـ وهو المصدر الأول للمفاهيم الاسلامية كلها ، وللتشريع الاسلامى الذى يشمل كل أنواع السلوك الانسانى .

كيف تم انزال القرآن :

لقد أنزل الله القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفق الأسلوب التربوى المتدرج ، خلال فترة رسالته التى بدات بعد ما بلغ الرسول الأربعين من عمره وبعد ان نزل عليه أمين الوحى جبريل أول ما نزل فى غار حراء ، وانتهت بوفاته صلوات الله عليــه ، وكان قد بلغ من العمـر قرابة ثلاثة وسـتين عاما قمريا ، أى : كان نزول القرآن مفرقا خلال ثلاثة وعشرين عاما .

(١) الشعراء الآية ١٩٣
(٢) الحجر الآية ٩

وكان أول ما نزل من القرآن الآيات الأولى من سورة (العلق) :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » (١) .

وكان آخر ما نزل من القرآن قول الله تعالى عقب الآيات التى أعلنت التحريم القطعى للربا :

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٢) .

وكانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية بتسع ليال هذا هو القول الأصح فى بيان آخر ما نزل من القرآن .

وهذا التنزيل المفرق هو ما يطلق عليه (التنزيل المنجم) اى : انزل نجما بعد نجم (قسما بعد قسم) ولم ينزل دفعة واحدة .

ولهذا التنجيم فى التنزيل حكم تربوية عظيمة ، منها الحكم التالية :

١ ـ معالجة بناء الأمة الاسلامية الأولى وفق البناء التدرجى الذى تخضع له سنة الحياة بوجه عام ، فيكون الاهتمام الأول بتأسيس العقائد بدءا من جذرها الرئيسى ، الذى يتمثل بالايمان بالله الخالق ، ثم بتوحيده فى ربوبيته ، ثم بتوحيده فى الوهيته ، ثم بما يلزم عن ذلك من فروع اعتقادية وعملية ، مع مراعاة الاهتمام بما هو أولى فى الخطة التربوية .

٢ ـ منح المسلمين فرصة تلقى القرآن فترة بعد فترة ، حتى يحفظوه ويتدبروه أولا بأول .

٣ ـ تثبيت فؤاد الرسول به ، بما يتضمن من توجيهات تربوية له ، تجاه الاحداث الثقال التى يواجهها فى دعوته .

٤ ـ مراعاة مناسبات الاحداث ، والأسئلة ، والاستفتاءات ، وما يجرى فى السر أو فى العلن من أمور ، وما تتحدث به نفوس المؤمنين أو المنافقين أو غيرهم ، لانزال الآيات المتضمنة للبيانات والمكاشفات والحلول والتوجيهات الاسلامية والأحكام الشرعية الملائمة .

ولا يخفى ما فى هذا من تأثير عميق فى تمكين الايمان ، والاقناع بالاسلام

---

(١) سورة العلق من ١ الى ٥

(٢) سورة البقرة ٢٨١ .

وتثبيت الأحكام الدينية ، والحلول والتوجيهات الاسلامية ، والاقناع بأفضليتها وملاءمتها للمصلحة الفردية والاجتماعية العاجلة أو الآجلة .

وللتنجيم فى التنزيل أثر عظيم ايضا فى التنبيه على أنه من عند الله ، وفى اضافة عنصر مهم من عناصر اعجاز القرآن .

فآيات عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم لابد أن تأتى وفق مناسباتها ، وعتاب الرسول فى آيات تتلى دليل على أن القرآن من عند الله لا من عند الرسول صلوات الله عليه .

ونزول القرآن مفرقا ، ثم وضع كل نجم ينزل منه فى مكانه الملائم من سورة من سور القرآن ، دون أن يظهر فى النتيجة خلل فى الترابط الفكرى ، القائم على الوحدة الموضوعية لكل سورة ، عنصر من عناصر اعجاز القرآن ، وأنه كلام منزل من عند الله .

وقد أشار القرآن الى الحكم المقصودة من التنجيم بقول الله تعالى :

« وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (١) .

ولما اعترض الذين كفروا على تنزيله منجما انزل الله على رسوله قوله :

« وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » (٢) .

أى : كذلك نزلناه مفرقا منجما لنثبت به فؤادك يا محمد .

وهناك آيات يدل ظاهرها على أن القرآن نزل فى ليلة واحدة .

مثل قول الله تعالى عن القرآن : **« انا أنزلناه فى ليلة القدر » (٣) .**

وقوله تعالى :

« حم . والكتاب المبين . انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين » (٤) .

وقوله تعالى :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (٥) .

---

(١) الاسراء ١٠٦ .
(٢) الفرقان ٣٢ .
(٣) سورة القدر ١
(٤) الدخان ١ ــ ٣
(٥) البقرة ١٨٥

فهذه النصوص تشعر بأن القرآن قد انزل كله فى ليلة القـــدر من شهر رمضان ، مع أننـــا علمنـــا من الواقع ومن النصوص الأخرى انه نزل مفرقا منجما . فكيف نجمع بين هذا وهذا ؟

لقد اجاب ابن عباس عن هذا الاشكال بان القرآن قد انزل فى ليلة القـــدر فى شهر رمضان الى السماء الدنيـــا جملة واحدة ، ثم انزل نجوما على قلب النبى صلى الله عليه وسلم فى الشهور والأيام .

واجاب الشعبى بأن بدء نزول القرآن قد كان فى ليلة القـــدر ، وان هذه النصوص قد دلت على ذلك .

ترتيب القرآن :

كلما نزل من القرآن شىء آية فاكثر أو اقل كان الرســـول صلى الله عليه وسلم يبين لأصحابه موقعه من القـــرآن ، فيبين لهم السورة ، ومكان ما نزل من السورة ، فترتيب القرآن قد تم بالتلقى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما يطلق عليه عبارة : ترتيب القرآن توقيفى ، أى : متوقف على التلقى من الرسول ، وليس للصحابة منه شىء الا النقل .

وكذلك الترتيب بين سور القرآن مأخوذ بالتلقى عن النبى صلى الله عليه وسلم قطعـــا فى أكثره ، وعلى الأرجح فى اقله ، وهذا الترتيب الموجـــود فى المصحف امر مجمع عليه بين المسلمين منذ عهد ابى بكر رضى الله عنه .

الرسول يتدارس القرآن مع جبريل فى رمضان :

كان جبريل يتعاهد الرسول صلى الله عليه وسلم لتحفيظـــه القرآن ، وتمكينه فى فؤاده ، فكان ينزل عليه فى رمضان فيدارسه القرآن ، وطريقة هذه المدارسة ان يقرأ الرسول وجبريل يستمع ، ويقرأ جبريل والرسول يستمع ، وهكذا حتى يستكملا قراءته ، وفى رمضان من السنة التى توفى فيها الرسول نزل جبريل عليه مرتين ، ودارسه القرآن مرتين ، وكان ذلك عرضـــة اخيرة للقرآن ، قبيل وفاة الرسول ، روت السيدة عائشة ام المؤمنين ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال لها : **« ان جبريل كان ينزل على فيدارسنى القرآن مرة واحدة فى رمضان ، وقد نزل على هذا العـــام مرتين ، وما اراني الا قد اقترب اجلى »** .

وفعلا فقد توفى الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك العام .

القراءات العشر :

وهناك أمران لابد من ملاحظتهما :

الأول : نحن نعلم أن العرب كانت لهم لهجات ينطقون بها عربيتهم . فمنهم مثلا من يميل الألف المقصورة فى أواخر بعض الكلمات ، ومنهم من لا يميلها ، مثل : الضحى . اتى موسى . بلى .

ومنهم من يرقق بعض الحروف ومنهم من يفخمها ، مثل : الراء فى نحو (خبيرا ـ بصيرا) ، واللام فى نحو (الصلاة ـ الطلاق) .

ومنهم من يسهل الهمز فى بعض الحالات ، ومنهم من يحققها ولا يسهلها ، مثل الهمزة الثانية من (أأنذرتهم) والهمزة من (قد أفلح) .

ومنهم من يكسر حرف المضارعة فى أول الفعل المضارع ، والأكثر لا يفعل ذلك .

ومنهم من ينطق الصاد فى بعض الكلمات سينا ، والحاء فى بعض الكلمات عينا ، مثل : (الصراط ـ السراط) ومثل : (حتى حين ـ عتى عين) والثانية لهجة هزيل .

ونحو ذلك .

ومن أجل التخفيف على القبائل العربية ، ومن أجل جمعهم على تلاوة القرآن بما تطاوعه السنتهم من لهجاتهم أنزل الله القرآن على وجوه من الأداء ، تسهل على القبائل العربية المختلفة أداءه وتلاوته ، مع أن اللهجة الأساسية التى انزل بها انما هى لهجة قريش .

الثانى : قد تكون الجملة صالحة لأداء المعنى المقصود ، بوجهين من من الاعراب أو اكثر ، أو بالافراد والتثنية والجمع ، أو بابدال كامة بكلمة مرادفة لها ، أو بالتقديم والتأخير بين كلمتين ، أو بزيادة حرف مثلا كحرف من حروف الجر .

وقد تكون الجملة صالحة لأداء أكثر من معنى ، بوجهين من الاعراب أو اكثر ، او بالافراد والتثنية والجمع ، أو بابدال كلمة بأخرى ، أو بالتقديم والتاخير ، أو بزيادة حرف مثلا ، كحرف من حروف الجر ، ويكون المعنيان أو ما زاد عليهما معانى مقصودة فيما يراد تنزيله .

وبغية التفنن فى التعبير ، وبغية الدلالة على المعانى المتعددة من الجملة الواحدة فى مكانها من القرآن ، مع الايجاز والاعجاز نزل القرآن بوجوه من الأداء متعددة .

وقد ثبت فى الصحيح الذى قارب أن يكون متواترا ان القرآن قد انزل على سبعة أحرف ، اى : على سبعة وجوه .

فمن الروايات الثابتة فى ذلك ، ما رواه البخــارى ومسـلم ، واللفظ للبخارى ، ان عمر بن الخطـاب رضى الله عنـه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حيــاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرؤها على حروف كثيرة ، لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فانتظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائه فقلت : من اقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرانيهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له: كذبت ، فوالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ، فانطلقت أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وانت أقرأتنى سورة الفـرقان ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إرسله يا عمر ، اقرأ يا هشام » فقرأ هذه القراءة التى سـمعته يقرؤها . قال رسول الله صلى الله عليــه وسـلم : « هكذا انزلت » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان هذا القرآن أنزل على سـبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسر منه » .

وفى مسند الحافظ ابى يعلى : أن عثمان رضى الله عنه قال يوما وهو على المنبر : اذكر الله رجـلا سمع النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان القرآن أنزل على سبعة احرف كلهـا شاف كاف » لما قام ، فقاموا ، حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك ، فقال عثمان رضى الله عنه : وأنا أشهد معهم .

فالأحرف السبعة التى نزل عليهـا القرآن تشمل وجوه اللهجات العربية التى نزل بها القرآن ، وتشمل وجوه الاداء التى تستند الى اختلاف وجـوه الاعراب ، والافراد والتثنية والجمع ، والخطاب والغيبة والتكلم ، وتبـديل كلمة بكلمة ، والتقديم والتأخير فى بعض الكلمات ، وزيادة حرف ونقصـانه ، ونحو ذلك . وقد تشمل ايضا وجوها من المعانى يمكن أن تستنبط من القرآن وفق أصول الاستنباط ، ووجوها من أصول الحقائق التى نزل القرآن لبيانها وتوجيه الناس اليها ، والله أعلم بمراد الرسول الكامل من ذلك . ويكفينا أن نعلم أن القرآن قد أنزل على وجوه سبعة .

ثم ان المسلمين قد رووا ما أخذه أصحاب الرسول عنه من القرآن ، ونبغ بعد ذلك من الرواة القــراء المتقنين نابغون ، تلقى عنهم تلاميـذ كثيرون ؛ وانقسمت رواياتهم الصحيحة الثابتة المتواترة المشتملة على وجوه من القراءة الى عشر روايات ، سميت بالقراءات العشر المتواترة .

فنحن نثبت أن ما يسمى بالقراءات العشر ، انما هى روايات صحيحـة ثابتة متواترة ، مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنقل المتواتر ، تلقاه

اصحاب رسول الله عنه ، وتلقاها رسول الله عن جبريل عليه السـلام ؛ فكل ما جاء فيها فهو من القرآن قطعا .

ولا بد أن نعـلم انه ليست كل قراءة من القراءات العشر ، او الروايات العشر ، تعنى رواية حرف واحد من الأحرف السبعة التى انزل عليها القرآن ، اذ قد تشتمل الرواية الواحدة منها على عـدة أحرف من الأحرف السبعة فى بعض جوانبها .

مضمون القرآن وما اشتمل عليه من موضوعات :

القرآن كتاب الحق لهداية الانسـان ، الى سبيل سـعادته العاجلة والآجـلة .

فلا بد اذن أن يكون مشتملا على كل أسس عنـاصر هداية الانسـان لما يحقق له هذه السعادة العاجلة والآجلة ، ويحقق له خيرى الدنيا والآخرة ، فردا كان او مجتمعا ، حاكما أو محكوما .

فليس من غرض القرآن ان يكون كتابا للعلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والجغرافية والتاريخية ، ونحو ذلك من علوم باستطاعة الانسان أن يتوصل اليها بالبحث والدراسة والتتبع والاختبـار والتجربة ، ولا يتوقف عليهـا اصلاحه فيما خلق من أجله وهو الابتلاء فى ظروف هذه الحياة الدنيا ، وانما يتوقف عليها تحقيق وسائل رفاهيته ونماء القوى التى يملكها مما أودعه الله من طاقات فى هذا الكون .

على أن القرآن قد دفع الانسان المسلم الى البحث والتامل والدراسـة والاستنباط ، حتى يصل الى غايته من كل هذه العلوم التى تفيده وتنفعه فى دنيـاه .

وحينما يتحدث القرآن عن بعض حقائق هذه العلوم ، فانما يتحدث عن امور كبرى ، لا يصل اليها الانسان الا بعد دراسات طويلة واكتشافات متتابعة يعتمد بعضها على بعض ، فاذا وصل الى مرحـلة اليقين العلمى فى بعضها مما تحدث عنه القرآن ، وجد ما وصل اليه مطابقا للحقيقة القرآنية الكبرى التى تحدث عنها ، ولفت نظر الانسان الى دراسة الكون حتى يصل اليها ، فيعرف اعجاز الله فى كونه ويستدل عليه من آياته ، واعجازه فى كتابه ويستدل عليـه من قرآنه ، ويزيد يقينه بأن هذا القرآن منزل من الحق تبارك وتعالى ، الذى ابدع بقدرته وعلمه حقائق هذا الكون ، فهو المهيمن عليها ، ولا يمكن أن يصدر عنه فى شأنها الا ماهو مطابق تماما للحقيقة التى وضعها بيديه ، وهيمن عليها بعلمه وقدرته وتدبيره .

ونقتبس من الدكتور محمد الصادق عرجون فى كتابه : (القرآن العظيم — هدايته واعجازه فى أقوال المفسرين) عرض أصول الهداية فى القرآن ، اذ ارجعها الى عشرة أصول :

الأصل الأول : العقيدة .

الأصل الثانى : التشريعات التعبدية .

الأصل الثالث : سياسة الخلق .

الأصل الرابع : الوشائج الاجتماعية بين الأفراد والجماعات .

الأصل الخامس : ايقاظ العقل الانسانى وتحريره .

الأصل السادس : عوامل الدفع القيادية فى المجتمع الاسلامى .

الأصل السابع : مكانة العلم فى الحياة .

الأصل الثامن : التربية السلوكية (اى الشاملة للأخلاق والآداب والحقوق وغير ذلك) .

الأصل التاسع : المجتمع البشرى بين عناصر التماسك وعوامل الانحلال .

الأصل العاشر : اعجاز القرآن بين الهداية وروعة البيان .

ظاهرة الوحى :

لقد تلقى الرسول القرآن عن الوحى ، والوحى هو الطريقة التى اختارها الله لتبليغ انبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، ما أراد اعلامهم به من شرائع واخبار ووصايا وأحكام وغير ذلك .

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى تلقيه عن الوحى بدعا من الرسل ، فظاهرة الوحى أمر معروف وسنة متبعة لا ينكرها أحد من الذين يؤمنون بالأنبياء والرسل السابقين . ويتحقق تلقى الرسول اليقينى عن الوحى بكون القرآن الذى تلقاه معجزا بحد ذاته ، لا يمكن أن تأتى به الطاقات البشرية منفردة ولا مجتمعة ، وما كان لمحمد وهو بشر أن ينفرد من دون الناس بطاقة اعجاز بلاغى وعلمى وتشريعى واخبارى ، حتى يصح فى العقل امكان نسبة القرآن الى أنه من كلامه ، وليس وحيا أوحى الله به اليه .

ويأتى أعداء الاسلام من المستشرقين والمبشرين ، فيشككون عن تضليل مقصود بظاهرة الوحى التى تلقى بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسالته من ربه ، مع انهم يعتقدون بالوحى الذى أنزل على موسى وعيسى من قبل ، ويقبلون ما هو دون الوحى من الهامات يزعمون انها حصلت لقديسيهم وفيها من الأقوال والأخبار ما لا تقبله العقول من آحاد الناس ، بل من عصاتهم وفساقهم ، فضلا عن قديسين ملهمين .

وفى هذا التشكيك المضلل يطرحون عدة افكار .

١ ـ يقولون : لعل الحالة التى كانت تعترى محمدا ـ حين يقول : ان الوحى قد نزل عليه وابلغه ـ حالة اضطراب فى اعصاب البصر ، يخيل له معها انه يرى شيئا ، وهو لم ير فى الحقيقة شيئا .

وقد أجاب القرآن عن هذا قبل ايراده ، بقول الله تعالى :

((ما زاغ البصر وما طغى)) (١) .

واجاب الواقع بأن ما يأتى به بعد هذه الحـالة علم لا يمكن أن يأتى به من تزيغ أبصارهم .

٢ ـ ويقولون : لعل الحالة التى كانت تعتريه حالة اضطراب فى قوى الفكر ، كانت تمثل له المعانى والأفكار على صورة اشباح اجسـام ، وتمثل له الأحلام والتخيلات أجساما ترى .

وقد أجاب القرآن عن هذا قبل ايراده بقول الله تعالى :

((ما كذب الفؤاد ما رأى)) (٢) .

واجاب الواقع بأن ما يأتى به بعد هذه الحـالة علم حق لا يمكن ان يكون الا منزلا من لدن عزيز حكيم .

٣ ـ ويقولون : لعل الحالة التى كانت تعتريه حالة آتيـة من قبل الجن أو الشـياطين .

وقد أجاب القرآن عن هذا بقول الله تعالى :

((وما تنزلت به الشـياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، انهم عن السمع لمعزولون)) (٣) .

وأجاب عنه القرآن أيضا بأن الجن لا يعلمون الغيب وان كانوا صالحين ، فمن اين لهم ان يأتوا بعلوم الغيب التى جاء بهـا القرآن ، قال الله تعالى فى معرض الحديث عن سليمان :

((فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثـوا فى العـذاب المهـين)) (٤) .

---

(١) سورة النجم ـ الآية ١٧
(٢) سورة النجم ـ الآية ١١
(٣) سورة الشعراء ـ الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢
(٤) سورة سبأ ـ الآية ١٤

واجاب الواقع بأن ما اتى به بعـد حالات الوحى علم عظيم وقرآن معجز لا يستطيع الجن ولا الانس ان يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وهو معصوم من الخطأ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ، اما ما تاتى به الجن والشياطين لاخوانهم من البشر فتلفيقات ان صدق بعضها كذب أكثرها ، وليس شيء منها يصدق كله .

فهذا القرآن وحى من عند الله ، فما كان يعرض للرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو قطعا من قبيل الوحى الصادق .

والظاهرة الوحى خصـائص تميزها عن الأعراض الأخرى التى قد تعرض للنـاس .

١ ــ فهى ظاهرة تأتى الرسـول من دون تكلف ولا تصنع ولا تحضير ، انهـا أمر يأتى الرسول من غير اختيـار منه ، وقد يطلب الرسول الوحى فلا يأتيه ، وكثيرا ما كان يأتيه مفاجئا دون سابق تطلع نفسى له .

٢ ــ وهى ظاهرة مصحوبة بحالة وعى كامل من الرسول ، فهى لا تشـبه حالات الاغماء ، أو النوم ، أو الغيبوبة المرضية ، بوجـه من الوجوه ، وقد اثبت ذلك أصحابه حينما كان يأتيه الوحى وهم معه .

٣ ــ وهى ظاهرة تصاحبها حالة صحـة تامة وقوة كاملة فى ذاتيـة الرسول وجسده ، فهى تخالف تماما حالات الأعراض المرضية التى يضطرب بها الجسم ، ويصفر منها الوجه ، وتبرد معها الأطراف وترجف ، وتصطك الأسنان ، وتنكشف العورات ، ويحتجب نور العقل .

بل يكون معها نمو فى قوة البدن ، واشراق فى اللون ، وارتفاع فى درجـة الحرارة ، ويقظة كاملة .

وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفى على أحد ممن ينظرون الى الرسول حين كان ينزل عليه القرآن ، اذ كانوا يرونه قد أحمر وجهه فجاة ، وارتفعت حرارة جسمه حتى يتفصد جبينه عرقا ، وثقل جسمه حتى يكاد فخذه يرض فخذ الجالس الى جانبه ، واذا كان على راحلته بركت من ثقل الوحى ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتا مختلفة تشبه دوى النحل ، كل هذه الأمور ثابتة فى الصحيح .

روى البخارى عن عائشة أنها قالت : **« ولقد رايته ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا »** .

وثبت انه جاءه الوحى مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الى غير ذلك من نصوص .

فمزاعم اعداء الاسلام حول التشكيك بظاهرة الوحى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم تضليلات تنفثها احقادهم الدفينة ، وعداواتهم المتوارثة ، وعدم رغبتهم باتباع الحق الذى أتاهم به من عند ربهم .

كيف تبحث عن آية أو موضوع قرآنى :

١ ـ اذا كان فى ذاكرتك قسم من آية قرآنية ولو كلمة واحدة ، فاستطاعتك أن تستخرج هذه الآية بالرجوع أولا الى كتاب (المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم) وضع محمد فؤاد عبد الباقى ، أو الى كتاب (المرشد لالفاظ القرآن الكريم) والأول منهما أكثر اتقانا ، لتأخره واستفادته ممن سبقه .

فقد رتب هذا المعجم على طريقة ترتيب المعاجم بالاعتماد على أوائل أصول الكلمات فثوانيها فأواخرها ، اذ تأتى فيه أصول الكلمات المبدوءة بالألف بعدها الألف ، ثم الألف بعدها الباء ، ثم الالف بعدها التاء ، ثم الالف الباء بعدها الثاء ، وهكذا الى آخر حروف الهجاء .

فاذا انتهت الكلمات التى تبدأ أصولها بالالف ، جاءت الكلمات التى تبدأ أصولها بالباء بعدها الألف ، ثم الباء بعدها الباء ، ثم الباء بعدها التاء ثم الباء بعدها الثاء ، وهكذا الى آخر حروف الهجاء .

فاذا انتهت الكلمات التى تبدأ أصولها بالباء ، جاءت الكلمات التى تبدأ أصولها بالتاء ، وفق الطريقة السابقة ، حتى آخر حروف الهجاء .

ويراعى فى الجميع الحرف الثالث من الكلمة تدرجا من الالف الى الياء ، كمراعاة الأمر فى الحرف الثانى :

مثل	ومثل	ومثل
ابت	بأت	تبر
أبث	بأث	تثر
ابج	بأج	تجر
ابح	بأح	تحر
ابخ	بأخ	تخر
ابد	بأد	

فاذا ظفرت بالكلمة التى تبحث عنهـا فستجدها فى آية أو أكثر اذا كانت من الكلمات القرآنية فعلا .

عندئذ تتبع المقاطع من الآيات التى وجدت فيها هذه الكلمة ، فاذا ظهرت لك الآية التى تبحث عنها وجدت الى جانبها كما يلى :

رقم الآية فاسم السورة فرقم السورة من القرآن

مثل كلمت : (السحت) تجدها فى (سحت) كما يلى :

السحت : سماعون للكذب أكالون للسحت رقمها ٤٢ سورة م المائدة رقم ٥ وقد رمز واضـع المعجم ب (م) الى أن السورة مدنيـة ، وب (ك) الى أن السورة مكية .

عندئذ ترجع الى المصحف وتستخرج الآية المطلوبة كاملة من السورة التى ذكرها المعجم ، ووفق رقم الآية الذى ذكره .

٢ ـ واذا كنت تبحث عن موضوع وتريد أن تستخرج آياته ، فعليك أن تجمع ذهنك ، وتستحضر الكلمات التى يمكن أن يكون لهـا علاقة بالموضوع ، وتبحث فى المعجم المذكور عن كل كلمة منها ، فانك ستظفر بجملة من الآيات فيها بعض الكلمات التى استحضرتها ، وهذه الآيات ستنبهك على نظائرها ، أو على كلمات يمكن أن تنفعك فى استخراج آيات تناسب الموضوع الذى تبحث عنه فى القرآن .

أو ترجع الى كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) الذى وضعه (جـول لابوم) ونقله الى العربية (محمد فؤاد عبد البـاقى) فقد وضعه جامعـه على الموضوعات . وجعل له فهرسا ، فباستطاعتك أن ترجع اليـه ، وتستخرج الموضوع الذى تريد أن تبحث عنه ، اذا كان من الموضوعات التى تعرض لهـا القرآن بصراحة .

الفصل الثانى

ثبوت القرآن ـ جمعه ـ اعجازه

كتب هذا الفصل الاستاذ الشيخ محمد الغزالى

ثبوت القرآن ... !

من قرون سحيقة ، والشمس — فى مرآى العين — هى الشمس — لم تتغير على تعاقب الأجيال ، ولم تزد ولم تنقص على اختلاف الليل والنهار ! .

ومن قرون سحيقة ، والقمر — فى مرآى العين — هو القمر لا يزال بين الخلف والسلف مستدير القرص — هادىء النور ، لم يطرأ عليه مع اطراد الزمان تبديل ، ولا نالت منه (عوامل التعرية) التى يقول العلماء : انها تنقص الجبال الرواسى وتبريها ، طولا وعرضا .. !!

ونحن المسلمين نرى القرآن الكريم حقيقة علمية ثابتة كهذه الحقائق الكونية الدائمة : فهو هو منذ بدأ لم يزد حرفا ، ولم ينقص .. !!

نقله جبريل عن الله بأمانة ، ونقله كذلك محمد عن جبريل ، ونقله الصحابة عن محمد ، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة ، تنقله عبر القرون ، حتى بلغت به الينا مثلما نزل قبل اربعة عشر قرنا ، وسنورثه نحن غيرنا بهذه الهيئة المكتملة المصونة ، وسيظل الحفظة يروونه للأعصار المقبلة الى أن ينفض سرادق الحياة والأحياء وينقلب الناس جميعا الى الله ..

لا بل سيظل القرآن فى العالم الآخر باقيا يتلوه أهله على النحو الذى نزل به امين الوحى لأول مرة ، وفى الحديث : **« يقال لقارىء القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كنت كما ترتل فى الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها »**.

ان هذا القرآن قد اختصه الله بالحفظ والخلود : فهو حقيقة محصنة من التحريف ، وهو حقيقة تغالب الفناء وتغلبه .. لا بالظن والحدس واستنطاق الآثار ، بل بالحس القائم على الرؤية والسماع ..

ان الأدلة التاريخية المختلفة قد ترشح ببعض الحق ، أما الحالة بالنسبة للقرآن فان الشواهد على صدقه تجىء سيلا غدقا ، ينفى بطبيعته الشبه ، ويؤسس اليقين تأسيسا .. !! والطريق الاول فى أخذ القرآن عن صاحب الوحى ، ثم فى انتشاره بعد بين الناس . هو التلقى بالمشافهة على سبيل التواتر والاستفاضة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ ما يجيئه من عند الله والصحابة يسمعون منه بآذانهم . فيعرفون منه حقيقة النظم القرآنى ، واسلوب أدائه معا . كأنواع المدود ومخارج الحروف وما الى ذلك .

وهذا الضرب من التلقى لم ينتقل به القرآن الكريم من الرسول الى اصحابه مرة واحدة ، اعقبها صمت طويل كلا : فان تكرار القراءة جعل تداول الوحى الأعلى أمرا مفروضا فالرسول يحفظه ، واصحابه الآخذون

عنه يحفظون . ثم يعود هـذا المحفوظ الى الظهـور فى الصـلوات الموقوتة :
فالرسول يقرأ والصحابة يستمعون .

واذا اراد أى مسلم أن يتعبد ، قرأ فى جوف الليل أو فى وضح النهار ، واذا اراد ان يتغنى بالقرآن فعل واذا اراد أن يخطب به فعل ، واذا اراد ان يدرسه فعل ، وهكذا . ما ان ينزل شيء من القرآن حتى تستوعبه الصدور ، ثم تردده فى كل افق لا فى يوم أو عام بل فى قرابة ربع قرن ، ولا مع رجـل واحد ، او قبيلة واحدة بل بين الألوف المؤلفة من الناس ..

ان هذه الأشرطة الحية لم تكن فقط مستودعا يحفظ القـرآن لتتيسر عند اللزوم اذاعته ، بل كانت تهدر بآيات الله اناء الليل ، واطراف النهار ، فى حلق الذكر ومجالس العلم ، ومحاريب الصلاة ، وخطب الجمع والمجـامع العامة .. !! وبهذا التواتر الرائع ثبت القرآن ثبوتا لا مجال فيه لظنـون او اوهام .. !! وعلماء المسلمين يعتمدون على طريق التلقى هذه ، ويرجعون اليها وحدها فى علوم التجويد والأداء . قال السـيوطى : والأمة كمـا هى متعبدة بفهم معانى القرآن واحكامه ، متعبـدة بتصحيح الفاظه ، واقامة حروفه على الصفة المتلقاه من الائمة القراء ، وهى الصفة المتصلة بالحضرة النبوية ، أى انه لا يكفى الأخذ من المصاحف بدون تلق عن افواه المشـايخ المتقنين للتلاوة . ! يدل على ذلك ما رواه الطبرانى وغيره عن مسعود بن زيد الكندى ، قال : كان عبد الله بن مسعود يقرىء رجـلا ، فقرأ الرجل الآية ((**انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ..**))(1) قراءة مرسـلة خطف فيهـا المدود فلم يشبعها كما ينبغى ، فقال عبـد الله بن مسـعود : ما هكذا اقرأنيها ثم تلاها مرة اخرى (**انما الصـدقات للفقراء**) .. ومـد الفقراء المد اللازم المعروف .

والواقع أن الحديث الحسن النازل من عند الله اخـذ يطرد سـائر الأحاديث الأخرى من شعر ونثر : فاذا العرب المؤمنون يدعون حفظ المنظوم والمنثور ويتوجهون الى حفظ الآيات البينات . !

ان معجزة الاسلام واءمت طباعهم كما يتواءم الحق وغطاؤه ، ومن ثم رأينا جيوشا بأسرها تتألف من أولئك الحفاظ الواعين .

ثم ان الله عز وجل أراد أن يقي الاسلام ما أصاب الديانات الأولى من زيغ وتحريف : فان بعض هذه الديانات تلاشت حقائقها جملة . وتوارت فى طوفان من الغفلة والضياع ، والبعض الآخر تطرق اليه التحريف والتبـديل

(1) التوبة الآية ٦٠

على نحو استخفت به الحقيقة وعز ادراكها . ومن ثم اقتضت العناية العليا ان تصاغ الرسالة الجديدة فى أطار من الجمال الأدبى تتعلق القلوب بصيانته وتتلاقى على قداسته . بل ان الشكل اعتبر جزءا من الموضوع فان الفاظ القرآن الكريم اعتبرت جزءا لا ينفصل عنه وأصبحت قراءتها عبادة ، واصبح مجرد ترديدها قربى الى الله ... والتعلق بالفاظ القرآن نفسها على هذه الصورة انما قصد به تقوية السياج الذى يصون أحكام الوحى ، وتوجيهات السماء ، فلا تتعرض رسالة الاسلام للفوضى التى سقط فيها اتباع الديانات السابقة ، بعد ما تزحزحت عن أصولها ، وتاهت عن منابعها الأولى :

وذلك يفسر لنا سر الترغيب الشديد فى حفظ القرآن ، وادمان تلاوته ، وترديد آياته بين الحين والحين . وهناك بعض وصايا النبى صلى الله عليه وسلم التى تحث الأمة على تعهد كتابها واحياء دراسته .

قال : ((**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**)) ..

وقال : ((**من قرا حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر امثالها . لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف**)) !

وقال : ((**ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم . الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده**)) ..

وقال : ((**ان هذا القرآن مادبة الله ، فاقبلوا مادبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فان الله ياجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، اما انى لا أقول لكم الم حرف . ولكن الف ، ولام ، وميم**)) ..

وهذه التوجيهات غيض من فيض ، فان عشرات ومئات الأحاديث ترادفت على هذا السياق الواضح ، وتضافرت على ابقاء القرآن الكريم رطبا على الألسنة مكنونا فى الصدور يتلى فى البيوت والأسواق ، والمساجد والمحافل ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه حرف واحد .. !! انه هو هو كما قراه صاحب الرسالة من أربعة عشر قرنا ، يرويه عن جبريل عن الله جل شانه ..

وثبوت القرآن الكريم عن طريق التلقى والتواتر والاستفاضة هو أحد طريقين يظاهر احدهما الآخر ويقربه وان كان الطريق الأول اشهر .. اما

الطريق الثانى فهو الكتابة ، ذلك أن الكلام الالهى كما استوعبته صـــدور الحفاظ استوعبته سطور الصحف ..

كانت الآيات تنزل فيبادر الكتبة الى تسجيلها ، ويخطون فى صحائفهم معالمها ، وان كان هذا التسجيل يجىء كتوثيقات العقود فى عصرنا ، أى بعد تمامها علميا أو عمليا ..

والعرب امة أمية بيد أن شيوع الأمية فيهم حتى لو وصلت نسبتها الى ٦٥٪ لا يبخس القلة الكاتبة حقها ولا ينقص خطرها ، فليس من الضرورى لثبوت الكتابة أن تطبع الوف النسخ من كتاب واحد ، بل يكفى أن توجـد جملة من النسخ المطابقة المتوافقة تتسق مع المحفوظ ويتم تسجيلها باشراف النبى نفسه وجهد كتبة الوحى معه ..

وقد ظهرت صحف القرآن الكريم منذ بدات الدعوة ، بل فى الفتــرة السرية لانتشارها ، والأمر يحتاج الى استنتاج ، فان اسم « الكتاب » علم يرادف القرآن ، ويدل كلاهما دلالة متســاوية على الوحى الالهى العزيز ..

وهذا العلم المشهور يعرف فى مكة ويعرف فى المدينة على سواء ، ففى القرآن النازل بمكة ترى قوله تعـالى : **« حم ، تنزيل الكتاب من الله العـزيز الحكيم »** (١) . **« حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم »** (٢) . **« طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين »** (٣) الخ .

وفى القرآن النازل بالمدينة تـرى قوله تعالى : **« آلم ، ذلـك الكتــاب لا ريب فيه »** (٤) . **« الم ، الله لا اله الا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتـاب بالحق »** (٥) . والتنويه بشـأن الصحف التى تحمل الوحى وتيسر للنـــاس مطالعته مذكور فى السور النازلة بمكة والمدينـــة جميعـا ، وذلك كقوله جل شـــأنه :

« كلا انها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بايدى سفرة ، كرام بررة » (٦) . ـ وهى سورة مكية ..

---

(١) الاحقاف الآية ١ ، ٢
(٢) غافر الآية ١ ، ٢
(٣) النمل الآية ١
(٤) البقرة الآية ١ ، ٢
(٥) آل عمران الآيات ١ ، ٢ ، ٣
(٦) عبس الآيات ١١ ـ ١٦

وقوله : « **رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة** » (١) . والسورة مدنية ..

وعندى أن التنويه بوظيفة القلم فى نشر هذه المعرفة السماوية وخط الكتابة فى اشاعة هذا القلم واستبقائه على الزمن هو سر القسم فى الآيات : « **ن والقلم وما يسطرون ، ما انت بنعمة ربك بمجنون** » (٢) ..

وانك لتقارن بين صدر هذه السورة وبين ختامها فيتأكد لديك هذا المعنى اذ ان ختام السورة : « **وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ، وما هو الا ذكر للعالمين** » (٣) .

ولعل من الاشادة بحظ الكتابة فى نشر القرآن قول الله عز وجل فى أول آيات انزلت : « **اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم** » (٤) .

والذى يعنينا اظهار المدى الواسع الذى انتشرت فيه صحف الوحى ، فان القرآن المكتوب كان متداولا فى دائرة رحبة ، وكان معروفا فى كثير من البيوت التى يتقن أصحابها الكتابة . وقد شرعت له أحكام فقهية خاصة ، منها الا يمسه جنب والا يسافر به الى أرض العدو المحارب مخافة امتهانة ، وكان للوحى كتاب مخصوصون أشبه بالموظفين المنقطعين له ، يؤدون له واجب التدوين فى السفر والاقامة ويملى عليهم الرسول ما ينزل به الملك ذاك عدا الذين يكتبون لانفسهم ما يحفظونه أو ما ينقلونه . فلما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، كان القرآن كله محفوظا فى الصدور وكان كذلك مثبتا فى السطور ..

وشيوع القرآن الكريم على هذه الصفة الواسعة لم يجىء عفوا ، وانما مهدت له أسباب فعالة نوجزها هنا :

فالعرب فى فجر الاسلام كانوا أمة لها خاصة بارزة فى مآثرها ومفاخرها هى تذوق الأدب العالى ، والاقبال عليه ، ونحن نعرف الأمم الآن بخلائق معينة تشيع فيها ، واطعمة مادية وادبية تلتصق ببيئتها . ففن البناء مثلا يبلغ أن يكون غريزة فى الايطاليين ، ويستطيع النقاد أن يحصوا معالم المجتمعات فى

---

(١) البينة الآية ٢ ، ٣

(٢) القلم الآية ١ ، ٢

(٣) القلم الآية ٥١ ، ٥٢

(٤) العلق الآيات ٣ ، ٤ ، ٥

القارات الخمس ويذكروا الى جانب الطبقـــات الانسانيـــة المشـــتركة صفة خاصة ؛ اظهر واذيع في قوم دون آخرين .. ! !

فالعرب في فجر الاسلام كانوا امة لها خاصـــة بارزة في مآثرها ومفاخرها في قصيدة جيدة ، او كلمة حكيمة ، وقد ارادوا ابراز آثارهم التى تكشف عن نواحى العظمة فيهم ، فكانت المعلقات السبع .. !! كانت صناعة الكلام لديهم تضارع فى زماننا هذا ارقى الصناعات التى تنتجها الأمم وتقيم لها المعارض ، وتدعو لها الزائرين ! ! وانك لتقرا من ولوعهم بالأدب ما يثير العجب .. !!

اتعرف الصحابى الجليل عبد الله بن عبـــاس ؟ انه اســـتمع الى الشاعر عمر بن ابى ربيعة فى قصيدة غزل له تربى على السبعين بيتا وحفظها ؟ !

روى صاحب الأمالى قال : اتى ابن عباس عمر بن ابى ربيعـــة فانشـــده قصيدته :

امن آل نعـــم انت غـــاد فمبـــكر
غـــداة غـــد أم رائح فمهجـــر ؟

حتى بلغ آخرها . فقال ابن عباس : ان شئت اعدتها عليك ! فقيل له : أو قد حفظتها ؟قال : أو منكم من يسمع شيئا ولا يحفظه ؟ ؟

وروى عن التابعى المحدث الفقيه الورع سعيد بن المسيب انه فاضل بين شاعرين وتلا أبياتا يحتج فيها لرايه فى ترجيح احدهما . قال صاحب الأمالى : فلما انقضى الكلام استغفر الله سعيد مائة مرة بعدها بالأصـــابع الخمس .. ! وسعيد غلبته طبيعة البيئـــة وفطرة العرب فصنع ما صنع . وهو لم يرتكب اثما وانما راى انه شغل نفسه بغير ما ينتظر من مثله .. !!

ونخلص من ذلك الى تقرير حقيقة معروفة عن العرب أيام الرسالة ، هى ولوعهم بالآداب العليا ، وحفظهم لها . وتنويههم بأصحابها .. !!

والقرآن الكريم ، وهو المعجزة الأدبية الخالدة فى لسان العرب ما ان ظهر حتى بهر !! ولا غرو . فليس فى تراث المستقدمين ولا المستأخرين نظير له . وقد استمع البلغاء له فهيمن على مشاعرهم ، ونفـــذت بلاغته الى شـــغاف قلوبهم ، واذا كانوا يعجبون بألوان من البيان اقل بمراحل مما جاء فى القرآن ، فكيف يكون انتباههم لهذا اللون الجـــديد من الحكمـــة التى هبطت عليهم ، واثارت دهشتهم ! انهم ــ وهم عشاق الأدب البحت ــ واجدون فيه ما يروى غلتهم ، ويسكن تطلعهم الفنى الى الكمال والجمـــال ، فكيف اذا امتزج هـــذا التقدير الادبى بالايمان الدينى ؟

لا شك أن القرآن الكريم سيكون شغلهم بالليل والنهار .. !

ثبوت .. وثبوت .. !!

لا يزعم النصارى أن الأناجيل الكنسية القائمـــة الآن وحى من الله الى عيسى بن مريم ، بل هم يقفون بها عند حدودها العتيدة ، ويرونهـــا سيرا خاصــــة كتبهـــا رجال معينون ، واودعوها ما لديهم من معارف ووصايا وتواريخ لحياة السيد المسيح ومن ثم ينسبون كل انجيل لكاتبه فحسب ! ! .

واطلاق كلمة « انجيل » على هذه التواليف مجاز قد يوقع فى اللبس ، اذ يحسب العامة أن هناك صلات بين تلك القصص المكتوبة ، وبين الانجيل الذى ثبت لدينا أن الله أنزل على نبيه عيسى بن مريم وهو الكتاب المقدس الذى هو غير موجود الآن لأنه ــ كما يبدو ــ ذهب مع الاضطهـــاد اليهودى الرومانى القـــديم .

والواقع المسلم به هو دليل ذلك الاســـتنتاج البين . والا فأين يا ترى انجيل عيسى بن مريم ؟؟ .

واذا اتضح ذلك ، يمكننا أن ننفى أية مقـــابلة بين القرآن الكريم ، وبين انجيل ما من هذه الأناجيل فلا موضع البتة لمقارنة بين وحى الهى منزل وبين كلام انسانى مؤلف .

ذاك من ناحية « المتن » . أما من ناحية « السند » فلا موضع البة للمقارنة بين ما تواترنقله ، وتلقاه جمهور من العدول الموثقين عن جمهور مثله ، وبين أشياء يرويها أفراد ، لو أن كل واحد منهم ثقة ما بلغ حديثه درجـــة اليقين الجازم .. ان مجال المقابلة يوجد بين هذا القــرآن وبين الانجيل المنزل على عيسى نفسه وهو انجيل لا شك فى انه حق لأن الله عز وجل اخبـــرنا بذلك فى كتابه الأخير فقال : ((**وقفينـــا على آثارهم بعيسى بن مريم مصـــدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيـــه هـــدى ونور**)) (١) .. على أن ما لدى النصارى انفسهم من كتابات يومىء الى وجود هذا الانجيل المفتقد .

وما يقال فى الانجيل الموحى به ، يقال فى التوراة ، على اختلاف فى التفصيل والتمثيل ، فان الأمر منته حتما بالنتيجة السابقة ..

والواقع انه ليس فى العالم الآن كتاب تصح نسبته الى الله ، وتتقدم الدعوى به محفوفة بآلاف الأدلة وتسطع حقيقته فى الأذهان سطوع الضحوة الكبرى ، فى الأبصار .. الا هذا القرآن الكريم ..

---

(١) المائدة الآية ٤٦

انه وحده صوت السماء ، ووديعة الملأ الأعلى وكلام الله الذى **((لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)) (١) ..**

لكن يبقى بعد ذلك أن مؤلفى الأناجيل ، رووا فيها تعاليم شتى نطق بها نبى الله ، وكلام الأنبياء له قيمته ، واذا كانت هذه المرويات لا تقارن بالقرآن مثلا ، فلم لا تقارن بالأحاديث النبوية ؟ وهذا تساؤل حقيق بالاجابة ..

فان هناك وجه شبه بين الأناجيل ، وبين بعض أحاديث الأحاد عندنا ، أعنى الاحاديث « المرسلة » ، و « المنقطعة » و « الموضوعة » ..

وقد يكون هناك شبه بين بعض تعاليم عيسى ، وبين ما صح من كلام محمد ، عليهما الصلاة والسلام ..

والأمر يحتاج الى فضل ايضاح ..

فالسلسلة منقطعة فى احد المواضع ، وانقطاع السلسلة يزرى بالرواية فى حديث آحاد ، ويجعل العلماء فى حل من رده .

فماذا تقول اذا علمت أن كاتب انجيل لوقا ، لم ير عيسى ، ولم يسمع منه ؟ ان انقطاع السلسلة بين لوقا وعيسى ، يحل العلماء من قبول مؤلفه هذا دون حرج ..

وذلك كله على فرض سلامة المتن ، وسلامة بقية الرواة ..

وروى ابن ماجة عن خالد بن عمرو القرشي الأموى السعيدى عن سفيان الثورى عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، دلنى على عمل اذا عملته احبنى الله ، واحبنى الناس ، فقال : **((ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى ايدى الناس يحبك الناس)) ..**

قال العلماء : الحديث ضعيف ـ وان لطف معناه ـ لم ؟ لأن خالدا الراوى الأول ، رجل متهم متروك الحديث !! .

فماذا تكون عليه الحال اذا كان (بولس) الراوية الكبير فى النصرانية رجلا متهما ؟ .

واذا كان (متى) نفسه قد التحق بوظيفة محصل ضرائب للرومان الظلمة .

---

(١) فصلت الاية ٤٢

هذه الأوصاف والأعمال، تجعل صاحبها فى نظر النقاد المسلمين غير مأمون الرواية !!! .

ثم لنفرض جدلا أن الأسانيد فوق الشبه وان المتون لا غبار عيها ، وأن الأحاديث بعد ذلك صحيحة لا يسوغ ردها ، فما نتيجة هذا الفرض ؟

ان الأحاديث الصحيحة لا تفيد أكثر من الظن العلمى . . وأصول الأديان من عقائد وأحكام ، وقواعد وشعائر ، لا تقبل الا من مصدر يقينى ، أى من مصدر متواتر مكين .

والمسلمون لا يعرفون هذه المنزلة كاملة الا للقرآن الكريم ، لأنه جملة وتفصيلا ، متواتر بخلاف السنة ، التى قل المتواتر فيها .

ان التراث الأدبى فى الأناجيل الكنسية ، اذا قيس بما يشابهه عندنا ، لم يحرز تقديرا يذكر . فاننا نحن المسلمين بلغنا فى ضبط المنقول مدى أربى على الغاية ، وانقطعت دونه الظنون .

وذلك أن علماء الاسلام حرروا ما ينسب لنبيهم على ضوء قواعد لا يجد العقل منفذا لخدشها ، فنقلة الكلام يجب أن يكونوا سلسلة موصولة الحلقات من الرجال العدول الثقات ، فاذا انخرمت السلسلة فى موضع ، أو تطرق الطعن الى أحد الرواة لم يكن الحديث موضع تسليم . .

واذا اتصلت السلسلة ، وسلمت أقدار الرواة ، نظر بعد ذلك الى الكلام نفسه ، فقد تكون به علل قادحة ، يستبينها النقدة على طول التأمل، وقد يكون فيه شذوذ عما استراح اليه العقل والنقل من طرق أخرى ، فان وجد شىء من ذلك رفض الحديث . . .

ولا نظن أن هناك دقة فى وزن الكلام ، وتصحيح نسبته ، وتقدير قيمته ، فوق ما وصل اليه علماء المسلمين فى هذا المجال . .

ولنضرب طائفة من الأمثلة الكاشفة المقارنة لترسخ فى الأذهان هذه الحقائق ، روى أحمد بن حنبل بسنده الى الحسن البصرى ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من استمع الى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » . .

هذا الحديث تضمن معنى جميلا . بيد أن العلماء يحكمون عليه بالضعف مع ذلك ! ولم ؟ لأن الجمهور يرى أن الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة . .

فكيف تكون الحال اذا كانت دعائم النصرانية لا تقوم الا على أخبار الآحاد ؟ واى آحاد ؟ آحاد فى أسلوب روايتهم متسع لترويج الشائعات ، وتصديق الخرافات .. وفى تسلسل الرواية عنهم ، فجوات وفجوات ! .

خذ مثلا انجيل (متى) . ان الرجل كتب سيرة عيسى بن مريم — التى تسمى خطأ ، أو مجازا — انجيل (متى) بالعبرانية أو السريانية ، والنسخة المكتوبة بهذه اللغة أو تلك لا تعرف ، وانما توجد نسخة باليونانية ، هى أقدم ما عرف من ذلك الانجيل .

اين الأصل الاول ؟ من الذى ترجمه ؟ متى كتب الأصل ؟ ومتى تمت الترجمة ؟

ليست هناك اجابات على هذه الأسئلة .. !! الباحث الحر فى حل من حجب ثقته عن مثل هذا الكتاب ، من ناحية سنده التاريخى ، فلننتقل الى المتن نفسه ، بعد ما عرفنا قيمة السند ..

قال الأستاذ الشيخ محمد ابو زهرة : « لقد اشتمل بعض هذه الكتب على اخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة فى التاريخ ، يعرفها الخاص والعام ، ولدونتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة فى الدهر ، ان أمثال هذه الحكايات كانت فى حاشية النسخة العبرانية وادخلها الكتاب فى المتن ، وهذا وقع فى يد المترجم فترجمها كما وجدها » .

ونقول : لعل كثيرا مما فى المتن أصله فى الحاشية ثم نقل خطأ فى المتن .

واذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدرا لاعتقاد جازم ، وايمان بدين ؟ وكيف يزعم زاعم ان هذا الكتاب بحواشيه الداخلية ، غير المعلومة من متنه الأصيل ، هو بالهام من الله العلى القدير ؟ ..

ولكن فى العالم عقول تقبل ذلك ، بيد انه من الانصاف لهذه العقول أن نقول : ان أصحابها يقيمون عليها غواشى تمنع نورها ان يكشف عن موضع الضعف فى هذا الكلام ، فهى تقبله على غير بينة ولا سلطان .

ومن الانصاف أن نذكر ضميمة اخرى الى جانب هذه الحقيقة وهى ان فى صحائف العهد القديم والجديد آثارا حسنة ، وعظات صادقة ، وامثالا حكيمة ..

ولن تعدم فى ركام المرويات التى اجتلبها الرواة من كل مكان ، كلاما عليه طابع الوحى ، تطل من خلاله أرواح موسى ، وعيسى وغيرهما من انبياء بنى اسرائيل ..

ولا غرو ، فالمأخوذ على القوم انهم لبسوا حقـا بباطل ، وشركا بتوحيد ، وهوى الأنفس بأحكام الله فكان هذا الخلط سبب ما عراهم من انحراف ، بل ما عرا العالم كله ــ معهم ــ من شقوة وشرود . .

ولكن لم يرد لها ذكر فى التاريخ ، ولم يعرف الناس امرها الا من تلك الكتب . هذا « متى » يقول عند صلب المسيح وقيامته :

« فصرخ يسوع بصوت عظيم ، واسلم الروح واذا حجاب الهيكل قد انشق الى اثنين من فوق الى اسفل » والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من اجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين ــ واما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما راوا الزلزلة وما كان خافوا جدا وقالوا: حقا كان هذا ابن الله » .

وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذى لم يشر الى المسيح بكلمة .

ولو صحت ايضا لآمن الرومان واليهود ، أو آمن نفر منهم .

الصخور تنشق ، والأرض تزلزل ، والأموات ينتشرون ويسيرون على الأرض ، ويراهم الكثيرون ويبقى بعد ذلك مساغ لانكار ؟ ومع هذا لم ترد اخبار بايمان احد من اليهود على اثر تلك البينات الباهرات . ولقد جزم العلامة المسيحى نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال فى تكذيبها : « هذه الحكاية كاذبة » .

كيف تم جمع القرآن . . ؟؟

عندما آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب الى الرفيق الأعلى ، وترك هذه الدنيا بعد ما أدى رسالته انجح اداء . تركها وللاسلام فيهـا دولة قائمة ، ودعوة واضحـة ، وقوة مهيبـة ، وسـلطان يعصم دمـاء المؤمنين واموالهم ، ويرد نزوات السفهاء عنها .

تركها بعد ما استقر الوحى فى صدور الرجال ، وبطون الكتب ، وانداحت الدائرة التى يتلى فيها القرآن الكريم ، حتى بلغت الف ميل من اقصى اليمن الى اطراف الشام ، ومن الخليج الفارسى الى شواطىء البحر الأحمر . . !

ومما يجب التنويه به ان القرآن الكريم ــ فى فترة كفاح الدعوة . وضغط الوثنية كان يتلى ويكتب دون مصادرة تنال من اصله . .

صحيح ان المشركين ضاقوا به ، وثاروا عليه ، بيد أن خصومتهم له كانت تتخذ فى التشويش عليه طرقا اخرى لا تتصل بجوهره . .

منها تلفيق كلمات تشبه سور القرآن ، وتتحدى اعجازه !! .

ومنها اللغط فى مجالسه ، وافتعال ضجيج يمنع سماعه !!

وهذه وتلك محاولات صبيانية ، لم تلبث أن ذابت فى حرارة الجد ، وسطوة الحق ، والغريب ان معلمى القرآن وصلوا الى حد من الكثرة يستحق التأمل ، وخصوصا فى هذه الفترة المكافحة العصيبة . انظر كيف قتل سبعون قارئا فى معركة بئر معونة ، ومع هذه الخسارة الفادحة ، فان معلمى القرآن فى صحراء الجزيرة لم تقع بينهم ازمة ، بل ظلت وفودهم تنساب هنا وهناك من غير انقطاع .

فاذا كانت هذه حال القرآن ايام غربته ، وهو يشق طريقه بين الخصومات والعقبات فكيف تكون حاله بعد ما رست دعائمه ، ووضحت معالمه ، وتكونت له دولة تأخذ لربها ونفسها ما تشاء ؟ .

الحق أن الوجود الانسانى منذ الأزل لم يعرف كتابا توافرت له ضمانات الحفظ وتظاهرت حوله أسباب العصمة ، مثل ما عرف لهذا القرآن الكريم .

ان التواتر القوى يشد أسانيده من كل ناحية ؟ جماهير كثيفة تروى عن جماهير كثيفة ، وتبلغ فى الاستقصاء أن تحصى كلمات السور ، بل تعد حروف الهجاء الموجودة بها حرفا حرفا .

وهذا على نقيض ما وقع لديانات اخرى لم تلق أصولها ذرة من هذه العناية ولنضرب النصرانية مثلا لهذا التفاوت .

ان البون بعيد بين الظروف التى توفى فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، والظروف التى توفى الله فيها عيسى ورفعه اليه ، كلا الرجلين نبى كريم ، بلغ رسالات الله بأمانة ووفاء ، غير أن الاسلام كان أسعد حظا فى النجاة من أعدائه، والغلب على مؤامراتهم ، من المسيحية التى تعرضت لخصومات عاصفة .

كان عيسى بن مريم عليه السلام كانما يقاتل فى معركة انسحاب ، لقد اعتبر هو واتباعه خارجين عن القانون السائد ، وخروج المصلحين على العرف القائم ، والتقاليد الموروثة ، امر لا يضيرهم ، بل قد يكون أساس شرفهم ومحور كرامتهم ، وهنا يدور الصراع بين مبادىء ومبادىء ، وجبل وجيل ويحتدم النزاع بين الحق والباطل ، ريثما تجىء النتائج الحاسمة .

ويبدو أن الذين آمنوا بعيسى لم تكن لهم شوكة مرهوبة . اما لقلتهم ، واما لضعف شأنهم واما لقوة اليهود والرومان والذين تألبوا عليهم .

ومن ثم جاء ختام هذا العراك مؤسفا ، فقد سير الرومان ثلة من رجال الشرطة القوا القبض على عيسى ؟ وقتلوه كما يزعم النصارى ، وافلت من

ايديهم كما نعتقد نحن المسلمين ، وطويت صحائف هذه الدعوة المضطهدة بهذا المصير الخطير ؟ وتبدد الاتباع شذر مذر ؟ وضاع الانجيل الذى أنزله الله على نبيه ، فلم يعثر له على اثر الى يوم الناس هذا ، وكل ما اثر من تعاليمه بقايا اشاعها لفيف من كتاب سيرته بعد عشرات السنين من وفاته ، فى أحوال تحفها الريب ، ويغلب عليها التخليط والخبط ، وسميت هذه السير المؤلفة اناجيل، وليست هى البتة بالانجيل الذى أنزل على نبى الله عيسى بن مريم . ؟

شتان بين هذه الأحوال ، وبين الأحوال التى اكتنفت صدر الاسلام فان اتباعه الأوائل — على ما شرحنا — صنعوا سياجا من حديد حول دعوته ، فلما حاول الباطل ان يفضها انكسرت أنيابه حول كيان مصفح شديد . وهو وهم مبعثه كما ترى شدة الغيرة على القرآن وان كانت الأيام لم تتمخض عنه ، ولا اقتربت منه ، فان الحفاظ الواعين كلما حصدت المعارك منهم نفرا ، نبت مكانهم مثلهم أو ضعفهم . ومع ذلك فان فكرة جمع القرآن المكتوب فكرة مقدورة مشكورة بلا ريب ، وقد نفذها أبو بكر ، واليك رواية البخارى فى هذا الشأن :

عن زيد بن ثابت قال : « **بعث الى ابو بكر لمقتل اهل اليمامة — وعنده عمر ، جاءنى فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى كل المواطن ، فيذهب من القرآن كثير ؟ وانى أرى أن تامر بجمع القرآن ، قال : قلت لعمر كيف افعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر هو والله خير ؟ فلم يزل يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر عمر ، ورايت فى ذلك الذى راى عمر . قال زيد : فقال لى ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه ؟ قال زيد : فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان اثقل على مما امرنى به من جمع القرآن !! فقلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله فقال ابو بكر : هو والله خير !! فلم يزل ابو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر ابى بكر** » ..

وفى رواية : « **فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر ابى بكر وعمر ، ورايت فى ذلك الذى رايا** » ..

قال : « **فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع ابى خزيمة الانصارى ، فلم اجدها مع احد غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم ..) فالحقتها فى سورتها ..** قال : **فكانت الصحف عند ابى بكر حياته ، حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله . ثم عند حفصة بنت عمر** » ..

واخذت السنون تمر وامر الاسلام فى صعود ، والرقعة التى يسودها تتسع والأفواج التى تدخل فيه تنمو ، وظل الوحى ينزل ثلاثا وعشرين سنة مات الرسول صلى الله عليه وسلم آخرها بعد ان رهق المصلين فى مسجده ثم استنار وجهه كانه مذهبة . ان القرآن يتلى فى محرابه ، والجموع تنصت له فى يقين وخشوع والدنيا فى طول الجزيرة وعرضها تدين له ، والحياة الاجتماعية والسياسية تقوم عليه اى ان الامة والدولة كلتيهما سناد لهذا القرآن ، واشياع وحراس .

وحدث عن كتاب اصبح روح شعب ، ومراسيم حكومة ؟

ان العناية بامره لن تحتاج الى تكلف ولا استكراه . وقد بسطنا القول آنفا ان القرآن نزل كله ، وكتب كله ، وحفظ كله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما استخلف ابو بكر وتولى شئون المسلمين عن لاولى الأمر ان يجمعوا الوثائق التى سجلت فيها آيات الكتاب العزيز ، وان يضموا بعضها الى بعض ، ليكون من هذه الأصول المكتوبة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مصحف واحد تحفظه الدولة لديها وهو وان أودع خزائنها لعدم الحاجة اليه فى الحاضر .. فان المستقبل قد يطلبه . نعم لم تكن هناك حاجة عاجلة لهذا الجمع ، فان القراء كثرة مستفيضة . ورواية القرآن بالتلقى العام منتشرة بين جماهير المسلمين ، والكتابة وحدها لا تكفى كما بين فى تعلم القرآن وتعليمه. ذلك ان ضبط الآداء كما جاء عن الرسول نفسه لا يكون الا مشافهة ، وهذا ما تظاهر المسلمون على حفظ القرآن به وان جاءت الكتابة الى جانبه سياجا بعد سياج .

وتذكر الروايات ان السبب المباشر فى جمع القرآن — من وثائقه المكتوبة — هو توجس ابى بكر وعمر ، لاستشهاد عدد كبير من الحفاظ فى حروب الردة ومقتل مئات من القراء أيام ابى بكر لا يضر بالقرآن شيئا فى يومه القريب فان حفاظه أربى من ذلك واغزر . بيد ان المعارك المتوقعة بين الحق والباطل قد تظل مشتعلة الاوار عصرا بعد عصر ، وقد تكون مسارعة هؤلاء الأبطال الحفاظ الى خوضها سببا فى ضياع التواتر الذى انفرد هذا القرآن به .

ومن ثم يجب جمع القرآن المكتوب ، وايداعه فى حرز بيد الدولة ، تجنبا لهذا الوهم ، وسياق هذا الحديث كما رواه البخارى يحتاج الى بيان وتوضيح. ما الذى كلف به زيد ؟ ان العمل الذى كلف به زيد هو جمع النصوص المتناثرة المكتوبة بامر رسول الله . والتى يحتفظ بها أناس كثيرون لأنفسهم ، ثم تنسيق هذه الجزازات والرقاع فى ترتيب يوافق المحفوظ فى صدور الرجال ..

وليس هذا الترتيب مستحدثا ، فقد بدأ بتوقيف من الرسول نفسه ، اذ كان يأمر الكتبة كلما نزل وحى جديد أن يثبتوه فى المكان الذى يذكر فيه كذا من القرآن النازل قبلا ..

ومهمة زيد ــ والحالة هذه ــ لا تعدو ضم ما تفرق هنا وهناك على نسق معهود له ولغيره من جمهور الحفظة ..

وزيادة فى الاستيثاق كان لا يقبل من المكتوب الا ما شهد اثنان بأنه سجل بامر الرسول ، وهو اشتراط تمليه الحيطة الزائدة فحسب ، والا فهو تشدد بالغ .. وهنا يحكى زيد ان ما يحفظه هو وغيره من ختام سورة براءة ، وجدوا له اصلا واحدا مكتوبا عند ابى خزيمة الانصارى ، وهو الرجل الذى اختصه رسول الله بمزية يعرف بها وحده ، تلك أن شهادته تعدل شهادة رجلين . وبذلك تم لزيد ما ألزم به نفسه ..

وماذا صنع زيد ، بل ماذا صنع رئيس الدولة بالمصحف الذى جمعه زيد ؟ احتفظ به عنده انه فى نظرى كوثائق العقود التى تودع للحاجة ، أما حقيقتها الخارجية فليست محل جدل ، لانها أشبه بالمحسوسات المادية الراسخة !! ..

وبقى سؤال اخير : لماذا دار هذا الحوار الوجل بين أبى بكر ووزيره ، او بينهما وبين زيد بن ثابت ، يقول لفيف من العلماء : انه الحرص الدقيق على ابقاء الأوضاع كما كانت أيام رسول الله ، والحذر من الاتيان بجديد لم يسبق اليه النبى الكريم ولو كان هذا الجديد جمع القرآن فى مصحف واحد ؟ !

وقد يكون ذلك سبب ما حدث من اخذ ورد ، وعندى أن هذا الموقف يعود الى استعظام اولئك الرجال لكلام الله ، واكبارهم لمهمة جمعه بأنفسهم وهم يرون اشخاصهم على جلالتها ــ دون هذا العمل . فمثار التردد يعود الى غمطهم لانفسهم لا الى مشروعية هذا العمل ، ولذلك مضوا فيه دون تردد لما بدالهم أن جوانب الخير فيه لا يجوز اهمالها .. وبقيت الصحف المجموعة فى مستودعها العتيد لا يحتاج احد اليها . أو لا يشعر بها ، فان القراء يتلون كتاب الله عن ظهر قلب ويتدارسونه فى بيوتهم ومحافلهم واسواقهم ومجامعهم ، دون ريبة .. واطرد سير القرآن مع امتداد الدولة الاسلامية ، فما يفتح بلد جديد الا عمره بالقرآن اهل القرآن ، يقيمون به الدولة ، ويبنون عليه المجتمع ..

كان للجيوش الاسلامية فى جبهتى فارس والروم دوى بالقرآن كدوى النحل فى خلاياها ، ولم يكن هناك علم آخر يشرك القرآن جزءا من الوقت ،

حتى السنة النبوية منع عمر بن الخطاب شغل الناس بدراستها ، حتى يعطوا ليلهم ونهارهم للقرآن وحده ولا نعرف ــ كما قلنا ــ كتابا فى التاريخ لقى هذه الحفاوة ، أو وجد ذلك الاقبال وقد كانت سورة القتال تتلى أحيانا فى نشيد جماعى تهدر به الكتائب الغازية ، كما نرى هتاف الجموع فى عصرنا بالنشيد القومى مثلا أبان فترات الحماس ..

ولم يقع شىء ذو بال بعد ذلك الا جمع المسلمين على المصحف الواحد الذى امرت الدولة بحفظ وثائقه بعد وفاة الرسول ..

ذلك ان القرآن ــ كما يعرف علماؤه ــ نزل بوجوده عدة ؛ قرأ بها الرسول وأقرأ بها غيره ويسره على المسلمين تلاوة ما يؤثرون منها . فهى جميعا سواء .. ودلالتها على الوحى الأعلى كدلالة ليث واسد على الحقيقة المعروفة .. نعم فان آية : ((**ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**)) يصح أن تتلى ((**ان جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا**)) (١) كلتا هما سواء وليست احداهما بأكثر من الأخرى فى شىء.. بيد ان بعض الذين بلغهم وجه واحد من هذه القراءات ، ربما اعترضوا القارئين بالوجه الآخر وقد ينشب لذلك جدال يفضه أهل العلم فور وقوعه .

ولكن الأمر مع انتشار المسلمين فى انحاء العالم خيف ان يتفاقم ، وان ينشب حوله خصام ينال من قداسة الوحى نفسه .. فكان ذلك العمل الجليل الذى قام به عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد كان حذيفة بن اليمان رضى الله عنه يشارك أهل الشام واهل العراق فى فتح ارمينية واذربيجان فأفزعه اختلاف بعض المسلمين فى قراءة القرآن ، فقدم على عثمان فقال له : يا امير المؤمنين ، ادرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .
فأرسل عثمان الى حفصة أم المؤمنين ان ارسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها اليك .

فأرسلتها حفصة الى عثمان ، فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف .

ثم رد عثمان الصحف الى حفصة رضى الله عنها ، وارسل الى كل افق بمصحف مما نسخوا وامر مما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف ان يحرق .

---

(١) الحجرات الآية ٦

وقصة هذا العمل الذى قام به عثمان بتنبيه من حذيفة بن اليمان رواها البخارى فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك عن حذيفة . وسمى ما نسخ فى عهد عثمان بالمصحف الامام ، وعليه تم نسخ مصاحف المسلمين بعد ذلك .

وقد كانت كتابة هذه المصاحف خالية من الشكل وخالية من النقط ، ثم دعت الضرورة الى ضبط الكتابة بعد ان اثرت اللغات غير العربية على السنة الشعوب العربية فادخل النقط على الحروف لتمييز المتشابهات منها فى الرسم ، وادخل الشكل لتحديد حركات الحروف به ، وحماية لكتاب الله من اللحن ، وكان ذلك فى عهد عبد الملك (٦٥ هـ) والمشهور ان واضع أصول نقط القرآن وشكله أبو الأسود الدؤلى ، ويذكر فى هذا الموضوع أيضا يحيى بن يعمر ، ونصر ابن عاصم الليثى .

اعجاز القرآن

الاعجاز البيانى

انني واحد من الالوف التى قرات هذا القرآن ومررت بمعانيه وغاياته مرور العابر حينا ومرور المتفرس المتأمل حينا آخر ..

والقرآن ليس الكتاب الوحيد الذى طالعته ، فقد طالعت مئات الكتب الاخري على اختلاف موضوعاتها واقتربت من نفوس اصحابها ومن البابهم ، وأذنت لهذه الكتب أن تترك آثارها فى فكرى ، لاقلبها على مكث ، وانتفع بما اراه نافعا والفظ ما أراه باطلا ..

ومن اليسير على وعلى اى قارىء مثلى أن يكون حكما معينا على الكتاب الذى تناوله . فقد اخلص من قراءة كتاب ما ، ثم اقول : هذا المؤلف واسع الاطلاع .. او اقول : ان ثقافته غزيرة فى الآداب الأجنبية ، أو انه طائل الثروة فى الأدب العربى لقديم ، أو انه ملم بآخر ما وصلت اليه الكشوف العلمية ، أوانه قصير الباع فى اعطاء المعنى حقه ، أو انه مصطبغ بلون يسارى ، أو انه من المعجبين بالفيلسوف الفلانى او أن فى نفسه عقدة تميل بأسلوبه الى الحدة فى ناحية كذا ، أوانه مرن الفهم والأداء .. الخ .

وقلما اعجز عن استبانة الخصائص الانسانية المتباينة فى تأليف الرجال الذين طالعت نتاجهم الذهنى ، أو آثارهم الروحية .

وكثيرون غيرى يجدون فى انفسهم هذه القدرة . وقد تلوت القرآن مرارا ، ورجعت بصرى فى آياته وسوره ، وحاولت ان اجد شبها بين الأثر النفسى

والذهنى لما يكتب العلماء والأدباء وبين الاثر النفسى والذهنى لهذا القرآن فلم اقع على شيء البتة ..

وقد احكم بأن كتابا ما صدر عن مؤلف فى عصر كذا ، وان جنسية هذا المؤلف ومزاجه واهدافه هى كيت وكيت .

اما بعد قراءة القرآن ، فأجزم بأن قائل هذا الكلام محيط بالسموات والأرض ، مشرف على الأولين والآخرين ، خبير بأغوار الضمائر واسرار النفوس ، يتحدث الى الناس تحدث السيد الحقيقى الى عباده ، الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ، ويتناول الأمم والقرون فى هالة من الجبروت والتعالى يستحيل أن تلمح فيها شارة لتكلف أو ادعاء .

ومع رفعة المصدر الذى تحس ان القرآن جاء منه احساسك بأن هذا الشيء اتى من بعيد فانك ما تلبث أن تشعر بأن الكلام نفسه قريب من طبيعتك ، متجاوب مع فطرتك ، صريح فى مكاشفتك بما لك وما عليك ، متلطف فى اقناعك ، فما تجد بدا من انقيادك لأدلته ، وانفساح صدرك لتقبله ..

ولا تحسبن هذا الوصف متأثرا بمواريث التدين التى انتقلت الينا من الاولين ، فان الكفار انفسهم ادركوا ان القرآن مباين بأسلوبه الخاص لجنس ما ألفوا من كلام ، وملكتهم الدهشة لدى سماعه .

فقد روى أن الوليد بن المغيرة ــ وهو من زعماء الكفر فى مكة ــ جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، واستمع الى ما يتلو من هذا القرآن فلما انصت وتدبر ، كأنما رق له قلبه ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه وقال له :

يا عم ، ان قومك يرون ان يجمعوا لك مالا ليعطوك اياه ، فانك اتبت محمدا وملت الى دينه .. !!

قال الوليد ــ مستنكرا عرض المال عليه ــ : لقد علمت قريش انى من اكثرها مالا .

قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك ، فيعلمون انك مكذب له وكاره .

قال : وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل اعلم منى بالشعر ، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن .

والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئا من هذا ، ووالله ان لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمنير اعلاه ، مشرق اسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى ، وانه

ليحطم ما تحته . وغضب أبو جهل لهذه الشهادة ، فان الصدق فى هذه القضية لا يعنيه ، بل يؤذيه .

والعراك على الرياسة فى هذه البيئات يذهل عن شئون الكفر والايمان .
فليكن محمد صادقا .

وليكن كلامه وحيا .

بيد أن المصلحة القبلية تقضى بكتمان أمره وانتقاص شخصه .
ولذلك عاد أبو جهل يلح على الوليد : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيـــه :

فقال الوليد .. دعنى أفكر ..

وفكر الوليد ، ثم أحب أن يكون منطقيا مع نفسه فقال : هذا سحر . !!
ولعله يقصـــد بالســـحر ما جاءت به قوى خفية لا يعرف النـــاس عادة حقيقتها .

وفى هذا الحوار نزل قوله عز وجل : « **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سارهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، ساصليه سقر** » (١) .

والواقع أن من الكذب الشـــائن على الفطرة والبـــداهة ، وعلى العقل والرواية ، أن يزعم زاعم بأن القرآن الكريم كلام عادى . وأن أديبـــا راسخ القدم فى البلاغة يستطيع أن يجىء بمثله ...

وقد تساءل كثيرون عن اسرار هذا التفرد الذى اتصف به القرآن الكريم .
ولا شك أن المعانى التى تضمنها والتى نسج سداها ولحمتهـــا من الحق الخالد اساس لهذا الاعجاز . بيد أن المعنى على جلاله ان لحقـــه قصور فى صورته واثره ، نقصت قيمته ، وطاشت دلالته .

وهناك معان جميلة فى نفوس اصحابها ، ولو استبانت على السطور لاشرقت بها الصحائف ... ولكنها مشاعر فى النفوس فحسب :

---

(١) المدثر الآيات ١١ – ٢٦

ان الــكلام لفى الفــؤاد وانما
جعل اللســـان على الفؤاد دليلا

فتصوير المعنى الصادق حتى يبرز فى الحروف كما يبرز الجمال الانسانى فى ابهى حلله ، وحتى ينتقل سناه الى الأفئدة نفاذا اخاذا ركن ركين فى خدمة الحقيقة وبسط سلطانها . وازاحة العوائق من أمامها . .

وقد تعرض لفيف من علمــاء الاسلام لشرح الاعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

وكنت انا نفسى كثير الطواف حول هــذا الجمال البيــانى ، أسرح فيه الطرف وأردد فيه الفكر ، لكنى كنت كالذى شــغله الاعجاب بالجمال ، عن وضع تفاسير له او لعلنى حاولت ثم غلبنى القصور ، فتوقفت مؤقتــا حتى تسنح فرصة . . . الى أن قرات للمرحوم العــلامة الشيخ « محمد عبد الله دراز » كتابه « النبأ العظيم ــ نظرات جــديدة فى القرآن » فرايت الرجل وفى هذا المجال حقه ، وافاض فى الحديث ، كأنما يتدفق من ينبوع لا يغيض أبدا .

وودت لو أن الرجل بقى حتى اكمل ما بدأ ، بيد أن المنية عاجلته فقضى وهو مجاهد فى سبيل ربه ــ طيب الله ثراه .

شرح الدكتور فى تفصيل طويل المعــانى التى احتــواها القرآن والتى يستحيل ــ بالبراهين الحاسمة ــ أن تصدر عن بشر ، واحصى جملة الشــبه التى يمكن أن تخطر ببال اى متردد مرتاب ، ثم أجهز عليها .

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصى فى طلب الحقيقة وبسط الاجابة فى أدب وفقه ، واسمع الى هذا البيان :

« فان قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضــة القرآن كان عجزا وانهم وجدوا فى طبيعة القرآن سرا من أسرار الاعجــاز يسمو به عن قدرتهم . ولكنى لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن ان تكون من نطــاق هذا السر ، لأنى أقرأ القرآن فلا أجـــده يخرج عن معهــود العرب فى لغتهم العربيـــة .

فمن حروفهم تركبت كلماته ، ومن كلماتهم الفت جمـــله وآياته ، وعلى مناهجهم فى التاليف جاء تأليفه .

فأى جديد فى مفردات القرآن لم تعرفه العرب من موادها وابنيتهــا ؟ واى جديد فى تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائفها ، ولم تأخذ به فى مذاهبها حتى نقول :

انه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟

قلنا له : أما ان القرآن الكريم لم يخرج فى لغته عن سنن العرب فى كلامهم افرادا وتركيبا فذلك فى جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان ادخل فى الاعجاز واوضح فى قطع الاعذار ((**ولو جعلناه قرآنا اعجميـا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى**)) ؟ ! (١)

وأما أبعد فهل ذهب عنك ان مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيـان ، فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بنـاء لم تكن فى الأرض ، ويخرجون فى صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانا مرفوعة ، وسقفا موضوعة،وأبوابا مشرعة . ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك فى اختيار امتن المواد ، وابقاها على الدهر : واكنها للناس من الحر والقر ، وفى تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفـاع بالمساحة اليسيرة فى المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهـواء .

فمنهم من يفى بذلك كله ، أو جله ، ومنهم من يخل بشىء منه أو أشـياء ... الى فنون من الزخرف يتفاوت الذوق الهندسى فيها تفاوتا بعيدا .

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى ، يتفاوت حظها فى الحسن والقبول .

وما من كلمة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغـة وقواعدها فى الجملة .

ولكنه حسن الاختيـار فى تلك المواد والأوضـاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك .

وسوء الاختيار فى شىء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك ، وتفتر منه نفسك ، وينفر منه طبعك .

الاعجـاز النفسى

احتوى القرآن على شرائع الاسـلام وأصول دعوته . لكن هذه الشرائع والأصول لا تستغرق جزءا كبيرا منـه ، فان الاسـلام دين يسير الرسالة ، محـدود التكاليف . وانما كثرت السور واستبحرت الآيات لكى يمكن عرض الحقائق الدينية فى أسلوب عامر بالاقناع فياض بالأدلة :

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤

نعم تستطيع حصر احكام القرآن ، وزبدة عقائده وتعاليمه فى بضع صفحات وبضع صفحات ليست شيئا هينا انها تتسع لحشد كبير من المعارف الثمينة .

بيد ان الوحى الالهى ليس مجموعة من العلوم رصت فى كتاب ثم قدمت للناس .

ان عماد هذا الوحى ـ بعد تقرير الحق الذى جاء به ـ هو : كيف يغرس هذا الحق فى النفوس ، وكيف تفتح اقطارها له وكيف تبقى عليه وان تعرضت للفتن ، وكيف يبقى فيها وان زاحمه الباطل وضيق عليه الخناق بصنوف المحرجات ، ان وحدانية الله جل جلاله أم العقائد الاسلامية ومبدأ التوحيد لا يحتاج فى بيانه الى كراسات أو مجلدات ، بل كلمة التوحيد تكتب فى سطر وتنطق فى لحظات ، فهل كذلك الأمر فى اشراب القلوب حقيقة التوحيد . وتتبع مسالك الانسان لنفى الشرك عنها ، والزامها الصراط المستقيم ؟ وسرد تاريخ الأمم الأولى ، وكيف اجتالتها الشياطين عن الفطرة ، فاتخذت من دون الله أوثانا ؟ . . .

ثم كيف لقيت المصير الأسود الذى يجب أن تتعظ به الأجيال الجديدة بعد بوار القرون السابقة ؟ . . .

الأمر هنا يحتاج الى افاضة واستطراد حتى يستطاع التغلب على طبيعة الانسان المعاندة ، واغلاق كل منفذ يمكن أن تهرب منه .

ولذلك يقول الله عز وجل : **« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شىء جدلا »** (١) .

قد تجد فى القرآن حقيقية علمية مفردة ، ولكن هذه الحقيقة تظهر فى ألف ثوب ، وتتوزع تحت عناوين شتى ، كما تذوق السكر فى عشرات من الطعوم والفواكه . وهذا التكرار مقصود ، وان لم تزد به الحقيقة العلمية فى مفهومها .

ذلك أن الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط ، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها ، والتقاط آخر ما تختلقه اللجاجة من شبهات وتعلات ، ثم الكر عليها بالحجج الدامغة ، حتى تبقى النفس وليس أمامها مفر من الخضوع للحق والاستكانة لله . وعندى أن قدرا كبيرا من اعجاز القرآن الكريم يرجع الى

---

(١) الكهف الآية ٥٤

هذا .. فما اظن امرأ سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع اليه ثم يزعم انه لم يتأثر به :

قد تقول : ولم يتأثر به ؟ والجواب انه ما من هاجس يعرض للنفس الانسانية من ناحية الحقائق الدينية ـ الا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه ..

ما أكثر ما يفر المرء من نفسه ، وما أكثر الذين يمضون فى سبل الحياة هائمين على وجوههم . ما تمسكهم بالدنيا الا ضرورات المادة فحسب .

ان القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب الى اولئك جميعا ، وكأنه عرف ضائقة كل ذى ضيق ، وزلة كل ذى زلل ، ثم تكفل بازاحتها كلها ، كما يعرف الراعى اين تاهت خرافه ، فهو يجمعها من هنا وهناك ، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها .

وذاك سر التعميم فى قول الله عز وجل :

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل » (١) .

حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله . انهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل ، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ، ولكنه يؤخذ فترة ما يصدق العاطفة الباكية .

أو مثلما يقف الخلى امام خطيب يهدر بالصدق ، ويحدث العميان عن اليقين الذى يرى ولا يرون .

انه قد يرجع مستهزئا ، ولكنه يرجع بغير النفس التى جاء بها .

والمنكرون من هذا النوع لا يطعنون فى التأثير النفسانى للقرآن الكريم . كما ان العميان لا يطعنون فى قيمة الأشعة .

ولذا يقول عز وجل :

« الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » (٢) .

---

(١) الكهف الآية ٥٤

(٢) سورة الزمر الآية ٢٣

وتصريف الأمثال للناس ترديدهم بين صنوف المعانى الرائعة ...
قال العلمـــاء فى شرح الآية : **(ولقد صرفنـــا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ...)** .

رددنا وكررنا من كل معنى كالمثل فى غرابته وحسنه ، اوسقنا لهم وجوه العبر والأحكام والوعد والوعيد ، والقصص وغير ذلك .

والمقصود أن القرآن يملك على الانسان نفسه بالوسيلة الوحيـــدة التى تقهر تفوقه فى الجدل ، أى بتقديم الدليل المفحم لكل شبهة ، وتسليط البرهان القاهر على كل حجة .

فالنكوص عن الايمان بعد قراءة القرآن يكون كفرا عن تجاهل لا عن جهل وعن تقصير لا عن قصور ...

والجدل آفة نفسية وعقلية معا ، والنشاط الذهنى للمجادل يمده حراك نفسى خفى قلما يهدأ بسهولة .

وجماهير البشر لديها من اســـباب الجدل ما يفوق الحصر ، ذلك انهم يرتبطون بما الفوا انفسهم عليه من أديان وآراء ومذاهب ارتباطا شــــديدا ، ويصعب عليهم الاحساس بأنهم وآباءهم كانوا فى ضـــلال ــ مثلا ــ فاذا جاءت رسالة عامة تمزق الغشـــاوات عن العيون ، وتكشف للنـــاس مالم يكونوا يعرفون . فلا تستغـــربن ما تلقى من الانـــكار والتوقف ، أو التكـــذيب والمعارضة .

وأسلوب القرآن فى استلال الجفوة من النفس ، والقاء الصواب فى الفكر ، أو فى على الغاية فى هذا المضمار .

ذلك أنه لون حديثه للسامعين تلوينا يمزج بين ايقـــاظ العقل والضمير معا ، ثم تابع سوقه متابعة ان أفلت المرء منها أولا لم يفلت آخرا .

كما يصاب الهدف حتما على دقة المرمى ، وموالاة التصويب ...
وذلك هو تصريف الأمثال للناس . انه احاطـة الانســـان بسلسلة من المغريات المنوعة لا معدى له من الركون الى احداها . او معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى لابد ان يستسلم القفل عند واحد منها . وتراكيب القرآن ــ التى تنتهى حتما بهذه النتيجة ــ تستحق التأمل الطويل .

ولسنا هنا بصدد الكلام عن بلاغتها ، بل بصدد البحث عن المعـــانى التى تألفت منها ، فكان من اجتماعها هذا الأثر الساحر ... وهاك مثلا من مئات

الأمثلة فى هذا الشأن ترى فيه حديثا عن مظاهر الكون ، ثم ايماء الى مشاهد القيامة ، ثم تحذيرا للانسان من الغفلة ، ثم دفعا قويا الى الطريق السوى لا بد فيه من الجمع بين صلاح العقيدة ، وسلامة الخلق ، وحسن العبادة ، ودقة المعاملة للناس أجمعين .

« كلا والقمر . والليل اذ ادبر . والصبح اذا اسفر . انها لاحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم ان يتقدم او يتاخر . كل نفس بما كسبت رهينة . الا اصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى اتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين » (١) .

اننى اقرأ هذه الآيات فأحس عملها القوى فى أرجاء نفسى ، غير اننى لا ادرى سر هذا العمل القوى !

الكلمات ومعانيها من جنس ما نعرف ، اما آثارها فلسنا نعرف مأتاها ، وان تشبثت بأنفسنا الى ابعد الحدود .

والشىء قد يكون فى احدى حالاته مألوفا لا يثير انتباها ، فاذا اظهر هذا الشىء نفسه فى أوضاع أخرى اكتنفته معان شتى ! !

الا ترى الزخرفة فى فن الرسم تتكون من (وحدة) معينة ! لو رأيت صورتها مفردة ما لفتت نظرك ، فاذا كررها الرسام بطرق مختلفة برزت معالم الجمال فى انواع من الزخارف تسحر الألباب .

ثم ان الفك الشىء قد يخفى ما فيه من اسرار ويصرفك عن اكتشافها .

وكثيرا ما تتلو آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه فى الطريق ملامح تراها قد تكون دميمة ، وقد تكون وسيمة ، تمر أشكالها بالعين ، فما تثبت على احدها الا قليلا وفى ذهول .

لأن المرء مشغول بشأنه الخاص عن دراسة القدرة العليا فى نسج هذه العيون ، وغرس هذه الرءوس ، وصوغ تلك الشفاه ، واحكام ما تنفرج عنه من اسنان ، وما تؤدى اليه من أجهزة دوارة لا تقف لحظة ... اننا نقرأ القرآن فيحجبنا ابتداء عن رؤية اعجازه . أنه كلام من جنس ما نعرف ، وحروف من جنس ما ننطق ، فنمضى فى القراءة دون حس كامل بالحقيقة الكبيرة .

---

(١) سورة المدثر الآيات ٣٢ ـ ٤٨

الا أن طبيعة هذا القرآن لا تلبث أن تقهر برودة الالف ، وطول المعرفة ، فاذا كتاب تتعرى أمامه النفوس ، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها ، وتنزعج من ذهولها . وركودها ، وتجد نفسها أمام الله جل شأنه يحيط بها ويناقشـــها ويعلمها ويؤدبها فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلن العميق الا أن تخشع وتصيخ .

«وكما قهر القرآن نوازع الجدل فى الانسان وسكن لجاجتـه ، تغلب على مشاعر الملل فيه ، وأمده بنشاط لا ينفد .

والجدل غير الملل ، هذا تحرك ذهنى قد يجسد الأوهام ، ويحولهـا الى حقائق وذاك موات عاطفى قد يجمد المشاعر ، فما تكاد تتأثر باخطر الحقائق .
وكثير من الناس يصلون فى حياتهم العادية الى هــذه المنزلة من الركود العاطفى ، فنجد لديهم برودا غريبا بازاء المثيرات العاصفة لا عن ثبات وجلاده، بل عن موت قلوبهم وشلل حواسهم ... ! ! !

ونحن نعرف هذه الحالة فى طباع الناس ونحاول علاجها بالوان المثيرات التى لا تخطر ببال .

خذ مثلا عاطفة الحب الجنسى . ان هذه العاطفة مع ارتباطها باعتى الغرائز الانسانية لم تترك للون واحد من المنشطات المادية والأدبيـــة ، بل تســابق الشعراء والمغنون والملحنون والموسيقيون لمداعبة النفس الانسانية بالوان من الغناء واللحن والعزف تفوق الحصر .

فمن لم تعجبه اغنية هاجته اخرى ، ومن استغلق فؤاده أمام لحن انفتح أمام لحن آخر ، ومن طال به الالف فهذا أخترعت له فنون اخرى تثير الهامد من احساســه ، وهكذا . وفى اغلب الآفاق المــادية والمعنوية يحسب للملال الانسان وكلاله حساب دقيق ، وتؤخذ الحيطة له كى لا يقف بالمرء فى بدايات الطريق ... ! ! !

والقرآن الكريم فى تحدثه بالنفس الانسانية حارب هــذا الملل ، وأقصاه عنها اقصاء ، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والحين حتى انه ليمكنها ان تستقبل فى كل يوم ميلادا جديدا : « **وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا** » (١) .

واحداث الذكر هو تجديد معنويات الانسان كلما صدات على طول التعب ومس الذهول . واسلوب القرآن فى هذا المجال يربى على كل تقدير .

(١) سورة طه الاية ١١٣

انه يخترق أسوار الغفلة ويصل الى صميم القلب ، ثم يقفه راغبـــا او راهبا بازاء ما يريد .

وقد توجد سورة بأكملها حافلة بهذه الاثارات المحركة لوعى الانســـان ، المجددة لقواه ومشاعره كلما استرخت وفترت .

وقد تقوم ســـور أخرى على طراز من المعـــانى التوجيهية كالتشريعات والأحكام لا صلة لهـــا بانفعالات القلوب ، وذلك لا يغير من الحقيقـــة التى شرحناها . فان شئون المعاملات فى القرآن الكريم تستمد قداســـتها وصدق التأثر بها من مقررات العقيدة والتقوى التى غرستها سائر السور والآيات .. والشعور بالرهبة والرقة يغمرك وانت تستمع الى قصص الأولين والآخرين تروى بلسان الحق ، ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والمغـــازى والعبر تقشعر منه الجلود .

وأقرب الأمثلة لذلك سور الأعراف وهود والشعراء والقصص ... الخ .

والهدف الاهم من وراء هذا السرد المتكرر ليس بيـــان الحق فقط ، بل هو ـ الى جانب ذلك تعميق مجراه فى القلوب تعميقـــا ينفى ما طبع عليـــه الانسان من جدل وملل ...

الاعجـــاز العـلمى

لا سبيل الى معرفة الله عن طريق التأمل فى ذاته فان الوســـائل الى ذلك معدومة ، وانما طريق التعرف على الله يبدأ من التأمل فى خلقه .

وعن طريق التفكير السليم فى الحياة والاحيـــاء . واستخلاص المعارف القيمة الخارجة من الارض او النازلة من السماء ، يمكننا أن ندرك طرفا من عظمة الخالق ، الأعلى وما ينبغى ان يوصف به من كمال ... ! ! !

كيف يعرف روعة القدرة واحاطة العـــلم ، ودقة الحكمة وجلال الموجود الكبير ، أمرؤ مغلق الذهن مكفوف البصـــيرة ، يمشى على الأرض كما تمشى السائمة ، لا يستبين من صفحات العـــالم ، ومن قوانين الكهرباء او أسرار الجاذبية ، أو معالم الجمال ، أو طبائع العمران الا ما تستبينه الدواب ؟ ؟ ؟

انك تنظر الى الآلة الدوارة ، ذات التروس المتراكبة والأذرع المتشـــابكة تتحرك كما أريد لها بسرعة ونظام ، وتؤدى العمل المطلوب منها برقابة واحكام فما تملك نفسك من أن تشهد بحدة الذكاء للذى اخترعها ، ومهارة اليد التى قدرتها ، ثم سيرتها . ونحن كذلك ننظر الى ما بين أيدينا وما خلفنا وما فوقنا

وما تحتنا ، فما نملك انفسنا من الشهادة لله — الذى أبرز ذلك كله من العدم — بأنه خلق فسوى ، وقدر فهدى .

وكلما ازدادت معرفتنا بمادة الوجود وسره وانكشفت لنا آياته وخباياه احسسنا ان عظمة المبدع المجيد فوق ما يطيقه وعينا المحدود وأن التحية التى تقدم لهذا الاله الجليل هى الاعتراف بأن مظاهر وجوده بهرت كما يبهر السنا المتألق عيون الناظرين ! ! !

ان درسا فى الطبيعة والكيمياء هو صلاة خاشعة . وان سياحة فى علم الأفلاك هى تسبيح وتحميد . وان جولة فى الحقول الناضرة ، والحدائق الزاهرة أو جولة مثلها فى المصانع الطافحة بالحركة ، المائجة بالوقود والانتاج هى صلة حسنة بالله ، ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . وقد كنت أهش لحصص العلوم الكونية يوم كنا نتلقى دروسها فى مرحلة التعليم الثانوى .

وكانت حصيلتنا من هذه الدراسات حسنة ، أو هى على الأقل مهاد يستطيع طالب المزيد أن يبنى عليه . . . ثم عرفت أن لجنة لتعديل المناهج فى الجامع الأزهر طوحت بنصف هذه الدراسات ، وردت أكثر الباقى الى مرحلة التعليم الابتدائى .

وحجتها فسح المجال لعلوم اللغة والشريعة .

وهذا عمل طائش ، والحجة فيه داحضة ، فان العلوم الكونية من صميم المعارف الاسلامية ، بل هى أولى بالله وبدينه من أكثر العلوم المنسوبة الى الاسلام الآن .

والحقيقة ان هذا التصرف عودة الى المعصية التى ارتكبها المفكرون الاسلاميون عندما ذهلوا عن البحث فى المادة ، وانشغلو بالبحث فيما وراءها . فرجعوا بعد عدة قرون من هذا الشطط وأيديهم صفر . فلا هم فهموا المادة وانتفعوا بعلومها المتاحة . ولا هم الذين اخترقوا أسوار الغيوب ، وعرفوا كنه ما وراء الطبيعة .

بل ليت أيديهم عادت صفرا ، لقد عادت وملؤها الوهم من فلسفات النظر الفاشل ، والتفكير المريض . . . ان كل توهين للدراسات المادية هو مشاقة واضحة لآيات النظر والتدبر الواردة فى القرآن الكريم — وما أكثرها — .

وما نغالى اذا قلنا : انها حكم بالاعدام على هذه الآيات ثم اقامة مجتمع ساذج ، أو مستغل . أو بليد بين أرض وسماء حافلتين بالنور والقوة . . .

ان الله الذى انزل الاسلام ، واتم به النعمة ، جعل ملاك فقهه وقيام امره على ذلك العقــل .

وان الله الذىابدع هذا العالم لم يلق مفاتيح ابداعه للبـــله والحمقى ، وانما القاها للعالمين الأذكياء . ولم يتح تسخيرها للمفرطين العاجزين ، وانما اتاحها لأولى العزم الأقوياء . . ! !

والتطابق بين الكون الممهد ، وبين العقل الواعى كالتطـــابق بين الحق وغطائه . . .

فاذا لم يستفق العقل ويؤد رســالته ، انفصمت العلائق بينه وبين هذا العالم ، وبالتالى وهت صلته بالله ، وانحسرت دون مداها .

فمن أين تتأتى معرفة الله على وجه مستكمل جميل الا عن طريق امعــان النظر فى ملكوت الله ، ومطالعة روائعه بين الحين والحين ؟؟

واذا كان ذلك طريق ابتداء المعرفة ، فهو كذلك طريق مضاعفتها .

ولا يصدنك عن هذا الحق أن هناك علمـــاء بالكون يجهلون ربهم ، فان أسباب جهلهم أو جحدهم لا تنبعث من هذه الدراسات .

واذا وجدنا من يقرأ الكتاب العزيز ويكفر به فليس كفرانه آتيا من قبل قراءته ، وما يجرؤ مســلم على تحريم القراءة لأن بعض المعلولين لم يحسن الافادة منها . كذلك لا يقبل من أحـــد ابدا ان يغض من شـــأن الدراسات الكونية ، لأنها لم تهد بعض الملحدين الى رب العالمين .

وليس ثمة تفاوت بين العلم والدين ، فان الله الحق هو مصـــدر الاثنين ، واذا لوحظ أن هناك اختلافا فليس بين علم ودين ، بل بين دين وجهل اخـــذ سمة العلم ، أو بين علم ولغو لبس سمت الدين .

وسترى أن القرآن الكريم مستقيم كل الاستقامة مع كل الكشوف التى يميط العلم عنها الستار ، وذلك لا ريب من دلائل صدقه وآيات اعجازه فان راكب الناقة ابن الصحراء ــ الذى لم يعل اللجج يوما أو يكابد الأنواء ــ حين يجىء على لسانه وصف علمى دقيق للبحر والجو ، نجزم بأن هــذا الوصف ليس من عنده ، بل من عند عالم الغيب والشهادة .

هب ان فلاحا من اغمار الصعيد كتب وصفا لرحلة جوية بين شـــاطىء المحيطين ، ذكر فيها انباء لا تعرفها الا أدق المراصد ، وأحوالا ما يتبينها الا أذكى الطيارين . أتحسب أحدا يصدق بأنه قال ذلك من عند نفسه . . وقبل

ان نذكر نماذج للرد المحكم الذى أفرغ القرآن فيه أوصاف الكون ، ومشاهد الطبيعة ، وقوى العالم نحب ان نذكر طبيعة الصلة بين العلم والدين أو بين آيات الله فى كتابه الكريم وآياته فى هذا الكون العظيم ... وذلك نقلا عن كتاب (سنن الله الكونية) للدكتور العالم محمد احمد الغمراوى ...

قال : بعد شرح للمسالك التى يتأوى بها العلم الى نتائجه : ـ

رأيت مثلا من طريقة العلم فى تعرف أسرار الفطرة والاهتداء الى سنن الله فى الكون ـ وتبينت كيف أن هذه الطريقة تضمن الوصول الى الحق فى القريب او البعيد ، وان استعانت على ذلك بفرض الفروض لكن لا خوف قط على الحقيقة من هذه الفروض ما دام العلم يطبق فروضه على الواقع ويمحصها بالتجربة والاختبار .

فهذه الطريقة فى الواقع هى طريقة العلم فى الاجتهاد ، وبينها وبين طريقة اجتهاد المجتهدين فى الدين وجه شبه مهم هو :

ان رجال العلم يستوحون الحقيقة من صنع الله ، ورجال الدين يستوحون الحقيقة من كلام الله وحديث رسوله . فكل فى الحقيقة مرجعه الى الله ، وان لم يصل رجال العلم بعد الى الله . وكل فى حكم الدين نفسه مرجعه الى الله ، اذ أن هذه الحقائق الطبيعية التى يكشف عنها العلم ببحوثه ان هى الا نوع من كلمات الله ، أو هى كلمات الله الواقعة النافذة كما أن آيات القرآن هى كلمات الله الصادقة المنزلة .

ولقد سمى القرآن حقائق أسرار الخلق كلمات الله فى مثل قوله تعالى :

« ولو انما فى الأرض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله » (١) .

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (٢) .

وكلمات الله فى هاتين الآيتين الكريمتين لا يمكن ان تكون كلماته المنزلة على رسله لأن كلماته سبحانه فى كتبه المنزلة محصورة محدودة فى حين أن كلماته المشار اليها فى هاتين الآيتين لا حصر لها ولا نهاية .

---

(١) سورة لقمان ٢٧

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٩

فلا بد أن تكون هى كلماته النافذة فى خلقه والتى يبدو اثرها متجسما فيما يشاهد من الحوادث وفيما يكشف العلم من أسرار الكون .

فالاسلام متسع للعلم كله : حقائقه وفروضه والمجتهد مثاب اخطأ أم اصاب ، ما دام يرد وجه الحق ، وان كان العلم لا يعرف الى الآن : ان سبيل الحق من سبيل الله ..

ما مظهر الوفاق بين آيات القرآن وأسرار الكون التى اطلعنا العلم عليها فى هذا الزمان ؟ وأين مصداق ما تلاه محمد على الناس منذ اربعة عشر قرنا فكان سبقه به دليلا على انه لا ينطق عن الهوى . أن هو الا وحى ويوحى ؟ لقد ذكر الدكتور العالم امثلة شتى تلمحها وهو يصف بدقة حقائق الطبيعة . ثم يسوق بعدها الآيات القرآنية فاذا هى منطوية على هذه الأوصاف أو متجاوبة معها ...

وكما سخر الله سبحانه الجاذبية للانسان فى اجراء الأنهار تسير الهوينى او غير الهوينى الى سطح البحر ، سخرها له ايضا فى كبح جماح البحر ، ومنعه أن يطغى بمائه الاجاج على النهر او على اليابسة فهى دائما تحبسه فى مستقره الذى هو أقرب مواطن سطح الارض الى مركز الأرض فالبحر لا يستطيع أن يفارق مستقره ذلك الا بقوة اخرى تغلب قوة الجاذبية وهيهات . فكأنما البحر ملجم بالجاذبية أن يهجم على اليابسة من الأرض ، كلما هم بالهجوم بفعل المد أو الريح ، أو حركة الأرض ، جذبته قدرة الله بلجام الجاذبية من خلف فيعود الى موطنه الذى كتب عليه أن يبقى مقيدا فيه ، ولقد من الله سبحانه على الانسان بهذا حين من عليه بحجزه بين البحرين او بين البحر والنهر . فى قوله :

« وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (١) .

وليس ذلك البرزخ — والله أعلم — الا ارتفاع ما بين سطح البحر وسطح اليابسة التى يجرى فيها النهر . وليس كذلك الحجر المحجور — والله أعلم — الا الجاذبية بين البحر ومركز الأرض وحبسها البحر فى موطنه . ولقد من الله على الانسان بذلك مرة أخرى ، وعاب عليه وعجب منه كيف يشرك مع الله الها آخر رغم ذلك الابداع فى قوله سبحانه :

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣

« أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ إإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون » (١) .

فتفهم هذه الآية الكريمة فى ضوء ما ذكرناه لك وتأمل تعقيبه سبحانه بقوله : (**بل أكثرهم لا يعلمون**) تعلم أن ذلك العلم من هذا الدين ، وأن هذا القرآن لم يأت الا من خالق الفطرة ، وانه لا غنى للمسلم عن علم الفطرة ان كان يريد حقا أن يفهم شيئا من سر الآيات الكونية فى القرآن .

اهمية الجاذبية فى السماء :

على ان اهمية الجاذبية هى أعظم من هذا بكثير ، فان الجاذبية كما قد عرفنا ليست بين الأرض وما عليها فقط . بل بين الأرض وما عداها من الكواكب ثم هى أيضا بين كل كوكب وما عدا . .

فكل كوكب فى ملكوت الله يجذب كل كوكب آخر طبق سنة الجاذبية السابق ذكرها . أى بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتى الكوكبين مقسوما على مربع المسافة بينهما ، وناتج كل هذه القوى الواقعة على الكوكب قوة واحدة يمسكه الله بها فى مداره أو فلكه . أو فى موقعه الذى هو فيه اذا كان النجم من الثوابت

فالجاذبية اذن على قدر علم الانسان الى الآن هى القوة التى قدرها لها ، أو هذا ان شئت هو ما ادركه الانسان الى الآن من سر قوله تعالى :

« **ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده (٢)** » ،وفى قوله تعالى:« **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** »(٣) وما يشبهها من آيات القرآن الكريم ، اشارة الى قوى الجاذبية الخافية التى هى بعد تقدير الله لها سبب بقاء اجرام السماء فى أماكنها . ومداراتها المقدرة لها فانه اذا فهم من قوله تعالى : (**بغير عمد ترونها**) أن السموات مرفوعة بعمد غير مرئية ـ كما هو ظاهر الآية ـ كانت تلك العمد غير المرئية هى قوى الجاذبية بين بعض الكواكب وبعض . لأن العمد المعروفة المادية تؤثر أثرها ، وتحمل أحمالها ، بارساء قوى ، أو ضغوط تساوى وتضاد ضغوط الأبنية عليها كما هو صريح علم القوى . وكما يحصل بالضبط بين الكواكب المتجاذبة .

---

(١) النمل الآية ٦١
(٢) فاطر الآية ٤١
(٣) الرعد الآية ٢

القسم الثانى

التفســـــير

((تفسير سورة الرعد))

المجموعة الأولى

كتب هذا القسم الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١)

التفسير

النص :

قال الله تعالى : « **الـر** »

تتلى هذه الحروف باسمائها ساكنة (**الف ــ لام ــ ميم ــ را**)

(١) الشرح :

أطال الباحثون الكلام حول الحروف المقطعة التى افتتح الله بها اوائل طائفة من سور القرآن الكريم ، وقبل أن نعرض الى اظهر الوجوه التى ذكروها ، لابد من ان نقدم بين يديها ان العرب الذين عاصروا صدر الرسالة ، ونزل القرآن بلغتهم ــ وفيهم المعارضون المعاندون الذين كانوا يجهدون باحثين لعلهم يظفرون فى القرآن بمطعن للتشهير به واتخاذه مادة لنقده بها ــ لم يجدوا فى هذه الحروف المقطعة ما به ينتقدون او يشهرون ، الأمر الذى يدل على ان افتتاح الكلام بأمثالها لا ينبو عن اساليبهم وعن أصول لغتهم ومن اجل ذلك لم يثيروا حولها نقدا ولا تساؤلا ، مع العلم بأن كل السور التى افتتحت بها مكية . الا سورتى البقرة وآل عمران .

اذن فما المراد منها ؟

اليك طائفة من الوجوه التى يصلح كل منهـا ان يكون مرادا والله اعلم بمراده منها :

١ ــ الحروف المقطعة فى أوائل السور بمثابة أدوات التنبيه .
بيان ذلك .

من المعروف أن من أساليب العرب أن يفتتحوا كلامهم بشىء من أدوات التنبيه ، والغرض منها اثارة انتباه السامع الى ما يراد القاؤه اليه .

ويبدو لى أن استعمال حروف لم تجر العادة باستعمالها لغرض التنبيه اكثر لفتا للنظر واثارة للانتباه مما جرت العادة باستعماله ، وذلك أن المالوف على السمع يمر دون أن يحرك فى النفس ساكنا ، أو يوقظ فى الفكر نائما ، أو ينبه به غافلا ، فاذا طرق السمع جديد غير مالوف تحرك الساكن وتنبه الغافل واستيقظ النائم ، ومثل هذا يجرى دائما فى اساليب الكلام ، وفى مختلف وسائل التنبيه ، فربما تنبه مخاطبك بحرف ما اعتدت أن تنبهه به ، وذلك لتستدعى ذهنه من شرود ، وربما تنبهه بنقرة او بتصفيق أو بغير ذلك مما فيه حادثة صوت سريعة متقطعة او متتابعة تتابعا يسيرا ثم تنقطع دون استرسال طويل .

اذا عرفنا هـذا ثم تأملنا فى الحروف المقطعة فى أوائل بعض السـور وجدنا فيها من تحقيق التنبيه التام مالا مزيد عليه ، مع ادب فى الوسيلة تناسب بلاغة القرآن واعجازه ، وذلك باستعمال أسماء الحروف الهجائية التى هى أول ما يتعلمه المتعلمون من القراءة والكتابة وفى هذا اشارة لهم بأنهم بعيدون جدا عن آفاق العلم والمعرفة وعليهم أن يسيروا فى طريق التعلم ولو من نقطة الصفر ثم ليذهبوا صاعدين فى سلم مجد الانسان .

٢ ــ تشير الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور الى ما تضمنه القرآن العظيم من تحد للأتيان بمثله او بمثل سورة منه .

بيان ذلك .

لقد تحدى الله الناس أن يخلقوا حيوانا ، أن يخلقوا ذبابا ، وان المادة التى خلق منها كل حيوان فى الأرض معروضة امامهم ، مبذولة لهم فى متناول ايديهم ، انها عناصر الأرض ، تراب وماء ، ومع ان المادة بين ايديهم فانهم عاجزون عن خلق أى شىء صغيرا كان أو كبيرا .

وعلى مثل هذا تحدى الله الناس أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع ان مادة القرآن التى ألفت منه آياته وسوره انما هو الكلام العربى الذى يستعملونه دائما فى تخاطبهم وفى أدبهم شعرا ونثرا ، ويتفاخرون ببلاغتهم فيه على سائر الأمم ، وهذا الكلام العربى معروض امامهم فى متناول نطقهم وكتاباتهم .

وحروف التهجى العربية تمثل المادة الأولى لهذا الكلام ، واطلاق حروف التهجى لاية لغة من اللغات هو بمثابة العنوان لهذه اللغة من جهة ، والاشارة الى مادتها من جهة اخرى فمن ينكر أن هذا القرآن كلام الله المنزل فليأت بمثله وهذه مادة جمله وتراكيبه الكلامية معروضة أمامه فى اللغة العربية ، وعنوان هذه اللغة أسماء حروف التهجى الموضوعة فيها الحروف التى تنطق فى بناء الكلمات والتى منها على سبيل المثال (**الف ــ لام ــ ميم ــ را**) .

ويقرب هذا المعنى أن معظم السور التى افتتحت بالحـروف المقطعة ابتدات بالكلام على القرآن العظيم .

٣ ــ الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور هى أسماء لها .

ذكر هذا الوجه اكثر المتكلمين واختاره الخليل وسيبويه .

٤ ــ هى حروف مأخوذة من كلمات على طريقة العرب فى ذكر حرف من كلمـة ، وهم يريدونها كقولهم : قلت لها : قفى ، فقالت : قاف ، أى وقفت .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه تأويلات لبعض هذه الحروف من هذا القبيل : معنى (الم) انا الله أعلم ، ومعنى (الر) انا الله ارى ، ومعنى (المر) انا الله اعلم وارى .

هذا : واكثر السلف على أن هذه الحروف مما استأثر الله بعلمه وانها سر القرآن .

روى عن ابى بكر رضى الله عنه انه قال فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن اوائل السور .

وروى عن على بن ابى طالب رضى الله عنه انه قال : لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى .

وروى مثل ذلك عن الشعبى من التابعين ، والله اعلم .

النص

قال الله تعالى :

« تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر النـاس لا يؤمنون » .

(ا) اللغة والمعنى المراد :

١ ـ **(تلك)** : اسم اشارة يشار به الى البعيد .

٢ ـ **(آيات)** : جمع آية ، واصل الآية فى اللغة العلامة الظاهرة الدالة على شىء غير ظاهر ومنه قوله تعالى : **« اتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ »** (١) مستنكرا عليهم أن يبنوا فى كل مكان مرتفع مبانى عالية لا فائدة لهم فيها الا ان تكون علامات غرضهم منها التباهى والتفاخر . ثم عممت الآية على كل دليل حسى او عقلى . وتطلق أيضا على المعجزة لانها علامة يجريها الله على يد رسوله لتدل على صدق دعوته ، وأنه حقا يبلغ عن ربه .

والآية من القرآن تطلق فى الاصطلاح الشرعى على كل جملة منه دالة على معنى تام ، والفواصل بين كل آية واخرى منه ثابتة بالنقل .

٣ ـ **(الكتاب)** : لغة مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب ضم ادبم الى اديم بالخياطة واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها الى بعض .

---

(١) الشعراء الآية ١٢٨

والكتاب شرعا : كلام من كلام الله يوحى الله به الى رسول من رســله ايبلغه للناس ، ويطلق اسم الكتاب شرعا على ما يشمل الصحف والالواح وجميع أنواع الوحى اللفظى او الكتابى ، التى ينزلها الله على اى رسول من رسله ليبلغها للناس .

والمراد من الكتاب هنا السورة التى نحن بصددها أو القرآن كله ولام التعريف فيه للعهد أو للكمال ، اى الكتاب المعهود أو الكتاب العظيم الكامل .

٤ ـ **(الحق)** : ضد الباطل ، واصل الحق المطابقة والموافقة للواقع أو لمــا ينبغى أن يكون من اعتقاد أو قول أو فعل ، فالاعتقاد الحق هو الاعتقاد المطابق للواقع ، والقول الحق هو القول الصادق الثابت الموافق للواقع ، والفعل الحق هو الفعل المطابق لما ينبغى أن يكون ، وذلك بحسب ما تقتضيه حكمة الحكيم المطابقة للكمال والابداع ، والحق يلازمه دائما معنى الثبوت والاستقرار .

٥ ـ **(لا يؤمنون)** : الايمان لغة مصدر آمن يؤمن ايمانا فهو مؤمن . جاء فى لســان العرب : اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الايمان معنــاه التصــديق .

والايمان شرعا : هو التصديق فى القلب لكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ب) معنى الآية نصا واقتضاء :

(المر) : هذه الآيات التاليات من هذه السورة هى آيات عظيمة ذات شأن رفيع من الكتاب الكامل وهو القرآن أو ذات شأن رفيع يجعلها مستحقة لان يطلق عليها انها كتاب كامل منزل من عند الله تعالى ، وعلو شأنها وكمالها آتيان من كونها حقا فى مبانيها وفى معانيها ولكنها ليست وحدها هى الحق فهى جزء من كل ، وجميع ما أنزل اليك من ربك هو الحق أما ما يناقضه فهو باطل ، ومن الحق أن يؤمن به العقلاء المنصفون وقد أوتى الناس عقلا ولكن اكثرهم لا يؤمنون بهذا الحق الذى أنزل اليك ، كما يظهر من واقع حالهم ، فما السبب ؟ ..

اذا كان البــاعث لهم على عــدم الايمان هو جهالتهم فستأتيهم بالأدلة تلو الادلة ليعرفوا الحق مقترنا بالدليل ، لأن واقعهم والحالة هذه يستدعى لفت نظرهم الى الحق بمختلف الأدلة التى تدفع الشبهات عن نفوسهم ، كما يستدعى تبصيرهم بصورة هذا الحق لكيلا يكون لهم عذر يعتذرون به .

النص

قال الله تعالى :

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر . كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

١ ـ اللغة والمعنى المراد :

١ ـ **(السماوات)** : جمع سماء والسماء فى اللغة مشتقة من السمو الذى هو العلو ، فكل ما علا على شيء وسما عليه فهو سماء ، وسماء كل شيء أعـلاه .

والسماوات السبع مخلوقات عظيمة لله تعالى كائنة فى جهة السمو والعلو عن الأرض هذه الأرض التى خلقها الله وجعلها مسكنا للجن والانس وما سخر لهما من دابة .

ولم يأتنا عن الشارع يقين قاطع يبين لنا حقيقة السماوات السبع المرادة فى النصوص التى نوهت بها ، فليس لنا أن نقطع بصورة ما عن تكوينها او ابعادها ، الا ان يأتينا يقين علمى بذلك ، وفق أصول البحث العلمى السليم .

ولفظ السماء المقـابل للأرض مؤنث ، قال تعالى : **« اذا السـماء انشقت »** (١) وقد يذكر ومنه قوله تعالى : **« السماء منفطر به »** (٢) .

٢ ـ **(عمد)** : بفتحتين اسم جمع مفرده عمود وعماد ، والجمع أعمدة وعمد بضمتين ، والعمود الخشبة القائمة فى وسط الخباء تعتمد عليها الخيمة ، وكذلك كل شيء نحوها مما يعتمد عليه .

٣ ـ **(استوى)** : أصل الاستواء الاعتدال ، فاذا عدى بعلى تضمن معنى الاستعلاء ، واذا عدى بالى تضمن معنى الانتهاء الى الشيء الذى حصل الاستواء اليه .

٤ ـ **(سخر)** : التسخير السوق بالفطرة والطبع ، أو بالغلبة والقهر ، أو بالتكليف والأمر ، الى الغرض الذى اراده المسخر .

---

(١) الانشقاق الآية ١

(٢) المزمل الآية ١٨

٥ ـ **(كل يجرى)** : اى كل من الشمس والقمر يسير فى فلكه بقدر الله وبقدرته ضمن ما رسم لهما من خطة سير .

٦ ـ **(لأجل مسمى)** : الأجل المدة المقدرة للشيء ، و **(مسمى)** اى معلوم مبين محدد فى علم الله تعالى .

٧ ـ **(يدبر الأمر)** : اى يصرفه بحكمته على اتم وجه واكمله ، واصل التدبير التفكير فى دبر الأمور ، والذى يفكر فى دبر الأمور قبل البدء بأوائلها واثناء التصرف لا بد أن يحكم التصرف فيها احكاما تاما .

٨ ـ **(يفصل الآيات)** : اى يبين الآيات الدالة على كمال قدرته ، واصل التفصيل ابانة الأشياء بعضها عن بعض حتى يمتاز كل منها عن الآخر .

٩ ـ **(لعلكم بلقاء ربكم توقنون)** :

(لعل) : اصل معنى لعل الترجى اى ترقب أمر محبوب ولكن لما كان الترقب الحقيقى لا يليق نسبته الى الخالق جل وعلا لأن الله عليم بكل شيء ما كان وما هو كائن وما سيكون كان لابد من حمل الرجاء فى معناه على ما يستلزمه الرجاء من محبة الأمر المرجو .

واليقين : مرتبة عالية من مراتب العلم فوق مرتبة المعرفة والدراية ، وهو يتضمن التحقق التام مع طمأنينة القلب .

المعنى المراد : فيكون المعنى المراد : يفصل الآيات وهو يحب لكم ان تؤمنوا بلقاء ربكم اذ يحييكم مرة ثانية ويبعثكم بعد الموت للحساب والجزاء .

(ب) معنى الآية (٢) نصا واقتضاء :

هذا عرض لطائفة من الادلة الدالة على قدرة الله العظيمة ، وتدبيره الدائم لكل أمر وتفصيله الآيات الدالة على وجوده وقدرته وعدله ابتغاء أن تصلوا منها الى يقين لا يخامره شك ولا توهم بلقاء الله ليقيم فيكم عدله ويمنح مستحقيكم فضله .

توجهوا بانظاركم شطر الآفاق العلوية ، هذه السماوات العظيمة ، هذه المرفوعات الكبيرة التى تكبر عن احاطة بصركم وتعظم عن احاطة تصوراتكم !

الله وحده هو الذى رفعها بغير عمد تعتمد عليه ، وفى هذا تنزل فى الخطاب الى مستوى تصوراتهم ، فاذا كان يسيرا عليهم أن يقبلوا رفعها بعمد فالله قد رفعها بغير عمد ، والا فرفعها بعمد أو بغير عمد سواء عند قدرة الخالق جل وعلا ، ولئن رفعت بعمد فالعمد على أى شيء تعتمد ؟ .

هذه السماوات العظيمة تستدعى انظار المتأملين للتفكر فى بديع نظامها ومتقن حركات نجومها وكواكبها ، وجليل صنعها . وهذه ابصاركم تمتد الى شىء من آفاقها فأنتم ترونها ، وهناك فى البعيد السحيق عنكم حيث لا تمتد ابصاركم مخلوق اعظم من السماوات ، انه العرش ، لقد استوى عليه الله بعد ان رفع السماوات ، فأحكم نظامه ، واعظم خلقه وابدعه . ولئن كان خلق السماوات على عظمتها وسعة ابعادها وكثرة ما فيها من مخلوقات كبرى لم تستدع من الخالق أكثر من عملية رفع ، فأى شىء عظيم ذلك العرش الذى استحق أن يستوى عليه الرحمن ؟ !

عودوا الى الآفاق القريبـــة منكم الا ترون ان فى السماء ما هو مسخر لكم وانتم فى الأرض ، هذان مخلوقان كبيران هما الشمس والقمر مسخران تسخيرا عجيبا ، وفى تسخيرهما منافع كبيرة لكم ؛ فمن الذى سخرهما وربط وجودها وجريانهما بغاية ، وأقت لجرى كل منهما اجلا مسمى ؟ انه الله وحده الذى لا رب غيره ولا اله الا هو . فكل ما فى الكون من خلقه ، وما يتحرك من شىء فيه الا بتدبيره ، وما يسكن من شىء الا بتدبيره .

تأملوا تعلموا ان رفع السماوات وتنظيم مسيرة اجرامها باستمرار تنظيما دقيقا بالغ الروعة ، فهى لا تنحرف عن خطوط سيرها ومداراتها قيد شعرة ولو لبثت تسير ما لا حصر له من السنين ان ذلك لا يتم الا بتدبير .

الاستواء على العرش الذى هو أكبر واعظم من السموات لا يتم الا بتدبير .

تسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى وهما من السماوات لا يتم الا بتدبير .

فمن الذى يدبر الأمر فى كل ذلك باستمرار ؟ .

انه الله الذى يدبر الأمر كله صغر أم كبر جل أم حقر .

فالسماوات بوجه عام والعرش فى البعيد السحيق والشمس والقمر بوجه خاص لقربهما منكم وتسخيرها لكم ومخلوقات اخرى كثيرة صغيرة وكبيرة لا تستطيعون حصرها ، كل ذلك آيات مفصلات بينات ، كل آية منها متميزة عن أختها بوضوح وجلاء . فمن الذى يفصلها ؟ ولماذا هذا التفصيل فيها ؟ .

انه الله الذى يفصل الآيات رغبة ان تهتدوا فتؤمنوا بقدرته ، وعظيم عدله، وصدق وعيده فتوقنوا بلقائه لمحاسبتكم على اعمالكم ومجازاتكم عليها بالعدل أو بالفضل .

النص

قال الله تعالى :

« وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ **(مد الأرض)** : أى جعلها ذات امتداد فى بعدين متقابلين منها كتمدد السقاء (١) ويقولون تمدد الرجل اذا تمطى وتطاول واصل المد فى اللغة الجذب .

أو مدها بالخيرات والمعادن ومواد الخصب اذ تقول لغة : مددت الأرض مدا اذا زدت فيها ترابا أو سمادا من غيرها ليكون اعمر لها واكثر ريعا لزرعها ، ويقال للرمال والسماد : مداد الأرض .

٢ ــ **(جعل فيها رواسى)** : أى وخلق فى الأرض جبالا ثوابت رواسخ .

جعل : يستعمل بمعنى وضع ، وبمعنى صنع ، وبمعنى صير ، وبمعنى خلق كما تستعمل فى غير ذلك من المعانى ، والمناسب منها هنا أن تكون بمعنى خلق والخلق يتضمن فى الحقيقة معانى الوضع والصنع والتصيير .

(الرواسى) : من الجبال الثوابت الرواسخ ، يقال فى اللغة رسا الجبل يرسو اذا ثبت أصله فى الأرض . ورواسى فى الأصل صفة لموصوف محذوف هى الجبال ولكثرة استعمالها صفة للجبال استغنى عن ذكر الموصوف ونزلت الصفة منزلته فى أصل الدلالة مع زيادة معنى الثبوت والرسوخ . وقد جاء التصريح فى غير هذه الآية بالفائدة من جعل الجبال فى الأرض ، وذلك فى قوله تعالى : **(رواسى ان تميد بكم)** أى لئلا تميد الأرض بكم وقد اثبتت العلوم الحديثة هذه الفائدة الكبرى من فوائد الجبال فى الأرض ولما كانت فوائد الجبال لا تنحصر بهذه الفائدة ذكرت فى آية ولم تذكر فى آيات أخرى .

---

(١) السقاء : ظرف الماء المتخذ من الجلد وهو ما يسمى بالقربة وقيل السقاء القربة للماء واللبن .

٣ ــ (**وانهارا**) : جمع نهر وهو المجرى الواسع من مجارى الماء واصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيائه اى وانهارا تجرى فيها المياه .

٤ ــ (**ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين**) :

اى وجعل فى الأرض من جميع أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وانثى .

وقد اثبت العلم حديثا أن كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه الا من زوجين اثنين ذكر وانثى والزوج المذكر قد يكون مع الزوج المؤنث فى شجرة واحدة كاغلب الاشجار ، وقد يكون الزوج المذكر فى شجرة والزوج المؤنث فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان الزوجان منه فى شجرة واحدة فاما ان يكونا معا فى زهرة واحدة كالقطن ، واما أن يكون كل واحد منهما فى زهرة كالقرع .

(**الثمرات**) : جمع ثمرة ، وهى ما تنتجه الأشجار .

(**زوجين**) : يقال لكل واحد من القرينين المتشابهين أو المتضادين زوج .

(**اثنين**) : تاكيد للزوجين ، والغرض منه مع العلم به من تثنية الزوجين دفع توهم أن المراد بالزوجين ازدواج الأصناف عند بدء الخلق وانه خلق من كل صنف منها أفرادا كثيرة ، منها الذكر ومنها الأنثى فبين بقوله : (**اثنين**) أنه عند بدء الخلق خلق من كل صنف اثنين فقط احدهما ذكر والآخر انثى ثم تكاثر الزوجان من الثمرات كما تكاثر الانسان وسائر الحيوانات .

٥ ــ (**يغشى الليل النهار**) :

أغشى يغشى اذا غطى والبس اى يجعل الليل لباس النهار ويجعل النهار لباس الليل فنصب بيغشى مفعولين يصلح كل منهما أن يكون ساترا ومستورا .

والمعنى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلما ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئا .

وفى هذا الاستعمال مجاز مرسل والأصل يغشى الليل مكان النهار ويغشى النهار مكان الليل فحذف المكان ووضع الحال فيه محله لانه لا يجتمع الظلام والنور فى شىء واحد حتى يغشى احدهما الآخر فمتى

حل النور انتفى الظلام ومتى ذهب النور حل الظلام .
ويخطر لي انه لا مانع من ان يكون يغشى الليل بمعنى يغطى الليل ويستره ويكون لفظ النهار معطوفا على الليل وحرف العطف محذوف وحسن حذف حرف العطف أن النهار والليل لا يجتمعان فكأنه قال يغشى الليل ويغشى النهار ، قياسا على ما ذكره ابن هشام فى معنى اللبيب حكاية عن ابى زيد (**اكلت خبزا لحما تمرا**) قال : قد خرج على ذلك آيات احداها (**وجوه يومئذ ناعمة**) اى ووجوه عطف على (**وجوه يومئذ خاشعة**) (١).

٦ ـ (**يتفكرون**) : اى يعملون قوى الفهم فيهم فى البحث والتأمل والنظر فى الأمور للوصول الى الحقيقة .

٧ ـ (**قطع متجاورات**) : ى بقاع مختلفة فى الصفات والألوان والخصائص مع كونها متقاربات متلاصقات .

٨ ـ (**وجنات**) : جمع جنة وهى كل بستان ذى شجر يستتر باشجاره الارض .

واصل الجن الستر ومنه جن الليل ، ومنه ايضا الجنان والمجن والجنين والجنون ...

٩ ـ (**ونخيل صنوان وغير صنوان**) :

(**صنوان**) : جمع مفرده صنو ، مثل قنو وقنوان ، والصنو هو الغصن الخارج عن أصل الشجرة ، ويثنى ويجمع على صنوان بكسر الصاد وبضمها . وفى الحديث عم الرجل صنو أبيه ، قال أبو عبيد معناه ان اصلهما واحد .

١٠ ـ (**فى الاكل**) بضم الكاف وسكونها ما يؤكل ، واكل الشجرة جناها الذى يؤكل .

١١ ـ (**يعقلون**) : اى يستعملون عقولهم التى وهبهم الله اياها فيما خلقت له من التامل والبحث عن حقائق الامور ، ومن عقل النفس عن اهوائها وحبسها عن ان تنزلق الى ما فيه سوء عاقبتها .

(ب) معنى الآيتين (٣) ، (٤) نصا واقتضاء :

---

(١) الغاشية الآية ٢

والله وحده هو الذى مد الأرض بحكمته واتقانه ، فجعل لها امتدادا فى بعدين متقابلين من أبعادها ، ومدها بالماء والخيرات والمعادن ومواد الخصب .
وهو وحده الذى جعل فيها جبالا رواسى راسخات قد ارست أثقالها فى اغوار الأرض ، وهو وحده الذى جعل فيها انهارا جاريات .

وهو وحده الذى جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين ذكرا وانثى لتتم بينهما أسباب الاخصاب والتكاثر طبق سنته التى أرادها لكل حى ولكل نبـات .

ثم أن هذه الأرض فيها نظام متعاقب عجيب يلفت النظر بكرة وعشيا اذ يغشاها الليل .فالنهار فالليل فالنهار على سبيل الاستمرار .

فمن الذى جعلها بهذا النظام المتعاقب العجيب ؟ ومن الذى جعل كلا من الليل والنهار يغشـاها على التعـاقب المستمر ؟ انه الله : (**يغشى الليل النهـار**) .

اذا عرفتم هذا ايها الناس افلا تتفكرون فى اتفاق صنع الله بمده الأرض ففى هذا الميدان مجال واسع للباحثين العلميين فى جغرافية الأرض وعجيب تكوينها ، ومجال واسع ايضا للباحثين العلميين فى تتبع مختلف عناصرها وطاقاتها التى مدها الله بها والانتفاع منها فى خير الانسان ورفاهه وقوته ، والاعتبار بدلالاتها على متقنها ومبدع صنعها ومحكم نظامها . أفلا تتفكرون فى هذه الجبال الشوامخ وفى الغاية منها بوصفها جزءا من هذه المخلوقة التى خلقها الله لسكناكم ، وخلق لكم فيها ما يحمل لكم طيب اقامة وهناء عيش اذا أحسنتم التصرف فيه فانتفعتم من كل شىء بحكمة وذلك بأن تضعوه فى موضعه الذى ينفع ، وتتجنبوا أن تضعوه فى غير موضعه حذر أن تؤذوا أنفسكم به أو تضروها .

ان فى التفكر فى هذه الجبال مجالا واسعا للباحثين العلميين .

قالوا : انها بمثابة الأثقال الموزعة على مراكز معينة لحفظ توازن الأرض، ولو أن هذه الجبال أزيلت أو تحولت عن أماكنها لمادت الأرض بمن عليها واختل توازنها الذى يحفظ لها هذا النظام المستمر .

وقالوا : انها بمثابة صمامات الأمان للأرض فهى تحمى قشرتها من التشقق عند أى ضغط بركانى .

وقالوا : غير ذلك ، وما يزال المجال مفتوحا لكل باحث متتبع يحب المعرفة،

فهذه الحقيقة بجمالها واغرائها تناديه من خلف الغلائل والستور لعله يحث خطاه اليها فيدركها . ويصيب بمعرفتها لذة الانتصار على المجهول .

افلا يتفكرون فى هذه الانهار الجاريات ، كيف تتجمع اصولها وكيف تتكون خزاناتها ، وكيف تتفجر ينابيعها ، وكيف تجرى فى المنحدرات مياهها تمنح الارض حياة وخصبا وخيرا كثيرا . ان فى هذا لميدانا واسعا للباحثين العلميين الذين يدرسون تكون الأنهار ومسيرتها منذ مبدأ تجمعها حتى تفجر ينابيعها حتى بلوغها الى مصابها ، ويدرسون عناصر الماء ، وخصائصه ، وغزارته فى الارض ومساربه ومسالكه واحواضه المستورة ، وبحيراته المنشورة ومحيطاته الغامرة الى غير ذلك مما تقصر عنه المؤلفات .

افلا يتفكرون فى كل ما فى الارض من ثمر ويتأملون فى عجيب صنع الله فيها اذ خلق من كل صنف منها زوجين اثنين ذكرا وانثى وبدأ خلق كل صنف منها باثنين هما الأبوان الأولان لسائر سلالته .

أن مثمرات الارض لتستحق تأمل المتأملين وبحث الباحثين ، ففيها مجال بحث لا ينتهى ، شأن كل ما اتقن الله من خلق وأبدع من صنع .

واذا سألنا علماء النباتات أعطونا علوما جمة عنها ناطقة بعظمة مبدعها وعلمه وحكمته .

افلا يتفكرون فى تعاقب الليل والنهار طبق نظام مستمر لم تختل ساعة التوقيت فيه طرفة عين طوال الألوف المؤلفة من السنين .

فاية قوة حاسبة نظمت ذلك وضبطته ؟ .

افلا يتفكرون فى النور وخصائصه ومنافعه ومنابع انهاره المتدفقة وسر ارتباط الرؤية بالضوء الذى ينشره ؟

افلا يتفكرون فى الليل وستره ، وعظيم منافعه لكل حى ونبات وغيرهما من سوائل وجامدات ، رغم سواده وظلمته ؟ . أن فى الليل والنهار ، فى الظلمة والضياء لمجالات واسعة للباحثين العلميين الذين يدرسون الفيزياء وتكون الضوء وخصائصه ، وللباحثين العلميين الذين يدرسون منافع النور والظلمة فى الأشياء تغذية وامدادا او تحليلا وتركيبا أو غير ذلك مما تضيق عنه المجلدات الضخمة .

ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون فيما اودع الخالق فيها من أدلة عظيمة بينه دالة على عظيم قدرة الله ومحيط علمه وجليل حكمته وبديع صنعه ، ثم

على صفة عدله ، اذ خلق الانسان ليبلوه ، واسكنه فى هذه الأرض المزودة بكل شيء فيه خير ومنفعة ، ووضع بين يديه كل ما خلق فيها ليحسن التصرف فيه بارادته طبق أصول قوانين الله ، التى وضعها له وانزلها على انبيائه ورسله فيستعمله فى وجوه المنفعة ويتجنب استعماله فى وجوه المضرة .

هذا : وفى المدى القريب من بصركم ، وفى المجال الذى تمارسون فيه سعيكم لاكتساب الرزق بالحرث والزرع تجدون فى الأرض آيات أخرى .

فى الأرض قطع منها مختلفات الصفات مع انها متجاورات متلاصقات وفيها جنات من اعناب ، وفيها زرع مختلف الأصناف والطعوم والخصائص .

وفيها نخيل صنوان وغير صنوان ، فبعض أصولها ينبت عدة نخلات ، وبعض أصولها ينبت نخلة واحدة فقط وكل ذلك يسقى بماء واحد ، ولكن بعضها أفضل من بعض فى الأكل من جهة طعمه أو من جهة فائدته وكمية غـذائه .

أفلا يتفكرون فى هذه المخلوقات التى بين ايدهم وفى مجال سعيهم يمارسون زرعها ويعالجون تربيتها ، ويأكلون من ثمرتها ويميزون بين خصائصها ؟

ان التأمل فيها لا يستدعى تفكيرا عميقا فهى فى متناول كل معالج لوسائل العيش وأسباب الرزق ، فكل من عنده عقل يستطيع أن يستخلص منها الآيات الدالة على الخالق ، وعظيم صفاته ومحكم عدله ..

ومن أجل ذلك ختم الله الآية بقوله :**(ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)** .

اما فى الآية السابقة التى تتضمن امورا تحتاج الى تفكير عميق وتأمل دقيق ، لما فيها من البحث فى تكوين الأرض وتكوين الجبال والأنهار وتكوين الثمرات من ذكر وانثى ونظام الليل والنهار وخصائص النور والظلمة ، فقد ختمها الله بقوله : **(ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)** .

النص

قال الله تعـالى :

وان تعجب فعجب قولهم : أءذا كنـا ترابا اءنا لفى خلق جـديد . اولئك الذين كفروا بربهم ، واولئك الأغلال فى اعناقهم . وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون .

ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات . وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وان ربك لشديد العقاب .

ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه . انما انت منذر ولكل قوم هاد .

(ا) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ **(وان تعجب فعجب قولهم)** : العجب من الشيء : استغرابه واستبعاده لعدم اعتياده ، أو لأن الشأن ينبغي أن يكون على خلافه وعند ذلك يتضمن العجب انكار المتعجب منه انكارا يستدعي الاستخفاف أو السخرية بمن صدر عنه ذلك الأمر المتعجب منه ، سواء اكان ذلك الأمر قولا أو فعلا أو فكرة .

فمعنى وان تعجب فعجب قولهم : وان يحصل لك يا محمد عجب من شيء فقولهم : **(اءذا كنا ترابا اءنا لفي خلق جديد)** عجب حقا .

او وان تعجب يا محمد من قولهم **(اءذا كنا ترابا اءنا لفي خلق جديد)** فقولهم هذا عجيب حقيق بأن يتعجب منه ، وذلك انهم استبعدوا أمر قدرة الله على اعادتهم بعد فناء اجسادهم مع انهم يعتقدون بأنه هو الذي انشاهم اول مرة وبديهة العقل تقضي بأن الاعادة مثل الابتداء ، أو أهون منه في مقاييس الناس .

وقد أورد الله هنا في هذه السورة قولهم في انكار البعث مورد الأمر الحقيق بأن يتعجب منه مقابلة لهم بالمثل ، وذلك انهم لما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم انذاره لهم بالحياة بعد الموت للجزاء بالثواب أو بالعقاب انكروا انذاره وتعجبوا من قوله ولم يكن لهم دليل في مناقشة قضية البعث الا مجرد التعجب والاستبعاد وذلك ما صرحت به سورة (ق) قال تعالى :

(ق والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب اءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) .

٢ ــ **(الأغلال)** : جمع غل بالضم وهو ما تطوق به عنق المقيد أو يده او هو ما تجمع به يده الى عنقه امعانا في الأسر والتقييد . والمراد من كون الاغلال في اعناقهم : اما الأمور المعنوية التي قيدت نفوسهم وحناجرهم عن التسليم بالحق والاعتراف به وهي عوامل كفرهم في الدنيا شبهت بالأغلال فاستعير لها لفظها ، واما قسم من العقاب الذي سيلاقونه جزاء كفرهم في الآخرة أو هما معا .

٣ ـ (أصحاب النار) : الصاحب المعاشر المرافق الملازم فأصحاب النار هم ملازموها ومخالطو الوان عذابها فى الآخرة كما أنهم فى الدنيا ملازمو اسبابها ومخالطو الوان المعاصى التى تؤدى اليها .

٤ ـ (هم فيها خالدون) : اى هم فيها دائمو البقاء كما انهم صمموا على أن يظلوا أبدا جاحدين لله كافرين بصفاته منكرين لرسالاته .

٥ ـ (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) : كان مشركو مكة يقولون كما جاء فى سورة الانفال الآية (٣٢) :

(اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم) .

يقولون هذا امام الرسول صلوات الله عليه على سبيل الاستهزاء بما انذرهم به والتكذيب برسالته . فجاء فى هذه الصورة قوله تعالى :

(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) .

اشارة الى هذا وأمثاله من اقوالهم . اى ويستعجلك المشركون بالنوازل والعقوبات السيئة اذ يطلبون التعجيل بها فى الدنيا قبل أن يستكملوا نصيبهم من النعم الحسنة التى قدر الله منحهم اياها لابتلائهم بها فى الدنيا . والحقيقة انهم لا يرغبون فى انزال العقوبات بهم ولكنهم يمعنون فى تكذيبهم بما انذرهم به الرسول صلوات الله عليه من عقوبات يوم القيامة وكذلك شأن المكذبين .

٦ ـ **(وقد خلت من قبلهم المثلات) :**

(خلت) : سلفت .

(المثلات) : جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء ، وهى العقوبة ، سميت بذلك لما بين صنوف العقاب والسيئات المعاقب عليها من المماثلة ، قال تعالى : **(وجزاء سيئة سيئة مثلها)** . اى ، ما لهم يستعجلون العقوبات والحال انهم يعلمون مما سلف فى الأمم الخالية من قبلهم ما أنزل الله من العقوبات بكثير منهم بسبب تكذيبهم بالرسل ؟

٧ ـ **(لذو مغفرة للناس على ظلمهم) :**

(المغفرة) : الستر ، والمراد ستر ذنوبهم ، وتجاوزه عنها تجاوزا كليا ، او الى اجل ، وهو ما يكون بالإمهال .

(على ظلمهم) : اى مع ظلمهم انفسهم بالذنوب والمعاصى .

٨ ـ (**لشديد العقاب**) : أى لشديد عقابه .

٩ ـ (**لولا انزل عليه آية من ربه**) : أى هلا أنزل عليه معجزة من ربه تشبه معجزات موسى وعيسى .

١٠ ـ (**انما انت منذر**) أى ما أنت بالنسبة الى المصرين على كفرهم الا منذر توجه لهم الانذار بعد أن قدمت اليهم الوان الهداية التى كلفت أن تبلغهم اياها وذلك ان الرسول صلوات الله عليه بالنسبة الى الذين استجابوا له وأطاعوه مبشر .

١١ ـ (**ولكل قوم هاد**) : أى ولكل قوم رسول يهديهم الى صراط ربهم ويرشدهم الى دينه ، اذا فوظيفتك يا محمد مثل وظيفة سائر الرسل وهى الهداية والارشاد ، ومن الهداية الانذار اذ هو خاتمة رسائلها .

(ب) معنى الآيات (٥ ، ٦ ، ٧) نصا واقتضاء :

فيما سبق من الآيات اشارات الى براهين وجود الله ، ومحيط علمه ، وعظيم تدبيره ، وجليل حكمته ، وكمال قدرته وعدله وفضله .

ومن كمال قدرته النافذة فى كل شىء ، قدرته على بعث الناس الى الحياة فى اليوم الآخر بعد موتهم وفناء أجسامهم فى الحياة الدنيا ، كما قدر على بدءخلقهم وخلق السماوات والأرض والعرش من فوقهن .

ومن كمال عدله وفضله ادخاره الجزاء الأمثل لليوم الآخر والدار الآخرة .

فالايمان باليوم الآخر والدار الآخرة والتسليم بقدرة الله على البعث من قضايا العقل الصحيح ، والفكر السديد ، والقلب السليم .

وبعد هذا العرض لطرق الأدلة على قضية الايمان بالله واليوم الآخر ، فان تعجب يا محمد من شىء فجدير بك أن تعجب من مقالة هؤلاء الكافرين ، اذ قالوا : أءذا متنا وتفتتت ذرات أجسامنا وصرنا ترابا اءنا لعائدون الى الحياة مرة أخرى فى خلق جديد مماثل للخلق الأول ؟ .

روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبى بن خلف الجمحى ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة تكلموا فى شأن الاسلام فقال لهم أبى ابن خلف : الا ترون الى ما يقول محمد : ان الله يبعث الأموات ؟ ثم قال : واللات والعزى لأصيرن اليه ولأخصمنه ، واخذ عظما باليا ، فجعل يفتته بيده ، ويقول : يا محمد أترى الله يحيى هذا بعدما رم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم : ويبعثك يدخلك جهنم ، فانزل الله تعالى فى اقامة الحجة

على هؤلاء قوله فى سورة (يس) : **((وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل : يحييها الذى انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم))** (١) .

وقد أورد الله فى السورة التى نحن فى صدد تفسيرها مقالتهم التى قالوها وساقوها مساق التعجب من قضية البعث والانكار له انكارا فيه نفثات الكبر الجاهلى : **(اءذا كنا ترابا اءنا لفى خلق جديد)** .

ومما لا شك فيه أن مقالتهم هذه هى الأمر العجب لأنها لا تستند فى نفوسهم الى اية حجة مقبولة فى العقول ، وحينما أوردوا قضية انكارهم البعث لم يأتوا بدليل عليه غير مجرد الاستبعاد والاستغراب ، وسوقه مساق الشيء الذى يتعجب منه ، مع انه ليس كل بعيد عن المالوف فى العادة بعيدا عن مسلمات العقول .

ولما اورد الله جل جلاله مقالة هؤلاء المنكرين لليوم الآخر حكم عليهم بأنهم كفروا بربهم ، مع أن منهم من لو سألته عن خلق السماوات والأرض ليقولن الله ، وذلك لأن انكار اى ركن من أركان الايمان الثابتة بيقين موجب للكفر .

ثم بين جل وعلا أن الاغلال النفسية الصارفة لهم عن الايمان قد طوقت اعناقهم فضيقت عليها ، فحجبتهم عن الاعتراف بالحق . أو ان الاغلال التى سيجازون بها يوم القيامة على كفرهم ستطوق اعناقهم لا محالة ، ونزل الشيء الذى لا بد من وقوعه منزلة الشيء الواقع فى الحال ، فقال تعالى : **(أولئك الأغلال فى اعناقهم)** . أو هذا ، وهذا ، فيكون ما سيلاقون فى الآخرة جزاء لما طوقوا به انفسهم فى الدنيا .

ثم أوضح الله سبحانه عقابهم الأكبر بأنهم أصحاب النار يوم القيامة ، واطلق عليهم انهم أصحابها ، لأنهم سيلازمونها ويخالطون الوان عذابها ، وختم ذلك بأنهم من اهل الخلود فيها ، فليس لهم منها خروج وذلك لكفرهم ، وهذا هو قانون الله لعباده : **(ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)** . وأشار اليهم باشارة البعيد اشعارا بأنهم بعيدون مدبرون عن دينه وشريعته ، محجوبون عن الهواية بالأغلال التى غلوا انفسهم بها ، مطرودون عن رحمة الله خالدون فى العذاب . **(أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى اعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)** .

---

(١) سورة يس الآية ١٩ .

ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين المنكرين لليوم الآخر أنهم يمعنون فى الاصرار على الكفر والتكذيب بما انذرهم به الرسول من الوعيد ، فيدعون على انفسهم بالهلاك : **(اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم)** (١) .

مع أن عذاب الآخرة آتيهم لا محالة ما داموا على كفرهم وعنادهم ، وأية سيئة تنالهم ابلغ من عقوبات الله شديد العقاب ؟

فما بالهم يستعجلون لانفسهم السيئة ويطلبون أن تحل بهم عقوبات الله ؟ لقد غرهم امهال الله ، وافاضة النعم الكثيرة عليهم ليبتليهم بها ، فأغراهم ذلك بأن يتحدوا تحدى المستهزئين ، فطلبوا حلول العقوبات السيئة بهم قبل أن يستكمل الله ما قدر لهم من ابتلاء بالحسنات التى يفضيها عليهم فى الدنيا ليعودوا عن غيهم ويثوبوا الى رشدهم .

وفى هذا الأسلوب تحويل لدعائهم على انفسهم بما سبق عن الغرض الذى يقصدونه فيه من التكذيب والاستهزاء ، ورجوع به الى ما يدل عليه ظاهر لفظهم من الطلب الحقيقى للعقوبات السيئة ، اذ حمل اللفظ على ظاهره يدل على طلبهم العقوبات حقا ، فلو تمت تلبية طلبهم لعجلت لهم العقوبة ، فيكون الأمر بمثابة استعجالهم لانفسهم العقوبة ، وهذا أسلوب بديع من اساليب نقاش المستهزئين المصرين المعاندين ، وهو أن يتجاهل المصلح كنايات الاستهزاء التى يقصدها المفسدون ، ويحمل أقوالهم على ظاهرها فيضيع عليهم ما أرادوه ويوقعهم بألفاظهم فى مكان السخرية والاستهزاء ، فهل يستعجل لنفسه السيئة الا كل حقيق بالاستهزاء والسخرية لضعف عقله وزيادة حمقه .

اما كان عليهم أن يعتبروا بالأمم السالفة الذين كذبوا رسل ربهم فأنزل الله بهم أصناف العقوبات فأهلكهم بها ؟ .

فما لهم يتحدون الرسول أن ينزل الله بهم العقوبات ، ولا يتعظون بمن مضى من الأمم **(وقد خلت من قبلهم المثلات)** ؟

لكن أمر الله غير مرتبط بنزواتهم ، ولا بمظاهر طيشهم ، فلله صفات كثيرة منها أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وانه شديد العقاب ، ومن مغفرته أن يمهل الظالمين ، ويستر لهم ذنوبهم ، ليترك لهم فرصة التأمل ، رغبة بأن يثوبوا الى رشدهم ، فمن تاب منهم قبل حلول أجله واستغفر ربه وأناب اليه

---

(١) الانفال : الآية : ٣٢ .

غفر الله له وعفا عنه ، ومن أصر على عناده وكفره عاقبه بعدله وهو شديد العقاب .

(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة . وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وان ربك لشديد العقاب)

انها اقوال ثلاثة رددهامنكرو البعث .

الأول قولهم : اءذا كنا ترابا أءنا لفى خلق جديد .

والثانى : استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة .

وقد بسطنا الكلام على هذين القولين .

أما الثالث فقولهم : لولا أنزل عليه آية من ربه .

ويلاحظ فى هذا ان مشركى مكة لما انكروا اليوم الآخر الذى انذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فيه من عذاب اليم ، ولما عجزوا عن أن يقيموا الدليل على صحة انكارهم له حاولوا الطعن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من وجهين :

الوجه الأول : استعجالهم العذاب على سبيل التحدى والاستهزاء . الوجه الثانى : تجاهلهم معجزة القرآن ومعجزات الرسول الأخرى التى كانت فى واقع حالها براهين كافية لمن يريد الحق ، ويبتغيه ، وتلمظهم بطلب معجزات مادية تماثل معجزات صالح وموسى وعيسى عليهم السلام .

ولكن هؤلاء المنكرين للبعث قوم مردوا على الكفر والاصرار على العناد ، فلو ان الله انزل عليهم المعجزات المادية التى طلبوها لما كان منهم الا الاصرار على الكفر ، ولوجدوا لانفسهم مزعما يقولونه كما قالوا فى معجزة انشقاق القمر : **(سحر مستمر)** .

قال تعالى فى سورة القمر : **(وان يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر)** .

وامام طلبهم الآيات على سبيل التفكه أو التعنت فان الله تعالى لا يتخذ خرق سننه الدائمة العوبة فى أيدى المتفكهين أو المتعنتين ، وانما يخرقها بمقدار حاجة الناس الى اقامة الدليل الذى يدلهم على صدق رسالة الرسول .

ومن اجل ذلك خاطب الله رسوله بقوله : **(انما انت منذر)** . اى لا تنظر يا محمد الى مطالبهم التى يوردونها على سبيل التعنت أو التفيكه بعد أن قامت

عليهم الحجة الكاملة بالدليل العقلى ، وبدلائل المعجزات المختلفة ، وأهمها القرآن .

وما أنت بالنسبة اليهم بعد أن وصلوا الى ما وصلوا اليه من تعنت وعناد الا منذر ، توجه اليهم الانذار وتتركهم الى ربهم ، ثم ان وظيفتك كوظيفة سائر الرسل من قبلك **(ولكل قوم هاد)** اى رسول يهديهم .

ومعلوم أن الهداية لها مراتب فهى تبدأ بالدعوة ، ثم باقامة الحجة العقلية، والجدال بالتى هى احسن ، ثم بايراد المعجزات ، فاذا لم تنفع فى القوم مختلف وسائل الهداية اللينة فانه لا يبقى الا وسيلة الانذار .

وكأن الله جل وعلا يقول لنبيه لقد قدمت لهؤلاء مختلف وسائل الهـداية اللينة كما هى وظيفة سائر الرسل ، ثم أنذرتهم بعذاب الله وعقابه يوم القيامة فاستكملت لهم بذلك مختلف وسائل الهداية ، فما عليك الا أن تتابع انذارهم، وتتركهم وشأنهم ، وتنصرف الى مهماتك مع غيرهم .

النص

قال الله تعالى :

« الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله . ان الله لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بانفسهم . واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له . وما لهم من دونه من وال ».

اللغة والمعنى المراد :

١ ـ (وما تغيض الأرحام وما تزداد) :

غاض الماء يغيض : اى نقص أو غار ، وغاض الله الماء اذا جعله ينقص او يغور ، فيستعمل لازما ومتعديا ، ويقال ايضا اغاض الله المـــاء . والمعنى فى : **(وما تغيض الأرحام وما تزداد)** اى ، الله يعلم كل ما يحصل فى أرحام الاناث من نقص وزيادة وما يتحدد من تطوراتها وتطورات ما فيها من أجنة ومرافقاتها باستمرار ، وأى محيط أكبر من احاطة علم الله بهذه الدقائق ، التى

تحصل فى الأرحام كلهـا ، ارحام اناث الناس ، والدواب ، والحشرات ، والجرائيم ، وما لا نعلم من ذوات الأرحام صغيرها وكبيرها .

وقد فسر المراد من النقص والزيادة فى الأرحام بتفسيرات مختلفة نظرا الى حال بعض الأشياء التى يحصل فيها نقص وزيادة فى الرحم ، كنقص الدم وزيادته ونقص مدة الحمل وزيادتهـا . والأحسن فيما ارى أن يظل العموم على عمومه ليشمل كل نقص وزيادة تحصل فى الأرحام وما فيها . ولعلماء الطب والتشريح تفصيلات فى هذا الموضوع كثيرة جدا ، ووجوه النقص والزيادة فى نمو الأجنة وفى مرافقاتها وفى الأرحام التى تحتويها مختلفة جدا ، وكثيرة جدا ، والله يعلم كل ذلك ، لأنه لا يتم شىء فيه الا بخلقه جل وعلا وبمقتضى قضائه وقدره ومحاطا بواسع علمه وجليل حكمته واتقانه .

٢ ـ (**وكل شىء عنده بمقدار**) :

(**مقدار الشىء**) : الحدود التى تنتهى اليها اجزاؤه كما أو كيفا ، ذاتا أو صفة ، بدءا أو انتهاء .

والمراد أن كل شىء تتعلق مشيئة الله بايجاده فهو عند الله مقدر بمقدار محدد بعلمه ، فهو يقدر ما ينبغى أن تكون عليه نسبة كل جزءفيه سواء أكان داخلا ذلك الجزء منه فى بناء ذاته ، أو كان داخلا فى بناء صفاته ، أو كان داخلا فى وقت وجوده بدءا واستمرارا وانتهاء ، الى غير ذلك من امور يمكن أن تقدر بمقدار وتعرض لها عوارض الزيادة والنقص .

٣ ـ (**عالم الغيب والشهادة**) :

(**الغيب**) : ما غاب عن الحواس فلم تستطع اداركه فهو غيب بالنسبة اليها مع أنه فى واقع حاله قد يكون موجودا ، أو ما هو غيب مطلقا لأنه فى طى العـدم .

(**والشهادة**) : ما كان حاضرا مشهودا فهو بالنسبة الى من شهده شهادة أما بالنسبة الى من غاب عنه فهو غيب ، وأصل الشهادة مصدر شهد ، وهى هنا بمعنى المشهود .

وجميع ما خلق الله من مخلوقات ذوات حواس مدركة تشهد بحواسها من الكائنات بعض الأشياء ، ويغيب عنها الشىء الكثير مما لا يحيط به الا علم الله .

فما شهدته منها فهو بالنسبة اليها شهادة ، وما غاب عنها أو عن بعضها فهو بالنسبة الى من غاب عنه غيب أما بالنسبة الى من شهده فهو له شهادة

فمثلا : تشهد الملائكة ما لا نشهد نحن البشر فهو بالنسبة الى الملائكة شهادة ، أما بالنسبة الينا فهو غيب . وعلى هذا القياس كل الامور .
أما الله تعالى فلا غيب عنده لأن كل شيء بالنسبة اليه شهادة ، واذا كان الوجود ينقسم بالنسبة الى المخلوقات الى غيب وشهادة فان الله عالم الغيب والشهادة .

٤ ــ (الكبير المتعال) :

(الكبير) : من اسماء الله الحسنى مأخوذ من الكبر ، وهو ضدالصغر ، فالله هو الكبير الذى لا نهاية لكبره ، لانه هو الكامل الواجب الوجود لذاته ، وما عداه موجود بايجاد الله له ، ولأنه سبحانه هو الغنى عن كل شيء ، وما عداه فى حضيض النقص والافتقار ، ولأنه سبحانه هو المحيط بكل شيء علما ، ولأن قوته سبحانه أكبر من كل قوة ، وهو الكبير لانه أكبر من أن تشاهده الحواس، أو تدرك حقيقة ذاته العقول .

(المتعال) : اى المتعالى وحذفت الياء لانه راس آية ولولا ذلك لكان الجيد اثباتها ، والمتعالى من اسماء الله الحسنى مأخوذ من العلو وهو ضد السفل ، والمراد منه علو الشرف والجلالة والكبرياء والتنزه عن كل صفات النقصان ؛ ومعنى المتعالى انه يعلم حقيقة ذاته وصفاته وافعاله فهو يثبت لنفســه وصفه الحقيقى ، وهو انه العلى .

٥ ــ (سواء منكم من اسر القول ومن جهر به) :

(سواء) : بمعنى مستو ، ويخبر بها عن الواحد فما فوق بصيغة الافراد ، لأنها فى الأصل مصدر .

(من اسر القول) : اى من كتمه واخفاه .

(ومن جهر به) : اى ومن اظهره واعلنه .

والمعنى : من كتم منكم قوله واخفاه ومن أظهر منكم قوله واعلنه مستويان بالنسبة الى علم الله ، لانه لا سر على الله ، اذ هو عالم الغيب والشهادة .

٦ ــ (ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) :

(مستخف بالليل) : أى مستتر باعماله بظلمات الليل وطالب الخفــاء فيهــا .

(وسارب بالنهار) : السارب الذاهب فى سربة والسرب بفتح السين هو الطريق ، والمعنى ، وظاهر فى اعماله ذاهب فى طريقه بوضح النهار ، مستعلن لا يستخفى فيما يعمل .

فيكون المعنى المراد من هذه الفقرة : ومن يطلب الاختفاء بأعماله فى ظلمات الليل ، ومن يعملها علانية مستويان بالنسبة الى علم الله ، لأنه لا شيء يخفى عليه ، فهو عالم الغيب والشهادة .

٧ ـ (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) :

(له معقبات) : الضمير فى (له) عائد الى من أسر ومن جهر ومن هو مستخف ومن هو سارب ، على اعتبار لفظ **(من)** لا على اعتبار معناها ، أو على الانسان المفهوم من الكلام السابق .

(والمعقبات) : هى جماعات من الملائكة يعقب بعضهم بعضا لتقوم فى الناس بما كلفها الله من وظائف ، ومفرد معقبات معقبة ، وهو صفة لجماعة من الملائكة .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

ووظيفة هذا الصنف من الملائكة : حفظ الناس بأمر الله من شر كل ذى شر خفى او ظاهر ، ومن أذى كل ذى أذى فى خضم هذا الكون المشحون بالمخاطر ، فلا يصيب الانسان منها شيء الا اذا كان فيه قضاء وقدر من الله تعالى ، أو حفظ أقوال الناس وأعمالهم وتسجيلها ليشهدوا بها عليهم أو لهم بين يدى الله تعالى ، فمعنى يحفظونه على هذا : يحفظون أقواله وأعماله .

ويكون المعنى المراد ان الله قد قيض لكل انسان صنفا من الملائكة سماهم المعقبات يرافقونه ويلازمونه ، من بين يديه ومن خلفه ، اذا انصرف جماعة منهم جاءت عقبها جماعة اخرى ، يحفظونه من المخاطر والمهالك ، وليس حفظهم له مبتدئا من امرهم وانما هومن أمر الله ، أو يحفظون أقوالهوأعماله ويسجلونها عندهم ، ليقدموا بها الشهادة عند ربهم الحكيم العليم .

٨ ـ (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) :

اى أن الله لا يغير ما بقوم من حال الى حال أخرى مناقضة للأولى حتى يغيروا ما بانفسهم من نية وتصميم وعقيدة وخلق .

فان غيروا بانفسهم من سيء الى حسن غير الله احوالهم من سيء الى حسن فان كانوا فى الذل اعزهم الله ، وان كانوا فى الجهل علمهم الله وهكذا ، وان غيروا ما فى انفسهم من حسن الى قبيح غير الله احوالهم الظاهرة كذلك .

٩ ـ (**فلا مرد له**) : أي فلا رد له وهو مصدر رد يرد ، تقول :
رددت فلانا عن وجهه ردا ومردا وترداد اذا صرفته عنه .

١٠ ـ (**من وال**) : اى من ناصر يلي امورهم وينصرهم ويدرأ عنهم عذاب الله .

(ب) معنى الآيات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) نصا واقتضاء :

من الاوهام التى قامت فى نفوس منكرى البعث الذين قالوا : (**اءذا كنا ترابا اءنا لفى خلق جديد**) توهمهم أن من يموت من الناس يضل رفاته فى تراب الأرض الواسعة ، فتذهب صورته وصفاته ، فكيف يرجع الله هذه الذوات والصفات ، وكيف يجمع هذه الذرات المتفتتة من اجسامهم ، وعوامل هذا التوهم تبدو فى توهمهم أن علم الله غير محيط بكل صغيرة وكبيرة من ذوات الذين يموتون وصفاتهم وأوضاعهم واعمالهم ، ومتفرق ذراتهم بعد موتهم .
وقد جاء توهمهم هذا مصرحا به فى قوله فى سورة (**السجدة**) (**وقالوا : اءذا ضللنا فى الأرض اءنا لفى خلق جديد**) .

فاقتضى توهمهم هذا ان يعالج القرآن الكريم دفعه ورده باسلوبه الحكيم ، وذلك وفق طريقة القرآن العامة التى تناقش معظم الأمور بأسلوب لا يلامس الجدل المباشر .

ومن أجل ذلك نرى فى القرآن تركيزا بالغا على موضوع احاطة علم الله بكل شيء ، متى كان الحديث عن البعث واليوم الآخر واقوال الكافرين فيهما .
يقول الله تعالى : (**قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندناكتاب حفيظ**) (١) وذلك عقب حكايته سبحانه مقالة منكرى البعث : (**بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب اءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد**) (٢) ثم يؤكد ذلك خلال السورة بقوله : ((**ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد** (٣) .

وفى سورة سبأ يقول الله تعالى :

(**وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة قل : بلى وربى لتاتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين** (٤)) .

---

(١) سورة ق الاية ٤
(٢) سورة ق الايات ٢ ، ٣
(٣) سورة ق الاية ١٦
(٤) سورة سبأ الآية ٣ .

ولما كان موضوع مناقشة الكفرة منكرى البعث من أبرز الموضوعات التى تعالجهــا السـورة التى نحن فى صدد تدبر معانيهــا ، فقد أورد الله جل ثناؤه الكلام على احاطة علمه بكل شيء عقب ايراده الأقوال الثلاثة لمنكرى البعث وهى :

١ ــ قولهم : **اءذا كنا ترابا اءنا لفى خلق جديد)** .

٢ ــ وقولهم الذى يشير اليه : **(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة)** .

٣ ــ وقولهم : **(لولا انزل عليه آية من ربه)** .

هذا ، وقد آن لنا أن نتأمل فى روعة النص الذى جاء فى هذه السـورة الدال على علم الله المحيط بكل شيء ، المسوق بأسلوب تفصيلى بديع ، يأخذ بيد المتأمل فيه حتى يتبصر الادلة التى تنطوى عليها ظواهر هذا الكون وبواطنه. الدالة على احالة علم الله بكل ظاهر وخفى ، لأن ما فى الكون من ابداع واحكام واتقان ودقة بالغة لا يتم فيه الخلق الا مسبوقا ومقترنا بعلم محيط بكل شيء ، نافذ الى دقائق عجيبة تقصر العقول عن ادراك أجزاء منها ، فضلا عن الاحاطة بها ، واحاطة العلم الربانى بهذه الدقائق أجل واخطر وأوسع من احصاء ذوات الناس وأوصافهم واحوالهم واعمالهم وما بلى من اجسادهم .

اذا تأمل المتدبر ذلك فلا غرو أن ينتهى الى التسليم بحقيقة صفة العلم المحيط للبارى جل وعلا ، ايمانا بكلام الله ، واستدلالا من آيات الكون .

(الله يعلم ما تحمل كل انثى) .

اذا كنتم تؤمنون بربوبية الله افليس من الأمر الذى يديره فى كونه خلق كل ذى حياة من أصغر جرثوم حتى الانسان المخلوق فى احسن تقويم ؟ .

تابعوا البحث فى هذا الميــدان ، أفما يستدعى خلق كل ذى حياة باتقـان واحكام أن يكون علم الخالق محيطا بكل شيء فيه ، كبيرا أو صغيرا عظيما او دقيقا ؟ حتى يتم خلقه دون خلل أو فساد .

وادق شيء فى الخلق كما تلاحظون بدء تكوين الأجنة فى الأرحام ، ثم تزايد نموها طورا بعد طور ، وصناعة الخلق هذه مستمرة ما بقيت الحياة ؛ فكيف يتم احكامها واتقان صنعها حتى تبلغ مرحلة النضج وتصلح لحياة مستقلة ، بدون علم محيط بكل دقائقها : متتبع لكل اطوارها ، داخل فى اغوار لطائفها ؟ .

ان بلوغ هذه الأحياء التى تبدأ من نقطة الصفر درجة كمالها البديع دال عند ذوى العقول على أن عناية الله وعلمه وقدرته مرافقة لكل لطيفة ودقيقة

فيها ، منذ بدء نشاتها ، ومستمرة معها ، ولولا ذلك لم يتم لهـا ان تبـلغ مرتبة كمالها وفق تقدير الله ، ولا صابها الخلل والفساد فى خضم هذه المراحل الدقيقة . كل هذا يهدى اليه قوله تعالى :

(الله يعلم ما تحمل كل انثى) .

كل انثى من البشر . كل انثى من دواب الأرض . كل انثى من الطير ، كل انثى فى البحر ، كل انثى فى البر ، كل انثى من الحشرات . كل انثى من الجراثيم ..

كل انثى : قضية كلية مستغرقة جميع الأفراد .

فكم لهذه الأفراد من أعداد ؟ وكم فى هذه الافراد من لطائف ودقائق ؟ .

(وما تغيض الأرحام وما تزداد) .

الله يعلم أيضا جميع ما يحصل من نقص وزيادة فى الأرحام ، محتوى وما حوى وما رافق ذلك ، فهو يتابع بعلمه كل أطوارها ، لأنه هو الذى يتابع بخلقه كل أطوارها .

وكل شيء عنده بمقدار : قضية كلية أخرى مستغرقة جميع الأفراد .

فكل شيء يزداد فانما يزداد لحكمة اتقان الصنع ، وكل شيء ينقص فانما ينقص لحكمة اتقان الصنع ، وكل شيء يوضع بالمقدار الذى تقتضيه الحكمة .

فمن لعلم هذه الأجزاء الدقيقة ؟ ومن لحساب أعدادها ؟ وتوجيه كل فرد منها الى محله فى مركبه العجيب ، غير الله الذى قدر لكل شيء قدره وأبدع بحكمته صنعه ؟ .

ان علماء الجراثيم قد وصلوا بالكشف المجهرى الى ان ملايين منهـا يمكن ان يجمع فى راس ابرة ، وكل واحد من هذه الجراثيم حيوان قائم بذاته مركب كامل التركيب ، فكم فى الكون من أعداد منها ؟ وعلم الله وقدرته يرافقان اتقان صنعها ويحوطانه ، وينفذان الى أغوار دقائقه . فأين اعداد الناس ومتفتت ذرات اجسامهم وعلم صفاتهم وأحوالهم الذى هو محل اشكال منكرى البعث بالنسبة الى ذلك ؟ انه يعلم كل ذلك ، ويجعل كل شيء بمقدار مطابق للحكمة وكمال الصنع ، لأنه :

(عالم الغيب والشهادة) .

عالم كل شيء : عالم كل حقيقة ، عالم كل ما هو قابل للعلم ، عالم الغيب الذى لا تصل اليه حواس مخلوقاته ولا عقولهم مما هو موجود ، وعالم الغيب

الذي لا تصل اليه عقول مخلوقاته مما هو معدوم ، كما هو عالم الشهادة ، فلا يعزب عن علمه شيء من الأمور التى يمكن أن تشهدها حواس مخلوقاته أو عقولهم .

(الكبير المتعال) :

فمهما كان الشيء كبيرا فالله أكبر منه ، وهو محيط به علما وقدرة ، وهو الذى يستحق أن يوصف بالكبر الحقيقى ، وما عداه بالنسبة اليه صغير ، ومهما كان الشيء دقيقا ولطيفا فالله اكبر منه علما وقدرة ، فهو محيط به وينفذ الى أغواره .

ومهما تعالى شيء عن الاحاطة والادراك فالله أعلى منه واجل ، لذلك فهو محيط به علما ، وهو الذى له صفة التعالى حقيقة ، وما عداه فانه من دونه ، محاط بعلمه .

فما اعذب الثناء على الله بالكبير المتعال وما أحكمه بعد ان تبين انه عالم الغيب والشهادة .

اذا عرفتم ذلك من صفات الله تعالى فالسر منكم والجهر ، والاستخفاء والاستعلان ، سواء بالنسبة الى علم الله ، لذلك فأقوالكم التى تسرونها فيما بينكم عن الرسول صلى الله عليه وسلم معلومة عند الله ، وهو يبلغها رسوله اذا شاء ، فليس شيء من امركم خافيا .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهـار) .

فليسر قوله من أسر ، وليجهر به من جهر ، وليستخف فى أعماله بالظلمات المتوارى طالب الخفاء ، وليمش المستعلن فى أعماله ساريا فى وضح النهار ، فانهم جميعا محاطون بعلم الله ، ولا تخفى عليه منهم خافية .

وبالاضافة الى علم الله المحيط بكل شيء ، فقد قيض الله لكل منهم معقبات الملائكة يحفظونه ، يحفظون ذاته من الخطر بأمر الله ، ويحفظون ايضـا أقواله وأعماله بقدرة الحفظ التى وهبهم الله اياها ، ليشهدوا بما له أو عليه عند ربهم الحكيم العليم ، ومن أمر الله يفعلون كل ذلك .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله) .

يتابعونه بالمراقبة والتسجيل ليحملوا الى ربهم ما أحدث فى قلبه أو عمله . فان كان من أهل الايمان والطاعة واستمر على ما هو عليه فى نفسه ـ فى

قلبه أو عمله ـ من خير وطاعة مد الله له بالتوفيق والتســـديد ، والهداية والتأييد ، والنصر والنعمة ، وطمأنينة القلب وانشراح الصدر ، أما ان غير مافى نفسه من ايمان وطاعة فان سنة الله فى خلقه لا بد ان تصيبه ، فيكون ما أحدثه وبدله فى نفسه سببا فى أن يحجب الله عنه التوفيق والهداية وسائر وجوه النعمة التى يختص بها المؤمنين الطائعين فى الدنيا .

وان كان من أهل الكفر والعصيان واستمر على ما هو عليه فى نفســه من شر وإثم ، مد له الرحمن فى الضلالة والامهال استكمالا لشروط الامتحان وظروفه فى هذه الحياة الدنيا ،وتركه يتعثر فى سبل المهانة والخذلان ، والقلق، وضيق الصدر ، أما ان غير ما فى نفسه من كفر وعصيان ، وتاب الى بارئه ، وطفق يخطو فى سبل الله ، ويباشر الوان طاعته ، فان سنة الله فى خلقه لا بد ان تناله فيكون ما أحدثه وبدله فى نفسه سببا فى ان يفتح الله له أبواب التوفيق والهداية وسائر وجوه النعمة التى يختص بها أهل كرامته وأن يصرف الله عنه الخذلان والمهانة والحرج والقلق وضيق الصدر وسائر وجوه النقمة التى يعاقب بها فى الدنيا ذوى الكفر والعصيان .

انها سنة الله الدائمة فى خلقه المعلنة بقانون :

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) .

ولما كان سياق الآيات السابقة يتناول بالحديث منكرى البعث واليوم الآخر ، الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كان المقتضى البيانى يستدعى ابراز جانب احلال السوء بالمصرين على كفرهم ، المعاندين لرسول الله وانه مرتبط بارادة الله لحكمة هو أعلم بها ، فاذا أراد بقوم سوءا أحله بهم ، فلم يقدر أحد على رده أو دفعه ، ولم يكن للقوم من دون الله اى وال يتولاهم وينصرهم من عقابه ، لذلك جاء عقب القانون السابق قوله تعالى :

« واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

خاتمة للمجموعة الأولى من السورة :

خلاصة تسلسل ما جاء فى الآيات من (١) الى (١١) وترابط معانيها .

١ ـ بدأ الكلام بالتنويه بالمكانة العظيمة للسورة الآتية آياتها ، وبالمكانة العظيمة لجميع ما أنزل الله على محمد صلوات الله عليه ، توطئة لاعلان أنه هو الحق ، واشعارا بسبب كونه حقا قد اكتسب مرتبة المجد العظيم .

ومن المعلوم ان أعظم قضية من قضايا الحق التى جاء بها القرآن قضية الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢ ـ الحق ينبغى أن يؤمن به العقلاء لأنه قضية العقل ، ولكن واقع الناس بخلاف ذلك ، فأكثر الناس لا يؤمنون . وكونهم لا يؤمنون به يستدعى اقامة الأدلة الزاما لهم بالحجة حتى لا يكون لهم عذر ؛ ، وتوضيحا للجاهلين طريق الهدى .

٣ ـ عرضت الآيات أدلة قدرة الله فى آفاق السماوات وأدلة علمه وحكمته ، واشارت الى مختلف الآيات المفصلات فى الكون ، وذيلت ذلك ببيـان ان الغرض منه وصول الناس الى اليقين بعـدل الله ، وانهم لا بد ملاقوه فى الآخرة لاقامة عدله فيهم ، ومنح فضله مستحقيهم ، وذلك ابرازا لركن الايمان باليوم الآخر ، الذى هو محل انكار مشركى قريش .

٤ ـ ثم عرضت الآيات قدرة الله وعلمه وحكمته فى مجال الأرض الحاحا على نفس الغرض الذى سيقت له الأدلة فى آفاق السماوات .

٥ ـ ثم عرضت الآيات أقوال منـكرى ركن الايمـان بالبعث واليوم الآخر وناقشتها .

فقد : تعجبوا من البعث ، وتحـدوا باستعجال العذاب ، والحوا فى طلب ما يشتهون من معجزات .

وادمجت فى ذلك الحكم عليهم بالكفر ؛ وبيـان عقابهم فى الأخرة ، وفتحت لهم الأمل بالمغفرة ؛ وبينت للرسول وظيفته بالنسبة اليهم .

٦ ـ ولما كانت دلائل قدرة الله كافية فى بيان قدرته على البعث ، وهو ما جاء فى الآيات السابقة ، فقد جاءت الآيات بعد ذلك تثبت احاطة علم الله بكل شىء دفعـا لتوهم أن الله لا يطلع على كل جزئيـة من أعمالهم ؛ أو كل جزئية مما يتفتت من أجسامهم بعد موتهم .

المجموعة الثانية

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ
بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ
يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ج وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ج وَمَا
دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ (١٥) ۩ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ
ٱللَّهُ ج قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ج قُلْ
هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ج أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ
شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ج قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّٰرُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ج
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ج كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
وَٱلْبَٰطِلَ ج فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً صلے وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ج
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ج وَٱلَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ج أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ صلے وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٨) ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ج إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ
بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ

﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ

إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ

مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ

وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

التفسير

قال الله تعالى :

« هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

(هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) :

(البرق) : ظاهرة اضاءة كونية تتلامع فى السحاب ، ومهما يقل العلماء الكونيون فى تعليل حدوثها وفق ناموس الكون ، فانها على كل الأحوال من الأحداث الكونية التى تحدث ضمن الأنظمة التى فطر الله كونه عليها .

(الخوف) : انفعال نفسى قلق يرافقه الشعور بالنفور ، ينشأ عن توقع حدوث ما هو مكروه للنفس غير ملائم لطبعها .

(الطمع) : انفعال نفسى قلق يرافقه الشعور بالرغبة ، ينشأ عند الأمل بحدوث ما هو محبوب للنفس ملائم لطبعها .

والمعنى : الله وحده هو الذى يريكم البرق ايها الناس ، اذ خلق فيكم أداة الرؤية وهى البصر ، وخلق لكم هذه الظاهرة الكونية تتلامع فى السحاب على مستوى من الاضاءة يمكن أن تروه بأبصاركم ، وجعل هذه الظاهرة الكاشفة للظلمات والخاطفة للأبصار مقارنة فى الغالب لهطول أمطار قد تكون غيثا مريعا ، وقد تكون مطر سوء ، ومقارنة أحيانا لنزول صواعق محرقة ، أو صواعق مفجرة لبعض الينابيع فى الأرض بقوة هبوطها .

انها ظاهرة عجيبة ، مبهمة الدلالة ، ذات وجهين ، فهى مضيئة كاشفة للظلمات تهدى السبيل ، وهى عنيفة متلامعة تكاد تخطف بالأبصار ، وقد تكون انذارا بشر ، وقد تكون بشارة بخير .

وبين يدى هذا الابهام لا بد أن تنفعل النفس بالخوف حذر ما يمكن أن يعقبه من مكروه ، وأن تنفعل أيضا بالطمع استشرافا لما يمكن أن يعقبه من مرغوب .

وفى هـذا التردد بين انفعالين متضادين صـورة لأعقد الانفعالات العاطفية التى تقلق الانسـان ، انها ظاهرة كونية فى أجواء الأرض بديعة الصنع ، تلامس أجواء اخرى داخل نفوس الناس ، فتثير فيها عجبـا من الانفعالات المتذبذبة المتضادة ، وهذه الظاهرة واحدة من انظمـة الكون الكثيرة الدالة على قدرة الله العظمى ، وحكمته الكبرى ، وعلمه المحيط .

٢ ـ (وينشىء السحاب الثقال) :

(ينشىء) : الانشاء هو الايجاد على سبيل التربيـة والتدرج فى مراحل متتابعة ، وكلمة **(ينشىء)** فى مجال الحديث عن السحب من أبلغ الكلم ، لأن السحب انما تتكون بقدرة الله من ذوات الأبخرة المتصاعدة فى الجو ، والمتجمعة شيئا بعد شىء .

(السحاب) : اسم جنس واحده سحابة ، واصل اشـتقاق الكلمـة من **(السحب)** وهو الجر ، تقـول مشى الرجل يسحب ذيله ، اى يجـره ، والسحاب ينجر فى الجو ضمن نظامه الذى وضعه الله له .

(الثقال) : جمع مفرده ثقيلة ، تقول سحابة ثقيلة ، وسحاب ثقال : اى كثيفة ذات وزن ثقيل ، لأنها محملة بالماء الكثير ، فهى مهيأة لافراغ ما فيهـا من ماء حسب مشيئة الله .

والمعنى : والله وحده هو الذى يجدد باستمرار انشاء السحب ويربيهـا شيئا بعد شىء ، حتى تكون سحبا ثقالا بما فيها من ماء .

وهذه الظاهرة الكونية الثانية واحدة من انظمة الكون الكثيرة الدالة على قدرة الله العظمى ، وحكمته الكبرى ، وعلمه المحيط .

٣ ـ (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) :

(يسبح) : التسبيح شرعا هو تنزيه الله عما لا يليق بجلاله ، واثبات بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل او شريك ، أو ضد او ند ، او اصل او فرع ، ونحو ذلك ، وكذلك تمجيده وعبادته بذكر : **(سبحان الله)** .

(بحمده) : الحمد لله هو الثنـاء على الله بجليل صفاته وعظيم احسانه ، وفى التنزيه العـام للخالق جل وعلا والثناء العـام عليه جمع لصفات الخالق السلبية والايجابية .

(الرعـد) : هو الصوت العظيم الذى نسمعـه متفجرا فى السحـاب ، ويعلل العلماء الكونيون حدوثه بأنه ينشأ من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق امامها .

والمعنى : والله وحده هو الذى يسبح الرعــد له تسبيحا مقترنا بحمده والثناء عليه بصفاته العظمى واسمائه الحسنى ، وهو الذى تسبح له الملائكة من خوف عذابه .

وهنا نتساءل فنقول : ما المراد من تسبيح الرعد وحمده ، مع انه بحسب الظاهر مخلوق لا حياة له ، ولا علم عنده حتى يسبح ؟ .

ويمكن أن نجيب بأحد جوابين :

الجواب الأول : ان يكون ما فى هذه الظاهرة الطبيعية فى الكون من ادلة على تنزيه الله عن كل ما لا يليق بذاته وصفاته جل وعلا ، ومن ادلة اخرى على ما لله من صفات كمال ، هى بمثابة اللسان الناطق بتسبيح الله وحمده ، يدرك ذلك المتفكرون فى آلاء الله ، فيسبحون الله ويحمدونه .

الجواب الثانى : ان يكون ما نسـمعه من صـوت الرعد هو فى الحقيقة تسبيح وحمد لله ، ولكنه صوت لا نتبين حروفه ، ولا نفقه لغته ، وقد اخبرنا الله بحقيقـة دلالات هـذا الصوت ، ومثل ذلك قوله تعـالى : **(وان من شىء الا يسبح بحمـده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** (١) . ويقرب هـذا الى الفهم ما نلاحظه فى آلات تسجيل الصوت . تأمل فيهـا انك اذا سرعت مرور شريط التسجيل فى الجهة التى تنقل اليك الصوت سمعت حروفا متتابعـة لا تتبين دلالتها ، واذا زدت فى السرعة اختفت عنك الحروف نهائيـا ، وسمعت صوتا متلاحقا غير مفهوم ، فاذا سـمعه الجاهل قال : هذا مثل الصرير أو الصفير لا معنى له ، واذا سمعه الخبير قال : هذا الكلام له معنى ، ولكنـه أسرع من قدرة سمعى على الاستيعاب والمتابعة ، ومثل ذلك لو انك بطات حركة شريط التسجيل فانك تسمع صوتا يشبه صوت الجمل حتى لا تتبين منه أى حرف ، وما ذلك لأنه فى حقيقته ليس كلاما ذا معنى ودلالة ، ولكن لأن سمعك لم يتلاءم معه فعجز عن أن يتبين حروفه ، ولو جئت بجهاز آخر قادر على التقـاط الصوت وجعلت بينهما توافقا فى الحركة لأمكن لهذا الجهاز أن يتبين كل حرف وكل همسة ، ويسجلها لك ثم يسمعك اياها نسخة كالأصل صحيحة لم تنقص حرفا ولم تضع رنة ولا همسة .

أما تسبيح الملائكة فشىء أخبرنا الله عنه نؤمن به كما أخبرنا ، ويبـدو أن للملائكة وظائف خاصة موكولة اليها تقوم بهـا عند هذه الظواهر الكونيـة الطبيعية ــ البرق والسحب والرعد والصواعق ــ ومن اجل ذلك أبرز القرآن

---

(١) الاسراء الآية ٤٤ .

من خلف أستار المشهد الطبيعي صورة الملائكة ، المرافقة المسبحة بحمد الله ، الخائفة من شهود آثار قدرة الله وقهره ، القائمة بوظائفها حسب أمره .

٤ ـ (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) :

(الصواعق) : جمع مفرده صاعقة ، والصاعقة كتلة ملتهبة يرافقها صوت انفجار عنيف تهبط من السحاب على الأرض .

ويعلل العلماء الكونيون حدوثها بأن السحب قد تمتلىء بشحنات كهربائية والأرض بشحنات كهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فاذا قاربت السحب وجه الأرض تولد من الشحنتين شرارة تتفاوت مقاديرها بحسب الشحنات الكهربائية ، ونسبة التلاقى الذى يحدث بين الشحنتين ، فينشأ من ذلك كتلة متوهجة نارا فتهبط بسرعة فائقة الى الأرض طبق قانون الجاذبية . ومهما يكن من أمر فان الله هو الذى وضع انظمة الكون على احكم أمر وابدعه ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

والمعنى : وهو وحده الذى يرسل من السحاب الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء هلكته .

روى ان عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة وفدا الى الرسول صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله ، فجعل عامر بن الطفيل يجادل النبى صلوات الله عليه ودار اربد بن ربيعة من خلفه بغية أن يغتاله ضربا بالسيف ، فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت ، فارسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته وارسل الطاعون على عامر بن الطفيل فخرجت فيه غدة كغدة البكر ، فآوى الى بيت امراة سلولية ، وجعل يقول وهو فى ساعاته الأخيرة : **(غدة كغدة البكر وموت فى بيت سلولية)** حتى مات .

فنزل قوله تعالى : **(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) .**

٥ ـ (وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال) :

(يجادلون فى الله) : الجدال والجدل شدة الخصومة ، واصله مأخوذ من جدل الحبل وهو احكام فتله ، فكأن المجادل يحاور بما يفعل ان يجلب نده الى رأيه ويفتله معه .

ومعنى (يجادلون فى الله) : يجادلون فى وجوده ووحدانيته وفى عظيم صفاته ، ومنها قدرته على البعث ، واحاطة علمه بكل شىء ، وهذا هو محل مجادلة كفار قريش التى يحاورون ويداورون فيها ، والنقطة الرئيسية فى موضوع البحث الذى تدور عليه السورة .

(المحال) : المماحلة وهى قـوة المكر والكيـد .

والمراد من أن الله شديد المحال ـ والله اعلم ـ انه شديد الانتقام من ذوى الكيد والمكر الذين يماكرون الله والذين آمنوا ؛ ويبيتون للاسـلام والمسلمين ما يستطيعون من كيد وحيلة ، فيمد الله لهم ثم يوقعهم بشر مكرهم وكيدهم .

(ب) معنى الآيتين (١٢ و ١٣) نصا واقتضاء :

وفى هاتين الآيتين عود الى عرض دلائل قدرة الله المنبثـة فى هذا الكون الكبير واحتير هنا من الظواهر ما يكون فى العلو القريب بين السماء والأرض ، وهذا ما تمليه براعة الترتيب ،اذ عرضت السورة أولا ظواهر قدرة الله فى العلو البعيد ، وذلك فى سلسلة السماوات السبع وما فيها ثم العرش ، بدءا بالعظيم المحيط الشامل ، وحثا لذوى العقول على التأمل البعيد ، ثم عرضت ثانيـا ظواهر قدرة الله فى القريب القريب ، وهى الأرض وما فيها ، فالمدهش البعيد الذى يثير تأمل المتأملين وبحث الباحثين يناظره ويماثله مدهش آخر ، ولكنه قريب قريب ، يغفل عنه الناس لقربه ومداومة النظر اليـه ، والعيش ضمن انظمته المستمرة وقوانينه الثابتة .

وهذه ظواهر اخرى ـ برق وسحاب ورعد وصواعق ومن ورائهـا ملائكة تسبح بحمد الله ، وتقوم بوظائفها مع هـذه الظواهر طبق أوامره ـ ان هـذه الظواهر واقعة بالنسبة الى الناس بين القريب والبعيد ، وهى تؤدى وظائفها فى القريب ، وتستوحى أوامرها من البعيد المستتر فى سجوف الغيب .

وبعرض هذه الظواهر والاشارة الى ما وراءها استكملت الصورة الفنية البيانية ترتيبها الرائع من جهة التتابع ، يضاف الى ذلك ما فى هذه الظواهر من التمهيد للالماح بالوعيد الذى يلوح الله به للمصرين على الكفر ، والمعاندين للرسول ، المكابرين رغم وضوح الادلة وجـلاء البراهين ، وهو ما فى قوله تعالى : **(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)** .

ان فى ظاهرة البرق الذى يثير فى الأنفس الخوف والطمـع ، وفى ظاهرة انشاء السحب الثقال المخيفة المطمعة ، وفى ظاهرة الرعـد المقعقع المخيف المطمع ، وفى ظاهرة الصواعق المترقبة بحـذر وخوف ، لمجالات واسـعة للمتأملين الباحثين فى دلائل قدرة الله ومحيط علمه وعظيم حكمته وعدله .

ومن البديع الرائع أنه أدمج الحديث عن الملائكة المسبحة من خيفة الله مع صوت الرعد المسبح بحمد الله استكمالا لعرض الصورة المتحركة ، ما يظهر منها لأعين الناس . وما يخفى عنها مما يشاهده غيرهم .

ولما استكملت الصورة كامل هيئتها ، وأعطت كل دلالتهـا على قدرة الله القادر على الانعام والقادر على الانتقـام ، حسن التعريض بالصواعق التى ترافق تلك الظواهـر فى بعض الأحيان ، فتنزل بالهـلاك على من يشـاء الله هلاكه ، كما حسن ختم هـذه الصورة الرائعة بما يتصل بالأمر الذى سيقت من أجله وهو اقامة الدليل على قدرة الله ، فقال تعالى : **(وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال)** ، أى فعلى الرغم من كل هذه الأدلة المنبثة فى الكون يجـد الكافرون لأنفسهم مجـالا للمجادلة فى ذات الله وفى صفاته ، وفى قدرته على بعثهم وحسابهم ، وحينمـا تضيق بهم الحجـة يبيتون ألوان الكيد والمكر للرسول ولدعوته وللمسلمين ، وقد كان الأجـدر بهم أن تكفيهم بعض هذه الأدلة ، فلا يطمعنهم امهال الله لهم ليترك لهم أمدا يمسون من بعـده لا عذر لهم يعتذرون به ، اذا لم يرتدعوا فيه عن غيهم ، فان الله شديد المحال شديد المكر والانتقـام .

النص

قال الله تعـالى :

« له دعـوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهـم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضـلال ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » .

(أ) اللغـة والمعنى المراد :

١ ـ (له دعـوة الحـق) :

أى لله تتجـه دعوة من يدعو بدعوة الحق ، ودعوة الحق هى دعوة المؤمن بالله الذى لا يشرك به أحـدا ، لأنه لا يدعو أحدا غير الله ، ولا يسـأل أحدا الا الله ، ولا يتوكل على أحد الا على الله .

الدعوة والدعاء شرعا : طلب العبـد من ربه على سبيل التذلل والخضوع وهو نوع من العبادة ، وقد جاء فى الحديث أنه مخ العبادة .

والدعاء لغة : النـداء والاستغاثة ، تقول : دعوت الرجل دعوا ودعاء اذا ناديته ، والاسم منه الدعوة ، والدعوة أيضا المرة الواحدة من الدعاء .

الحق : ضد الباطل وقد سبق بيانه في أول السورة ، ولنفهم الاضافة في : **(دعوة الحق)** ومثلها : كلمة الحق ـ دعوة الباطل ـ كلمة الباطل ـ وامثال ذلك من الاضافات ، نقول حول الجملتين الأوليين : ان كلا من الحق والباطل يشتمل على أشياء كثيرة ، من اقوال وافعال ومفاهيم وعقائد ، ومن الأقوال دعوة وكلمة ، فالدعوة التي تنسب الى الحق من الاشياء الكثيرة التي يشتمل عليها هي : **(دعوة الحق)** والكلمة التي تنسب الى الحق هي **(كلمة الحق)** أي الدعوة المنسوبة الى الحق والمختصة به ، والكلمة المنسوبة الى الحق والمختصة به .

وبالمقابل يقال مثل ذلك في الدعوة أو الكلمة التي تنسب الى الباطل من الأشياء الكثيرة التي يشتمل عليها ، وعلى هذا المنوال تفهم امثال هذه الاضافة .

فيكون المعنى أن الله جل وعلا اختص بأن تتجه اليه الدعوة المنتسبة الى الحق ، من جميع انواع الدعاء الذي يدعو به الداعون ، فهو يرعاها بعلمه ، ويمد للداعي بها أيادي رحمته على مقتضى حكمته .

واما دعوة الباطل فهو لا يستجيب لها ، لانها ليست له ، اذ ليس له من الدعوات الا دعوة الحق .

٢ ـ (والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) :

(من دونه) : اي من غير الله .

(يستجيبون) : يقال استجاب له دعاءه ، واستجاب دعاءه .

(في ضلال) ، في ضياع وسير على غير هدى .

ولقد ضرب الله في هذا مثلا لواقع الخيبة التي يصاب بها الذين يدعون من دونه ، اي والذين يدعون من دون الله لا يستجيب لهم شركاؤهم بشيء الا استجابة كاستجابة الماء الذي لا يعقل ولا يحس انسانا شديد الظمأ متلهفا باسطا كفيه اليه من بعد يدعوه ويرجوه ان يبلغ فاه ليشرب منه دون أن يتخذ الوسائل التي يمكن أن تنفعه ، فلا هو عائد الى رشده ، ولا الماء بالغ الى فيه ، أو حالهم كحال باسط كفيه الى الماء دون أن يحمل الى فيه من الماء شيئا بكفه أو بآنية وسيلة تحمل الماء .

ما أروع مشهد هذا المثل في الدلالة على مبلغ جهالة الذين يدعون من دون الله وخيبة أعمالهم ومساعيهم ، وفي ايراده مورد الاستثناء الذي يوهم

اثبات شيء من الاستجابة ثم ينتهي بالتمثيل الى تأكيد معنى النفي الذى سبق الاستثناء لون بديع من التهكم .

وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ، فكل دعاء لهم ضائع يسير على غير هدى ، ولا يجد له مستجيبا ، فهو تائه يسير الى مجهول ، وذلك لأنهم وجهوه الى شركائهم الذين لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يسمعون لهم ولا يبصرون ، ولم يوجهوه الى الله الذى بيده كل شيء وهو السميع البصير ، ولئن وجهوه الى الله مع شركهم فان الله لا يستجيب لهم عقوبة لهم على ما اكتسبوا من اثم كيف يلبيهم وقد جعلوا معه شركاء مما خلق يعبدونهم كعبادة الله ؟

وقد جيء بهذا التعميم فى قضية كلية كتفريع على التمثيل ، اى فاذا كان مثلهم ما سبق فكل دعاء يدعو به الكافرون فى ضلال .

٣ ـ (ولله يسجد من فى السماوات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) :

(يسجد) : السجود فى الاصل وضع الجبهة على الارض على سبيل الاحترام والتعظيم ، وفيه تعبير مادى عملى عن نهاية الخضوع القلبى والنفسى . والمراد بالسجود فى الآية ما يشمل نهاية الخضوع المادى والمعنوى سواء أكان بالارادة أو بدونها ، وسواء أكان مع الرغبة او مع الكره .

(من فى السماوات والأرض) : اى جميع المخلوقات العقلاء فى السماوات والأرض ، وقد استفيد العموم من اسم الموصول .

(طوعا) : الطوع هو كمال الانقياد والاستسلام مع عدم الرغبة بالمعارضة ، فالمطيع من المكلفين لأمر التكليف هو المنقاد بالارادة ، الذى لا يجد فى نفسه من ذلك حرجا ، والمطيع لأمر التكوين هو المستسلم بلا معارضة لنفوذ المشيئة فيه .

(كرها) : الكره والكره بفتح الكاف وضمها هو ضد الرغبة بالشيء ، وقد يصاحبه انقياد واستسلام لعدم القدرة على المعارضة ، ودفع الأمر المكروه .

واذا نظرنا الى كل شيء فى الكون نظر الباحث المتأمل وجدناه ساجدا لله سجودا معنويا ، اى هو فى نهاية الخضوع والاستسلام لمشيئة الله فيه ، وذلك لان مشيئة الله نافذة فى كل شيء ، فهو يحيى من يشاء ويميت من يشاء ، ويصرف كل شيء على ما يريد فى السماوات والأرض ، دون ان يستطيع شيء

منها معارضة ارادة الله فيه . أليس هذا هو نهاية الخضوع والاستسلام الذى يعتبر السجود العملى المادى ـ وهو وضع الجبهة على الارض على سبيل التعظيم من ذوى الارادة ـ صورة معبرة عنه ؟

ولدى التأمل فى هذا السجود المعنوى الذى هو الانقياد التام لنفوذ المشيئة الربانية نلاحظ ان منه ما يرافقه الرغبة بهذا الاستسلام والانقياد ، وهو ما يحصل فى قلوب المؤمنين من المحبة لما تتعلق به مشيئة الله ، والرضا التام عن قضائه وقدره ، ومنه ما لا يرافقه رغبة ولا كراهية ، وذلك كنفوذ مشيئة الله فيما لا حس عنده ، كالأحداث التى تجرى بخلق الله فى السماوات والأرض ، وهذان الأمران مشمولان بمعنى السجود الطوعى ، ولكن الأول مستسلم مع الرغبة ، والثانى مستسلم مع عدم الكراهية لأنه لا رغبة ولا كراهية عنده ، وكلاهما فى حقيقة حاله طائع .

ويزيد المؤمن انه بجانب ما هو فيه من سجود معنوى نافذ فيه دون ارادته فانه يسجد لله سجودا ماديا وسجودا قلبيا اراديا معبرا بذلك عن عبادته لربه ، ونهاية خضوعه له ، ورضاه عما يجرى به قضاؤه وقدره .

وهناك قسم ثالث وهم الذين تنفذ فيهم مشيئة الله وهم لذلك كارهون ، كالكافر مثلا غير قادر على معارضة مشيئة الله فيه ودفع قضائه وقدره عنه ، وهو لكثير مما يحدث له منها كاره ، ولو استطاع المعارضة لفعل ، وكل هذه المعانى مع حواش لها كثيرة يمكن أن يفهمها المتدبر فى قوله تعالى : **(ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها)** .

اما قوله تعالى : **(وظلالهم بالغدو والآصال)** فهذا البيان حوله :

(الظلال) : جمع مفرده ظل وهو الخيال الذى يظهر للأشياء التى لها جسم .

(الغدو) : جمع مفرده غداة وهى أول النهار .

(الآصال) : جمع مفرده أصيل وهو ما بين العصر الى غروب الشمس .

اى : وظلال من فى السموات والأرض تسجد لله بالغدو والآصال .

اما المراد من سجود ظلال من فى السماوات والأرض ، فهو نفوذ مشيئة الله فيها التابع لنفوذ مشيئة الله فى الاجسام التى هى ظلال عنها ، وكون السجود حاصلا بالغدو والآصال هو كناية عن الدوام والاستمرار .

وهذا النص يفتح امامنا مجال بحوث علمية واسعة فى الأجسام ومقـادير كثافاتها استدلالا من ظلالها التى تحدث نتيجة تسليط منبع ضوئى عليها .

ويدلنا هذا النص ايضا على أن الملائكة والجن أجسام لأن الله قد اثبت لها ظلالا ، وان كنا فى مستوى ما وهبنـا الله من قدرة بصرية لا نستطيع بحسب العادة رؤية أجسـامها ولا ظلالها ، والله اعلم .

(ب) معنى الآيتين (١٤ ، ١٥) نصا واقتضاء :

وفى معترك الخوف والطمـع فى النفس الذى أثاره جو البرق والسحاب الثقال والرعد والصواعق لا حيلة للعباد العاجزين عن أن يتصرفوا فى أحداث الكون على ما يريدون الا أن يلتجئـوا بالدعاء الى القوة القـاهرة من وراء الظواهر .

ان المهيمن على الخلائق من وراء الحجب المادية ليشهد صنفين من الأدعية تقذف بها حناجر الداعين .

أما دعوة الحق فصاعدة الى الله واصلة اليه ، يعلمها ويستجيب لمن دعـا بها بحق على مقتضى حكمته .

وأما دعوة الباطل فضائعة ضالة تمزقهـا الحيرة ، ولا تستطيع ان تصل الى الله لأنها ليست له ، ولا تجـد من دون الله من يسعفها ويتلقفها لأن الذين من دونه عاجزون عن أن يجلبوا النفع لأنفسهم أو يدفعوا الضر عنها ، فضـلا عن أن يسعفوا غيرهم ممن يستجير بهم ، وهل من دون الله مجير ؟

فما أخيب دعاء من يدعون من دون الله ، انهم لا يأتون البيوت من ابوابها ، ولا يسلكون السبيل التى توصلهم الى النتيجة التى يرجونها ، فمثلهم كمثل الظامىء الملتهب عطشا يبسط كفيه الى المـاء من بعد ظانا أن هذه الوسـيلة كافية ليبلغ المـاء فاه ، فهل يستجيب الماء له فيسعفه ؟ انه لن يستجيب له وان دعاه وان رجاه وانه ليس ببالغه .

وكذلك دعاء الكافرين ، سـواء أكانوا منكرين الله أو مشركين به انه دعاء ضائع لا يحقق شيئا مما يرجون ، يرجون النجاة ولا يسلكون مسالكها .

ولماذ لا يدعون الله وحده مؤمنين به لا يشركون بعبادته احدا ؟ وهو الذى يجيب دعوة من دعاه بحق وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ، وهو القادر على كل شيء السميع البصير .

افيستكبرون عن عبادته والالتجاء اليـــه ؟ وله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم على سبيل الاستمرار ، اذ كل من فى السماوات والأرض فى نهاية الخضوع والاستسلام اليه ، نافذة فيهم مشيئته طائعين أو كارهين ، فهو المتصرف فيهم ، وكذلك ظلالهم نافذة فيهـا مشيئة الله تبعـا لنفوذ مشيئته فيهم وفى الكون من حولهم ، كما أن كل شيء فى الكون ساجد لله بهذا المعنى نافذة فيه مشيئة الله ولذلك لما قال الله للسماوات والأرض ائتيـا طوعا أو كرها ، قالتا : اتينا طائعين .

واذ كان واقع النـاس وواقع الكون كله كذلك فما الذى يجعل الكافرين يتركون عبادة الله أو يشركون به ، ويتجهون الى غيره يرجـون من امره وهو وحده الذى بيده كل أمر ؟ .

لم لا يكملون واقعهم غير الارادى النافذ فيهم بأعمـال ارادية امرهم الله بها من سجود له ، وخضوع لاوامره ونواهيه ، والتجاء اليه وحده بالدعاء ؟ ان هذا هو سبيل العقلاء لو كانوا يعقلون .

النص

قال الله تعـالى :

(قل من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمـات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (١٦)) .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ـ (قل من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله) .

الرب لغة : هو المالك ، والسيد المطاع ، والصاحب ، والمربى . فرب الدار اى مالكهـا .

وقول صفوان بن اميـة لأبى سفيان يوم حنين : (لأن يربنى رجل من من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن) أى لأن يسودنى . ويقال عن النساء هن ربات الحجال أى صاحبات الحجال .

والرب فى الأصل مصدر كالتربية ، والتربية انشاء الشيء حالا فحالا الى حد التمام ، يقال : ربه يربه ربا ورباه يربيه تربية وربيه يربيه تربيبا ، ثم استعيرت كلمة (رب) من المصدرية الى اسم الفاعل ، ولما كانت التربية الحقيقية لله تعالى

لانه هو الذى يخلق الأشياء وينشئها طورا فطورا كان الاحق بأن يطلق عليه انه **(الرب)** اى الخالق المنشىء .

ومن حق الخالق المنشىء المربى ان يكون هو المالك والسيد المطاع والاله المستحق للعبـــادة ، لذلك فاذا أطلقت كلمة الرب لم يجز أن يراد بها غير الله تعالى .

ولملاحظة معنى الخلق والانشاء فى كلمة الرب جاء معنى الملك والالهيـــة بحكم المرتبـــين على مضمون معناها فى سورة الناس : اذ يقـــول تعالى : **(قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس)** اى فمن كان ربا لابد ان يكون مالكا ومليكا ولابد أن يكون الهـــا مستحقا للعبـــادة ومثـــل ذلك فى ســـورة الفاتحـــة : **(الحمـــد لله رب العالمين الرحمـــن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين)** .

والمعنى : اسألهم يا محمـــد : من خالق السماوات والأرض ومنشىء كل شىء فيهما وممده بالتربية والنماء حتى يبلغ مرتبة كماله .

وذلك ليحدد موقفهم من توحيد الربوبية لله تعالى ، فان اقروا بأن الله هو الرب وحده فانتقل بهم الى نقطة الخلاف وهى نقطة توحيد الألوهية .

وبما ان معظم مشركى العرب يعتقدون بتوحيد الربوبية وانما ينكرون توحيد الألوهيـــة قال الله لنبيه : **(قـــل : الله)** اى أعلن الاتفاق معهم على هذه النقطة الأساسية من نقاط مجادلتك لهم لاقامة الحجة عليهم والزامهم بالحق الذى تدعوهم اليه .

٢ ـ **(قل : افاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟)**:

(افاتخـــذتم من دونه أوليـــاء ؟) : اى افاتخـــذتم غير الله الذى سلمتم بربوبيته أولياء ؟

(أولياء) : جمع ولى ، والولى والمولى فى كلام العـــرب واحـــد . ومن معانيه فى كلامهم الناصر والرب والمالك والسيد والمنعم والمحب والتابع وكل من ولى امرا أو قام به فهـــو مولاه ووليه ، والمشركون قد اتخذوا من دون الله اوليـــاء ، اى جعلوا الشركاء اربابا وســـادة ومالكين ومنعمين وناصرين ولذلك عبدوهم ، وكلما حزبهـــم امر التجـــأوا اليهم وطلبوا منهم على سبيل الدعـــاء .

(لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا) : اى لايملك هؤلاء المعبودون من دون الله لأنفسهم ان يجلبوا لها نفعا أو يدفعوا عنها ضرا ، وكذلك لا يملكون ان يجلبوا لها ضرا على فرض انهم أرادوا لها ذلك .

والمعنى : قل : كيف تتخذون لكم سادة ونصراء وأربابا تعبدونهم من دون الله وترجون نفعهم وتخشون ضرهم بعد أن أقررتم بتوحيد الربوبية لله تعالى : وتوحيد الالوهية لازم عقلا لتوحيد الربوبية ، فكيف تقرون بالملزوم ثم تخالفون فى لازمه العقلى .

٣ ـ (قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟) :

(الأعمى) : صفة مشبهة من عمى ، وهو فى العيوب الظاهرة فاقد البصر ولكنه فى العيوب الباطنة فاقد البصيرة وهو محل الذم .

(البصير) : صفة مشبهة من بصر والمراد صاحب البصيرة العارفة التى تبصر الحقائق .

والأعمى والبصير لفظان استعيرا للجاهل والعالم ، والمراد منهما هنا الكافر الموغل فى الجهالة فهو الأعمى ، والمؤمن العارف بربه فهو البصير ، وهو خطاب يتضمن فى معاريضه تبكيتا لهم اذ اختاروا لأنفسهم العمى على البصر ، وثناء للمؤمنين لذ اختاروا لأنفسهم البصر ، كما أن فيه دفعا للمشركين ان يتركوا ماهم عليه تخلصا من العمى .

٤ ـ (أم هل تستوى الظلمات والنور ؟) :

أى وقل لهم : هل تستوى الظلمات والنور ، وقد استعيرت لفظة الظلمات للدلالة على انواع الجهالات ، والمراد منها جهالات الكفر ، كما استعيرت لفظة النور للدلالة على العلم والمعرفة ، والمراد منه هنا الايمان بالحق الذى جاء من عند الله لأنه هو العلم الذى لا يداخله جهل ولا شك فى حقيقته ، رغم أن كثيرا من الناس لا يؤمنون به .

وفى هذا خطاب على طريقة الاستفهام كما فى سابقه ، الا ان الأول تعريض بالأشخاص وفى هذا تعريض بالمعتقدات . ويلاحظ أنه قد جمعت الظلمات وافرد النور والحكمة فى ذلك أن سبل الضلالة متعددة شتى وأما صراط الحق فواحد .

٥ ـ (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟) :

(شركاء) : اى اربابا اشتركوا مع الله فى صفة الخلق والانشاء والابداع والايجاد من العدم .

(خلقوا كخلقه) : الخلق : أصله التقدير المستقيم ، ويستعمل فى ابداع الشىء على غير مثال سبق ، وفى ايجاده من العدم ، ويستعمل ايضا فى ايجاد الشىء من الشىء وفى تحويل الشىء من صورة الى صورة ، ويستعمل ايضا بمعنى الكذب والافتراء .

والخلق بمعنى الايجاد والتكوين والابداع لا يستعمل مضافا الى غير الله ، وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ **واذ تخلق من الطين كهيئة الطير** ﴾ (١) هو بمعنى التحويل من صورة الى صورة لا بمعنى الايجاد . والمراد فى الآية هنا المعنى الخاص بالله وهو الايجاد والابداع .

﴿ **فتشابه الخلق عليهم** ﴾ : اى فتماثل فى نظرهم خلق الله وخلق شركائهم .

والمعنى : أم هم يعتقدون ان الذين يعبدونهم من دون الله هم شركاء حقيقيون لله فى ربوبيته ، خلقوا مثل خلق الله ، فأوجدوا مخلوقات مثل ما أوجد ، وابدعوا مثل ما أبدع ، فتشابه عندهم خلق الله وخلق هؤلاء الشركاء ومن اجل ذلك عبدوهم واتجهوا اليهم فى دعائهم .

فان كانوا كذلك فأقم لهم الحجة على النقطة الأولى وهى توحيد الربوبية ، وبناء على هذه النقطة من نقاط مجادلة المشركين قال الله لرسوله :

٦ ـ ﴿ **قل : الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ :

﴿ **الله خالق كل شىء** ﴾ : قضية كلية تفيد أن كل شىء فى الوجود الحادث مخلوق لله تعالى بلا استثناء فلا مجال لأن يكون لأحد غير الله خلق فيه .

﴿ **وهو الواحد القهار** ﴾ : هما اسمان من أسماء الله الحسنى .

﴿ **فالواحد** ﴾ : اى الواحد فى ذاته المنفرد بالخلق والربوبية .

﴿ **القهار** ﴾ : صيغة مبالغة للقاهر ، والقهر الغلبة والسلطان ، فالله هو الذى له القدرة الغالبة على كل شىء ، ومن له صفة القهر فهو الرب حقا . فيكون فى قوله تعالى : ﴿ **قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار** ﴾ اشارة الى ثلاث نقاط للاستدلال على توحيد ربوبية الله تعالى :

الأولى : كون كل شىء فى الوجود مخلوقا لله تعالى .

الثانية : كون الله واحدا فى ذاته منفردا فى ربوبيته .

الثالثة : كون الله قهارا غالبا ، ومن له القهر على كل شىء فهو الرب حقا .

وتفصيل ادلة هذه النقاط الثلاث جاء موزعا فى القرآن الكريم ، وقد ترك للرسول بيان ذلك للمشركين فى اقامة الحجج لهم على توحيد الربوبية لله تعالى .

---

(١) المائدة الآية ١١٠

(ب) معنى الآية (١٦) نصا واقتضاء :

لقد تضمنت الآيتان السـابقتان لهـذه الآية معالجة المشركين بوسائل الاقناع التى تكشف لهم عدم جـدوى ما هم به مستمسكون ليسهل عليهم ترك ماهم عليه من باطل ، ومتابعة الحق . وهى أول مرحلة من مراحل الهجوم على عقائدهم ، بعد أن كان الموقف فى أول السورة موقف الدعوة الهادئة ، فالدفاع عن مبادئها أمام هجمات المشركين بأقوالهم التى سبق بيانها ، مع وجوه الرد عليها .

أما فى هذه الآية فان مرحلة الهجوم على باطلهم تشتد اذ تتخذ أسلوب المجادلة بالحق أولا ثم تنتقل الى شيء من العنف فى معاريض القول ، ففيها يعلم الله نبيه كيف يجادل المشركين ليردهم بالبرهان القـاطع الى توحيـد الألوهية ، وذلك بنقلهم من الحقائق المسلم بها الى حقائق أخرى لازمة لها لزوما عقليا ومرتكزة عليها بحكم البداهة . وذلك بأن يضع المشركين أمام احتمالين لا ثالث لهما بالنسبة الى ما هم عليه من الشرك :

الاحتمال الأول : أن يكونوا ممن يعتقـدون أن الله رب السـماوات والأرض ، أى خالقهما وممدهما بأيادى نعمته وتربيته على الدوام وهؤلاء معظم كفـار العـرب ، ولذلك قـال الله لرسـوله فى غير هـذه السورة : **(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله)** (١) .

وهذا الاحتمال هو ما أشار اليه صدر الآية بقوله تعالى : **(قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله)** .

الاحتمال الثـانى : أن يكونوا ممـن يعتقدون تعـدد الخالقـين ، وان لشركائهم خلقا مثل خلق الله ، وان ما خلقوه مختلط مع آثار خلق الله من غير تمييز ، وهـذا الاحتمال هو ما أشـار الـيه اخر الآية بقوله تعالى : **(أم جعلوا لله شركاء خلقـوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار)** .

أما على الاحتمال الأول فيقول الله لرسـوله فيه : قل لهم على سبيل الاستفهام لتنتزع منهم الاقـرار : من رب السماوات والأرض ؟ وبما أنهم ممن يعتقدون توحيد الربوبية وانما ينكرون توحيـد الألوهيـة فلا بد أن يقولوا فى جواب السؤال **(الله)** وهذه نقطة اتفاق بينك وبينهم مسلم بها ، فأعلنها كما يعلنونها ، وأثبتها كما يثبتونها : **(قل : الله)** أى هو الله .

---

(١) الزمر الآية ٣٨

ثم انتقل بهم من هذه النقطة المسلم بها الى النقطة الاخرى التى هى محل خلافهم وهى توحيد الالوهية ، وعند هذه انقطة لايجد الموحد كبير عناء فى اقامة الحجة على وجوب توحيد الالوهية عقلا بعد التسليم بتوحيد الربوبية ، لان من تفرد بانه هو الرب أى الخالق المنعم القادر على كل شيء ، والذى بيده النفع والضر والحياة والموت وكل من عداه مخلوقون له فلابد ان يكون هو وحده المستحق للعبادة وهو وحده الذى اذا دعى أجاب .

ومتى ازمتهم الحجة البينة حق لك ان توجه اليهم النقد اللاذع اذا اصروا على شركهم ، فقل لهم : **(افاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ؟)** وهو استفهام انكارى يتضمن الانكار الشديد عليهم فى اتخاذهم من دون الله أربابا ونصراء يعبدونهم كعبادة الله ، مع انهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ، فضلا عن ان يملكوا شيئا من ذلك لكم ، واذ وضحت الحجة ، ودمغهم البرهان ، وما زالوا يصرون على الباطل ، فاكشف لهم أن طريقة الموحدين هى طريقة العقل السديد ، والمنطق الرشيد ، والبصر النافذ الى حقائق الامور ، وهجر الظلمات والسير فى النور . أما طريقة المشركين فهى طريقة الجهل والضلالة ، والعمى الفكرى عن الحقائق وترك النور والسير فى الظلمات . وهيهات هيهات أن تستوى طريقة هؤلاء وطريقة أولئك ، ومن ثم فان يستوى هؤلاء وأولئك ، والفرق بينهما كالفرق بين الاعمى والبصير ، والفرق بين طريقتيهما كالفرق بين الظلمات والنور .

واذ كان الأمر كذلك فاضرب لهم مثلين :

احدهما : يوضح الفرق بين الموحد العالم بأصول عقيدته وبراهينها ، وبين المشرك الذى يخبط فى اخلاطه الاعتقادية على جهل .

وثانيهما : يوضح الفرق بين الحقائق الجلية التى يؤمن بها الموحدون وبين الجهالات التى تمسك بها المشركون ، فقل لهم :

(هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟) .

واما الاحتمال الثانى : وهو الذى اشارت اليه الآية بقوله تعالى : **(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟)** اى ام هم ممن جعلوا لله شركاء فى ربوبيته ، وزعموا بأن هؤلاء الشركاء قد خلقوا مثل خلق الله فاختلطت عليهم مخلوقات الله بمخلوقات الشركاء فاشتبه عليهم الأمر ، فحيرهم ، فأوقع فى انفسهم انهم قد يكونون مخلوقين من قبل هؤلاء الشركاء ، أو أن بيدهم رزقهم أو حياتهم أو أى شيء يتصل بهم مما ينفعهم او يضرهم ومن اجل ذلك عبدوهم والتجأوا اليهم بالدعاء .

فان كانوا كذلك فابدأ بهم من نقطة التوحيد الأولى ، وهى توحيد الربوبية ، فاثبت لهم ان الله خالق كل شيء ، وانه هو الواحد القهار ، الذى تنفذ مشيئته فى كل شيء بسلطان القوة والقهر ، وليس لأحد مشاركة لله فيما يقضى به او يأمر او يخلق ، فقال تعالى :

(قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) .

وقد اجمل الله لرسوله فى هذا النص نقاطا ثلاثا من الاستدلال على توحيد الربوبية فصلها وبسطها فى متفرقات من القرآن العظيم .

ولما كان الكلام هنا فى معرض الحديث عن الذين ينكرون توحيد الالوهية ويثبتون توحيد الربوبية حسن الاقتصار على الاشارة العابرة الى ادلة توحيد الربوبية الذى جاء التعرض اليه ضمن الاحتمال الثانى ، وقد جيء بالاحتمال الثانى اصلا استكمالا لأصول البحث والمناظرة .

النص

قال الله تعالى :

« أنزل من السماء ماء فسالت به أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . (١٧)

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ـ (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) :

(من السماء) : اى من جهة العلو بالنسبة الى الأرض ، والمراد السحاب .

(ماء) : اى مطرا .

(أودية) : جمع واد ، وأصل الوادى الموضع الذى يسيل فيه الماء ، ومنه سمى ما بين الجبلين واديا .

(بقدرها) : بمقدار سعتها لاستيعاب الماء ، كل بحسبه ، فالكبير بمقدار كبره والصغير بمقدار صغره . وقد أسند فعل (**سال**) الى الأودية والمراد مياه السيول فيها اشعارا بانغمار الأودية بالمياه وبشدة تدفق السيول حتى ليخيل الناظر ان الوديان ـ أى الأمكنة ـ تسيل من قوة تدفق الماء .

والمعنى : ان الواحد القهار انزل من السماء ماء غزيرا كثيرا فسالت سيول عارمة مالئة اوديتها ، كل واد منها بمقدار سعته .

٢ ـ (فاحتمل السيل زبدا رابيا) :

(احتمل) : اى تكلف الحمل اخـذا من صيغة **(افتعل)** وفى هـذا اشعار بمغالبة الماء للزبد الذى يختلط فيه ، او يقتلعه من مجراه فيحتمله ليقذفه على شاطئيه .

(زبدا) : الزبد هو ما ينفيه المـاء عن جوهـره بالحركة ويحتمله على سطحه من شوائب تنتفخ بالهـواء ، فيربو مظهرها ، وتبرق الوانها ثم تنطفىء وتظهر حقيقتها التافهة حينما يقذف بها الماء على شاطئيه .

(رابيا) : اى ناميـا زائدا ، وفى هـذا تصوير لما يحـدث فى الزبد من انتفاخ مظهره بسبب حركة الأمواج التى تقذف به لتنفيه عن الماء .

٣ ـ (ومما يوقدون عليه فى النار) :

(من) فى (مما) لابتداء الغاية أو للتبعيض اى وبعض ما يوقد الناس عليه فى النـار ، وهى المعادن واشباهها ، ويقوى معنى التبعيض ان الناس يوقدون على أشياء لا زبد لها كالطين ليصير فخارا .

وفى قوله تعالى : **(فى النار)** مع العلم بذلك من قـوله **(يوقدون)** تصوير للحاجة الى الوقود الزائد على المعادن حتى تنصهر .

٤ ـ (ابتغاء حلية او متاع زبد مثله) :

(الحلية) : اسم لكل مايتزين به من مصاغ الذهب والفضة ونحوهما ، وجمعها حلى وحلى ، بكسر الحاء وضمها مع فتح اللام .

(المتاع) : كل ما ينتفع به على اى وجه من وجوه الانتفاع ، ويقال لما ينتفع به فى البيت من آنية واوعية متاع .

والناس فى صـناعاتهم يوقدون على المعادن واشباهها ، لصهرها ابتغاء صنع ما يتزينون به أو يتمتعون به فى حاجاتهم للسلم او للحرب ، وما يصهر منها يربو عليه زبد خبيث شبيه بزبد الماء .

٥ ـ (كذلك يضرب الله الحق والباطل) :

اى مثل ذلك الذى أورده الله فى المثلين السابقين يضرب الله الأمثـال للحق والباطل .

٦ ـ (فاما الزبد فيذهب جفاء) :

(جفاء) : قال او حيان : مضمحلا اى متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له . وقال ابن الأنبـارى : متفرقا ، وقال الزمخشرى : يجفؤه السيل اى

يرمى به ، وجفأت القدر بزبدها ، واجفأ السيل . وقال ابن سيده فى معرض بيانه لكلمة جفاء : وعندى انه من النبو والتباعد .

٧ ــ (واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

اى واما ما ينفع الناس من الماء الصافى والجواهر النقية فيثبت ويبقى لينتفعوا به .

٨ ــ (كذلك يضرب الله الأمثال) :

اى مثل ذلك الذى اورده الله فى المثلين السابقين يضرب الله الأمثال لأنصار الحق وانصار الباطل .

(ب) معنى الآية (١٧) نصا واقتضاء :

وبعد ان يصل الرسول صلوات الله عليه الى نهاية مرحلة الهجوم الكلامى المهذب على باطل المشركين فان من المفروض حتما أن يجد نفسه فى مرحلة جديدة من الصراع مع المكابرين ، انها مرحلة الصراع بين حق يغالب ليظهر ويبسط فى الأرض عدله ونوره ، وباطل يدافع عن وجوده غير المشروع ، ومبطلين يصارعون الحق المبين ليحافظوا على مكاسب ظالمة ما كانوا ليصلوا اليها لولا ظلمات الباطل الذى يدعمونه ، ويعلنون أحقيته كذبا وبهتانا .

لكن هذا الصراع مهما طالت مدته فلابد ان يظهر فيه الحق على الباطل ، ويكون له الاستقرار والاستمرار فى الأرض ، وان بدا للباطل ظهور فارغ فى أول الأمر ، وانتفاخ طاف على السطح ، حتى يغتر به الجاهلون ، وينخدع بزيفه المغفلون ، الا انه لا يلبث ان يقذف به الى جوانب الحياة مهملا مستقذرا لا قيمة له .

وما مثله الا كمثل الزبد التافه يصارع المادة النافعة فى عنفوان حركتها ، فيطفو عليها مدة يسيرة ثم لا يلبث أن يذهب جفاء ، وأما المادة النافعة فانها تمكث وتستقر بثقلها ورجاحتها لينتفع بها الناس .

هذا ما صورته هذه الآية بأسلوبها البديع المفاجىء ، فبعد جو المجادلة الذى صورته الآية السابقة تأتى المفاجأة فى هذه الآية بقوله تعالى :
(انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا)
كأن السورة قد انتقلت الى موضوع آخر جديد لا صلة له البتة بما قبله ، لكنه لا يلبث هذا الانتقال فى الأسلوب المفاجىء حتى يعود الى الربط بصلب الموضوع ، ويستكمل مراحل مواجهة التحدى بين الحق والباطل ، وبين انصار الحق وجنود الباطل ، اذ يقول تعالى : **(كذلك يضرب الله الحق والباطل)** ثم يقول : **(كذلك يضرب الله الأمثال)** . .

أما موقف الصراع العنيف بين الحق والبـــاطل والمحقين والمبطلين مع بيان نتيجته فقد اورده الله فى هذه الآية على صورة مثلين ماديين مشاهدين جمعا فى صـــورة مثل واحد لتشابههما فى الشكل وفى النتيجة ، وبيانهما فيما يلى :

المثل الأول : هو مشهد من المشاهد الكونية يلاحظه الذين يعيشون فى متقلب الأحوال الجوية فى البوادى بين الســـهول والجبال والوديان ، انه مشـــهد ميـــاه غزيرة تنزل من الســـماء بقضـــاء الله فتعم السهل والوعر والجبل ، فتجتمع منحصرة بين الجبال ، هابطة من كل مرتفع حتى تملأ الأودية وتسيل فيها سيلا عنيفا مخيفا ، يخيل للناظر اليه أن الأودية تسيل أيضا مع تدفق الماء ، ويصطرع الماء فى مجراه مع اشـــواك واعواد يابســـة واكوام قمامات كان لها بروز وظهور فى الوديان وعلى السطوح وفى المرتفعات فيقتلعها ويحتملها ، فيكون لها بروز آخر على سطوح المياه لخفتها وطيشها، وترغى وتزبد فيغتر بهـــا الجاهلون ثم تســـفر المعركة عن قذف هذا الزبد الطافى ، وطرحه الى الشاطئين تافها مستقذرا ينتظر البلى ، وأما الماء الطهور الذى ينفع الناس فيمكث فى مجاريه ومساربه من الأرض .

المثل الثانى : هو مشهد آخر من المشاهد التى يلاحظها ارباب الصناعات داخل مصانعهم مهما كانوا بعيدين عن اجواء البوادى وتقلباتها الكونية ، انه مشهد المعادن واشباهها التى يصهرونها بواسطة النار التى يوقدونها عليها ، انهم يلاحظون زبدا آخـــر يطفو على سطوح منصهراتهم بعد أن يشتد صراع الغليان بين الجوهر النافع وبين الشوائب المفسدة ، أما الجاهل فربما يظن أن الزبد هو الشىء الثمين لبروزه أو لتلامع الوانه ، لكن الخبير العارف يسرع اليه فيقذف به خارجا لينقى معدنه من اخلاطه ، ويصفى جوهره من خبثه ، واما ما يمكث من دون السطح فيحتفظ به ، لأنه هو الجوهر النافع الثمين .

وكذلك مثـــل الصراع بين الحق والباطل « **كذلك يضرب الله الحق والبـــاطل** » . وكذلك مثل الصراع بين المحقين والمبطلين (**كذلك يضرب الله الأمثال**) فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

النص

قال الله تعالى :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » . (١٨)

افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟

انما يتذكر اولو الالباب (١٩) .

الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (٢٠)

والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . (٢١)

والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار . (٢٢)

جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . (٢٣)

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . (٢٤)

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . (٢٥)

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ـ (للذين استجابوا لربهم الحسنى) :

(استجابوا لربهم) أى اجابوا دعوته فيما دعاهم اليه من عقيدة وشريعة ، والاجابة تكون بحسب الطلب فاجابة طلب القول تكون بالقول واجابه طلب الفعل تكون بالفعل وهكذا .

تقول لغة : استجاب له واستجابه بمعنى اجابه فيما طلب منه والغالب فى صيغة (استفعل) أن تكون للطلب والسؤال كاستغفر الله اى طلب من الله المغفرة ، وقد تخرج عن معنى الطلب كما فى استحجر الطين اى صار حجرا ، وكما فى فعل استجاب بمعنى اجاب ، ويحتمل ان يقال ان الأصل فى معنى استجاب طلب الاجابة من نفسه ، أى رغب بها واتجه اليها فهو يطالب نفسه دائما بالقيام بالأعمال التى تجعله مجيبا دعوة ربه حقا ففيه على هذا معنى مجاهدة النفس باستمرار لتلبية دعوة الله الى الايمان والعمل الصالح

(الحسنى) : مؤنث أحسن (افعل تفضيل) وهى صفة لموصوف محذوف للايجاز وليذهب الذهن فى تقديره كل مذهب كريم ، والحسنى هى المثوبة الحسنى التى هى أحسن ما يوصف بالحسن ، وتكون مثوبة المستجيبين لربهم معجلة فى الدنيا ومؤجلة الى ما بعد الموت ، والمؤجل منها قسم منه يكون فى البرزخ ، وقسم آخر منه يكون فى موقف العرض

والحساب والقسم الأخير الأكمل يكون فى الجنة ، وأقسام المثوبة كلها تدخل فى عموم قوله تعالى : **(للذين استجابوا لربهم الحسنى)** .

والمعنى ان الله اعد المثوبة الحسنى للذين استجابوا لربهم فيما دعاهم اليه من عقيدة وشريعة .

٢ ـ (والذين لم يستجيبوا له لو ان لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به . أولئك لهم سوء الحساب وماواهم جهنم وبئس المهاد) .

(والذين لم يستجيبوا له) : هم الكافرون الذين استنكفوا عن ان يجيبوا دعوة ربهم الى الايمان وصالح العمل .

(لو ان لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به) : اى لو كانوا يملكون جميع ما فى الأرض ومثله معه لبذلوه فداء أنفسهم مما تستحق من عذاب الله وذلك حينما تنكشف عنهم حجب الحياة الدنيا ويشهدون ما أعد الله لهم من جزاء على كفرهم .

يقال لغة : فديته وفاديته وافتديته بكذا اى بذلت هذا الشيء لتدفع او لترفع عنه نائبة ملمة ولتحميه منها بما بذلت من نفس او مال او اى شيء آخر .

وما قيمة امتلاك الدنيا وأمثالها معها اذا خسر الانسان نفسه فمسه العذاب ، انه لو كان يملك ذلك لبذله فداء نفسه من عذاب الله فى جزائه العادل ، لكنه لا يملك شيئا ، ولو كان يملك لم ينفعه البذل يومئذ ، فقد انتهى دور الابتلاء وجاء دور الجزاء ، ويظهر أن هذه الحالة وما يرافقها من حسرة وندامة تبدأ منذ اللحظات الأولى لموته وانتقاله من الحياة الدنيا الى البرزخ ، اذ يمسه عذاب البرزخ ، وينكشف له مستقره فى النار ، ويكون هذا فى المرحلة الأولى من مراحل العذاب .

(اولئك لهم سوء الحساب) : اى سوء من الحساب باعتبار الاضافة على تقدير **(من)** أو الحساب السيىء على اضافة الصفة الى الموصوف ، والأصل الحساب السوء اى السيىء . والحساب السيىء يكون بالمناقشة والتدقيق على كل صغيرة وكبيرة ، لانهم بكفرهم لا يستحقون الغفران والتجاوز عن السيئات ويكون هذا فى المرحلة الثانية من مراحل العذاب .

(وماواهم جهنم وبئس المهاد) : وهذا فى المرحلة الأخيرة من مراحل العذاب .

(ماواهم) : اى المكان الذى يأوون اليه يوم القيامة فهو اسم مكان من اوى ، تقول : اوى الى كذا يأوى أويا ومأوى . اى انضم اليه .

(جهنم) : اسم علم من أسماء النار التى اعدها الله ليعـذب بها الكافرين والعصاة ، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . ويقال للقعر البعيـد جهنم وجهنام وبئر جهنم وجهنام بكسر الجيم والهاء وتشديد النون أى بعيدة القعـر .

وبعض اللغويين يرون لفظ جهنم اعجميا . فقيل : فارسى معرب ، وقيل : عبرى وأصله بالعبرانية كهنام ، وعلى هـذا فالمانع له من الصرف العلميـة والعجمـة .

(بئس) : فعل جامد لانشاء الذم وهو منقول للدلالة على معنى الذم من بئس بفتح الباء وكسر الهمزة اذا أصاب بؤسا .

(المهـاد) : المكان الممهد الموطأ . واطلق على مكانهم فى جهنم مهاد على سبيل التهكم ، لأن الشىء الممهد المفروش لهم فى النـار انما هو العـذاب الشديد ؛ وليس هذا من التمهيد ولا التوطئة ؛ ولكنه عكس ذلك .

(المهـاد) : المكان .

والمعنى : والذين كفروا اذ لم يستجيبوا لربهم سيشهدون عـذابا حالهم فيـه كما يلى :

أولا : لو كانوا يملكون ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتـدوا به ؛ أى : لقدموه فداء أنفسهم مما استحقت من عقاب ؛ ويبدأ هـذا منـذ بدء فترة البرزخ بين الموت والبعث . اذ يشهدون فيهـا مصيرهم ، وينالون فيها من العذاب ما الله به عليم .

ثانيا : أولئك لهم سوء الحساب . اذ يحاسبون يوم القيامة حسابا سيئا شديدا عسيرا .

ثالثا : ومأواهم جهنم وبئس المهاد . اذ يكون فيهـا مستقرهم الأخير ، فيأوون اليها قهرا وقسرا ؛ ويستقرون منهـا فى مكان قد هيىء لعذابهم ، وبئس المهاد الذى اعد لهم ليأووا اليه مهادهم فى دار العذاب .

٣ ــ (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟) :

أى : **(أفمن يعـلم أنما أنزل اليك من ربك الحق)** وهو المؤمن المستجيب لدعوة ربه الذى عمل بمقتضى علمه فآمن بالله وبالرسول وبأن ما أنزل اليه من ربه هو الحق الذى لا ريب فيه **(كمن هو اعمى)** وهو الكافر غير المستجيب لربه ، فهو منطمس البصيرة لا لب له كالأعمى ؛ لأنه باستنكافه عن التأمل فى

دلائل الحق قد عطل اداة البصيرة فيه ، وهو عقله ، فكان هو وفاقدها سواء ، أو باستنكافه عن الاستجابة لدعوة الحق بعد معرفته قد اخل بمقتضى علمه فكان هو والجاهل سواء ، ثم هو في هذه الحالة وفاقد البصيرة سواء ، وعلى كل حال فاقل ما يمكن ان يشبه به انه كالاعمى ، بل هو الاحق بهذا الوصف لانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

٤ ــ (انما يتذكر اولوا الألباب) :

(يتذكر) : التـــذكر هو استحضـــار المعلومات السابقة فى القوة الذاكرة للانســـــان .

(الألباب) : جمع مفرد لب ، ولب الانسان عقله ، ولب كل شيء خالصه وخيـاره المتغلغل فىداخله ، ومنه سميت القــوة العاقلة المتبصرة بالامور والباحثة عن الحقائق والمتذكرة للمعارف لبا .

ويظهر لى ان ايراد معنى التذكر هنا دون مطلق العلم والمعرفة ــ فى صدد الكلام على نفى التسوية بين من يعلم أن ما انزل الى الرسول من ربه الحق ومن لا يعلم ذلك فهو بسبب جهـــله او عـــدم استجابته كالاعمى ــ لا بد ان يكون للدلالة على امر زائد على مجرد العلم المؤدى الى الاستجابة والتطبيق : فما هو هذا الأمر الزائد ؟ هناك احتمالان :

الاحتمـــال الاول : ان نقول : ان ما اودع الله فى العقول من اصول ثابتة توزن بها الأشياء الفكرية ، فتميز بها بين الحق والباطل فاذا عرضت عليهـــا قضية من القضايا العقلية وازنتها بهذه الاصول الثابتة فاقرتها او رفضتها او وضعتها فى مجال متابعة البحث العلمى ، وما تتوصل اليـــه من معرفة جديدة بعد هذه الموازنة هو بمثابة تذكر الامور المنسية التى سبق العلم بهـا ، وذلك لانكشاف الملاءمة بين الحقيقة المعروضة وبين الأصول الثابتة فى العقل ، وانما يتذكر هذا التذكر أولو الألباب .

الاحتمال الثانى : ان نقول ان العهد الذى اخذه الله على عباده وهم فى عالم الذر ، وهو العـــــالم الروحى الأول قبل ايجادهم فى هـــذا التكوين البشرى المهيئين فيه للابتلاء فى الحياة الدنيا اذ قال لهم يومئذ : **(الست بربكم ؟ قالوا بلى)** كان له أصول فطرية وعلمية ثابتة فى أرواح النـــــاس والبابهم الموغلة فى أغوار بواطنهم ، التى لا يتذكرون صورها فى عقولهم الظاهرة ، وما انزل على الرسول من الحق انما هو صورة لذلك العهد القديم الذى اخـــــذه الله عليهم لقد نسوه ، ولكن بقيت فى البابهم اصوله الفطرية والعلميـــــة الثابتـــة فهم لا يستطيعون أن يتذكروا كيف أخذ عليهم العهد ، ولكنهم اذا عرض عليهم الحق

استطاعوا أن يتذكروا أنه حق ، فهو جزء مما فطرت عليــه عقولهم والبابهم ، وما أكثر ما مرت علينا فى حياتنا منذ طفولتنــا حوادث لا نستطيع ان نذكرها مهما ذكرنا بها ، ولكنها خلفت فينا اصولا فكرية ثابتة نستفيد منها فى كثير من اعمالنا الارادية ، وغير الارادية ، واشارة الى ذلك قال تعالى : **(انما يتذكر اولو الألباب)** اى انما يتذكر هذا التــذكر اصحاب العقول المبصرة والقلوب الواعيــة .

٥ ـ (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) :

(يوفون) : من أوفى الرباعى ، ويقال لغة أيضا : وفى يفى وفاء فهو واف ، والوفاء بالشىء اتمامه بلا نقص ، ومنه الوفاء بالعهد ، أى اتمام ما كان عليــه العهد دون انقاص منه او اخلال به واوفى الكيل اذا اتمــه .

(بعهد الله) : العهد يطلق لغة على الوصية ، يقال : عهــد فلان الى فلان فى كذا ، أى أوصاه به ، ويطلق على ما يلتزم المرء فعله نحو غيره التزاما مؤكدا ويطلق على الميثــاق واليمين التى تستوثق بها ممن يعاهدك . وعهـــد الله : وصاياه التى أوصانا بها فى شريعته من عقيدة أو خلق أو قول أو عمل ، والوفاء بها اتمام فعل ما أمرنا به واجتنـــاب ما نهانا عنــه ، والاضافة على هذا من اضافة المصدر الى فاعله .

او عهد الله : ما التزمه المؤمنون على انفسهم لله من الايمــان والطاعة حين اعلنوا اسلامهم ونطقوا بالشهادتين ، أو ما اقر به العباد وهم فى عالم الذر اذ قال الله لهم : **(ألست بربكم؟ قالوا بلى)** (١) . فقد اخذ بذلك عليهم العهد أن يؤمنوا به ويسلموا له ، والاضافة على هــذين الوجهين فى معنى عهد لله من عباده ، ففاعل العهد هم الناس ، والموجه له العهــد هو الله جل وعلا ، وهو الذى يثيب على الوفاء به ويعاقب على نقضه او الاخلال به .

وهذا أول سلوك عملى رفيع يتحلى به المؤمنون الذين جاء وصفهم فى الآية السابقة بأنهم أولو الالباب ، فهم يوفون بعهد الله فيتمون فعل ما أوصاهم به الله من أوامر ، ويتمون اجتناب ما نهاهم عنــه من نواه ويتمون ما عاهدوا الله عليه من الالتزام بحق الربوبية وحق الألوهية عليهم .

(ولا ينقضون الميثاق) : النقض ضد الابرام يقال : نقض البنــاء اذا نثر عقده ، ونقض الحبل اذا حله ، ونقض العقد اذا نثر حباته .

---

(١) الاعراف الآية ١٧٢

(**الميثاق**) : على وزن (**مفعال**) العقد المؤكد بيمين وعهد ، وهو مأخوذ من الوثاق ، وهو فى الأصل حبل او قيد يشد به الأسير قال تعالى : (**فشـــدوا الوثائق** (١)) .

والمعنى : ولا ينقضون اى ميثاق يعطونه لأحد ، وهذه من الخصـال الحميدة التى يتحلى بها المؤمنون الذين جاء وصفهم فى الآية السابقة بأنهم أولو الألباب .

٦ ـ (**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**) :

(**يصلون**) : الوصل ضد القطع والفصل ، ويستعمل فى الأشياء المادية ، فتقول : وصلت الشىء بالشىء اذا جمعته به وضممته اليه حتى اتحـدا ، ويستعمل فى المعانى ، فتقول : وصلنى فلان اذا زارك أو قدم اليك معروفا ، أو أهدى اليك هدية ، أو أعطاك عطاء ، أو نحو ذلك .

وما أمر الله به أن يوصل أمور كثيرة ، فمنها ما يلى :

(أ) « **صلة الرحم** » : وفى الحديث النبوى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : (**الرحم متعلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله**) .

(ب) (**صلة الاخوان فى الله**) : ويدخل فيها التزاور والتهادى وعيادة المريض والمساعدة بالقرض الحسن ، والمواساة بالنفس او بالمـال والبشر والبشاشة ، والبدء بالسلام والتعاون على الخير . وحسن المعاشرة والمصاحبة، والاكرام بأنواع الصلات المادية ابتغاء وجه الله ، وتمكين أواصر الحب فى الله كما يدخل فيها النصيحة والتعليم والارشاد ، وكل ما فيه نفع وخير .

(جـ) « **صلة كل مسلم** » ويدخل فيها اكرام الضيف ، وحسن الجوار . وحسن المعاملة . ولين الجانب ، وبذل المعونات لكل ذى حاجة ، والسـلام على من عرفت ومن لم تعرف ، ورد التحية بأحسن منها ، وبذل الجاه فى وساطة مشروعة او شفاعة مأذون بهـا فى الدين ، ودفع الأذى والضر عنه ومساعدته فى كل بر .

(د) « **صـلة كل ذى روح** » : ويدخل فيها الرفق بالحيوان ، واكرامه واطعامه وسقيه ، ودفع الأذى عنه ، وعدم تكليفه مالا يطيق ، وحسن معاملته. وهكذا المؤمنون أولو الألباب لا يجدون بابا من أبواب الخير الا ويدخلونه ولا

---

(١) محمد الآية ٤

منقطعا أمر الله بأن يوصل الا ويصلونه ، وفى هـذا الوصف تمكين لوحدة الجماعة . ولأواصر الاخاء والمحبة ، كما انه ينم عن خلق رفيع ، متمتع بغيرية سامية تحب الخير لكل من خلق الله ولكل ما خلق ، ولذ لهـا أن تبذل المعونة والمساعدة لذوى الحاجات .

٧ ـ **(ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) :**

(يخشون) : الخشية خوف يشوبه غالبا تعظيم واجلال وحب وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه ، ولذلك خص العلماء بها فى قوله تعـالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) .

والمؤمنون أولو الألباب يخشون ربهم فى جميع أحوالهم وباستمرار ، وذلك لعلمهم بجلال ذاته . وعظيم صفاته : فهم يعظمونه ويحبونه ويخافون قدرته وقهره وعقابه .

(ويخافون سوء الحساب) : أى ويخافون أن يحاسبوا يوم القيامة حسابا سيئا : وذلك بأن يناقشوا على كل صغيرة وكبيرة ، وفى الحديث الصحيح : **(من نوقش الحساب عذب)** فهم يخافون من الأعمال التى تؤدى بهم الى سوء الحساب ، لذلك فهم يبتعدون عنها ويتجنبونها ، ومن خاف من شىء ابتعد عنه ، ومن خاف نتيجة ابتعد عن أسبابها .

ولما كان المؤمنون أولو الألباب يعلمون من مقتضى عـدل الله أن سـوء الحساب لا يكون الا مسببا عن سوء اعمال يقترفها المذنبون ، فانهم يخافون باستمرار من الأسباب مثل خوفهم من المسبباب ، لذلك فهم يبتعدون عنها ويتجنبونها دائما ، ويحاسبون انفسهم على أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يحاسبوا عليها يوم الدين .

٨ ـ **(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) :**

(صبروا) : الصبر حبس النفس وامساكها على امر فى فعله مشقة على النفس أو عن امر فى تركه مشقة عليها ، فحبس النفس على تحمل المصيبة صبر يضاده الجزع . وحبس النفس على تحمل مقاتلة العدو شجاعة يضادها الجبن : وحبس النفس على متابعة العمل داب يضاده الكسل والملل ، وحبس النفس عن تلبية شهواتها المحظورة صبر عن المعاصى ، وحبس النفس على القيام بمشقات الأعمال المبرورة صبر على الطاعات ، وحبس النفس على الرضا بما يجرى بقضاء الله وعن الضجر والتسخط عليه صبر على المصائب ، وفى كل ذلك أجر عظيم اذا كان الصبر ابتغاء وجه الله ، أى ابتغاء الوجه الذى يرضى الله والجهة التى فيها طاعته .

ومن صفات المؤمنين أولى الألباب أنهم يصبرون فى كل أمرهم ابتغاء وجه ربهم ..

وقد استعمل الفعل الماضى فى قوله تعالى : (**صبروا**) اشارة الى أنهم قد امتحنوا بما يتطلب منهم الصبر فأثبتوا أنهم صابرون ، وذلك اذ امتحنوا بالجهاد فى سبيل الله فصبروا ، وامتحنوا بالفروض والواجبات فصبروا على أدائها ، وامتحنوا بالنهى عن المحرمات فصبروا عنها .

٩ ـ (واقاموا الصــلاة) :

(**أقاموا**) : يقال لغة : أقام الشيء اقامة اذا أدامه وواظب عليه ، ويقال أيضا : أقام الشيء اقامة بمعنى جعله مستقيما معتدلا مستويا .

(**الصلاة**) : لغة هى من الله لعباده الرحمة ومن النـاس والملائكة الدعاء والاستغفار . وشرعا هى العبادة المخصوصة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم التى تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم و (ال) فى الصلاة للعهد ؛ أى الصلاة المعهودة شرعا بأركانها وشروطها وسننها وآدابها .

ومعنى أقاموا الصلاة : واظبوا عليها وأدوها بشروطها وأركانها وسننها وآدابها مع الخشوع والمراقبة لله المطلوبين فيها ، فان اقامتها أى جعلها مستقيمة معتدلة لا تتم الا بذلك .

واستعمل الفعل الماضى فى (**أقاموا الصلاة**) للدلالة على ما تحقق من حال هؤلاء المؤمنين أولى الألباب من اقامة للصلاة التى هى عماد الدين ، وركنه الركين ، الذى لا يفارق حال المؤمن مبتدئا من الماضى ومستمرا مع الزمن .

١٠ ـ (وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) :

(**أنفقوا**) : أى بذلوا أموالهم فى وجوه البـر التى حث الله على البذل فى سبيلها ، والانفاق فى وجوه البر يكون واجبا كالزكاة ، وكالنفقة الواجبة ، ويكون تطوعا كالصدقات العامة والهدايا .

(**مما رزقناهم**) : أى مما أعطيناهم وهيأنا لهم فى الأرض من مال ومتاع ، ومن صفات هؤلاء المؤمنين أولى الألباب أنهم ينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ، ويكون الانفاق سرا اذا كانت الصدقة من قبيل صدقة التطوع ، أو كان يدفع زكاته الى الفقراء مباشرة ، ويكون السر فى هذا أفضل من العلانية لأنه أقرب الى الاخلاص وأبعد عن الرياء ، ولأن فيه صيانة لكرامة الفقراء الذين يؤذيهم الاعلان فيها ، وقد جاء فى الحديث أن صدقة السر تطفيء غضب الرب ، ولعل فى تقديم لفظ (سرا) على (علانية) اشارة الى أفضلية الاسرار وان كانت الواو لمطلق الجمع كما يقرر ذلك علماء العربية . ويكون الانفاق علانية اذا كان

المنفق يدفع زكاته الى جابى الزكاة المفوض بجبايتها من قبل أولى الأمر ، أو الى جهة عامة تتولى هى توزيع أموال الزكاة على المستحقين .

والنكتة فى استعمال الفعل الماضى فى **(وأنفقوا مما رزقناهم)** مثلها فى قوله تعالى : **(وأقاموا الصلاة)** كما سبق بيانه ، وذلك لأن ركن الزكاة مقارن فى الاسلام لركن الصلاة لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر .

١١ ــ **(ويدرءون بالحسنة السيئة)** .

(يدرءون) أى يدفعون ، يقال لغة : دراه يدرؤه درءا ودراه اذا دفعه .

والمعنى يدفعون بفعل الخصلة الحسنة أثر الخصلة السيئة ، ويدخل فى عموم هذا أمور منها ما يلى :

(أ) أن يبادروا الى التوبة وفعل الطاعات اذا فرط منهم معصية ، ففى حديث معاذ بن جبل قوله صلى الله عليه وسلم : **(وأتبع الحسنة السيئة تمحها)** ويقول الله تعالى : **(ان الحسنات يذهبن السيئات)** (١) .

(ب) ان يدفعوا السيئة التى يخشونها من الناس بالاحسان اليهم كان يدفعوا الجهل بالحلم ، والأذى بالصبر والعفو ، وفى هذا يقول الله تعالى : **(ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)** (٢) .

(جـ) أن يدفعوا السيئة التى يخشونها من الشياطين ومن كل ذى شر بحسنة الاستعاذة بالله وصدق الالتجاء اليه والاتكال عليه .

(د) أن يدفعوا المصائب والبلايا والعقوبات الربانية عن أنفسهم بما يقدمونه من صدقات وخيرات وأعمال بر .

(هـ) أن يدفعوا المنكر الذى يشاهدونه بالنهى عنه بالحكمة والموعظة الحسنة .

١٢ ــ **(أولئك لهم عقبى الدار)** :

(العقبى) : مصدر كالعاقبة ، والعقبى أيضا الجزاء على الفعل وسمى الجزاء عقبى لأنه يكون عقب الفعل .

(الدار) : المراد منها دار الدنيا ، وعاقبة الدار الدنيا بالنسبة الى المحسنين هى الجنة التى جاء بيانها فى صدر الآية التالية ، والاضافة فى : **(عقبى الدار)** على هذا المعنى على تقدير اللام أى عقبى للدار الدنيا ويجوز أن يكون المراد من الدار الجنة فتكون الاضافة فى : **(عقبى الدار)** اما على تقدير (فى) أى عقبى

---

(١) هود الآية ١١٤

(٢) فصلت الآية ٣٤ ، ٣٥

فى الدار وهى الجنة ، والعقبى فيها ما أعده الله فيها من نعيم مقيم ، واما على تقدير (**من**) اى عقبى من الدار وهى الجنة ، واما على أن الاضافة لفظية من باب اضافة المصدر الى فاعله ، والمعنى : أولئك لهم ان تعقب الدار التى هى الجنة ما قدموه من صالح فى الدنيا .

هذا : ويظهر لى أن المراد بعقبى الدار مراتب عالية فى الجنة متنوعة النعيم والتكريم ، وهى فى امكنة تأتى عقب الأمكنة الأولى التى تكون فى أول دخول الجنة ، وكل مرتبة من هذه المراتب المتنوعة تسمى جنة ، ولذلك بين جل وعلا المراد من عقبى الدار بقوله تعالى عقب ذلك (**جنات عدن**) وفى خاتمة بيان صفات المؤمنين الذين بدأ الكلام عليهم بأنهم أولو الألباب أثبت الله جل شأنه ما أعد لهم من عاقبة كريمة فى الدار الآخرة والمح علو منزلتهم اذ اشار اليهم باشارة البعيد فقال تعالى : (**أولئك لهم عقبى الدار**) ثم بين هـذه العاقبة الكريمة بقوله تعالى :

٢٣ ــ (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) :

(**جنات**) : جمع جنة ، والجنة مكان النعيم الذى اعده الله لثواب المحسنين فى الدار الآخرة ، وقد جمعت الجنة هنا على جنات اشارة الى اقسام ومراتب داخل الجنة وان كل قسم منها وكل مرتبة يسـمى جنة أيضـا ، وقد جاء فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم لاحـدى الصـحابيات : انها ليست بجنة ولكنها جنان .

(**عـدن**) : أى استقرار وثبات وخلود ، يقال عدن بمكان كذا عدنا اذا أقام به واستقر فيه .

(**يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم**) : أى هـذه الجنات ذات المراتب العالية داخل دار النعيم فى الآخـرة يدخلهـا هؤلاء المؤمنون أولو الألباب الذين سلفت صفاتهم ويدخلها معهم الحاقا بهم واكراما لهم من صلح من آبائهم ، والمراد بذلك ما يشمل أمهاتهم أيضا ، ومن صلح من أزواجهم ، ومن صلح مـن ذرياتهم ، وذلك ليتم لهم السرور بالاجتمـاع بأهلهم فى دار النعيم ، ولكن الشرط فى دخول هؤلاء هذه الجنات العاليات ذات المراتب الرفيعة داخل الجنة أن يكونوا ممن صلحوا فى الدنيا نوع صلاح اذ آمنوا بالله وبما جاء من عنده فاستحقوا بايمانهم دخول الجنة ، ثم انهم ترفع منزلتهم داخل الجنة اكراما من الله لأقربائهم المحسنين أولى الألباب ، ليأنسوا بلقائهم ، ويكمل بهم نعيمهم

وهذا نوع من الشفاعة فى الدار الآخرة للمحسنين اذ يكون به رفع الدرجات فى منازل النعيم لذوى قرابتهم ويشهد لهذا المعنى قول الرسول صلوات الله عليه لأحد أصحابه وقد احزنه أن لا يكون مع الرسول فى الجنة لبعد المرتبة بينهما اذ قال له الرسول : **(المرء مع من احب)** .

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) : أى وملائكة التكريم يدخلون عليهم من كل باب من أبواب هذه الجنات او من ابواب قصورهم فيها وهم يقولون لهم : **(سلام عليكم بما صبرتم)** اى بسبب صبركم أو بدل صبركم الذى صبرتموه عن الشهوات التى فيها معصية الله ، وعلى الطاعات وفعل الخيرات والجهاد فى سبيل الله ، وعلى قضاء الله وقدره فيما ابتلاكم به من مصائب وملمات ؛ فنعم عقبى الدار هذه العقبى التى نلتموها وفزتم بها بالنعيم المقيم .

ومعنى الباء فى : **(بما صبرتم)** ، بسبب ما صبرتم أو بدل وعوض ماصبرتم ، وعندى أن البدلية فى مثل هذا المقام تحمل معنى الجزاء لأن الجزاء من الله بدخول الجنة انما يكون بالفضل لا بالبدلية ، ففى الحديث يقول الرســـول صلى الله عليه وسلم : **(لن يدخل احدكم عمله الجنة)** قالوا ولا انت يا رسول الله ، قال : **(ولا انا الا ان يتغمدنى الله برحمته)** .

١٤ ـ (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)

وفى مقابل اولى الألباب المؤمنين الذين سبق بيان صفاتهم يأتى الكافرون الذين عطلوا البابهم عن وظيفتها الأساسية فلم تعقلهم عن الفساد والشر ، ولم تدفعهم الى الاعتراف لله بكمال ربوبيته وألوهيته ، فكانوا بمثابة من لا ألباب لهم ، وقد جاء الكلام على هؤلاء ببيان صفاتهم مقابل صفات أولئك .

(أ) فاذ كان المؤمنون أولو الألباب يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق فان هؤلاء الكافرين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فهم يجحدون بالله ويستنكفون عن عبادته ويعصونه فيما أمرهم به ونهاهم عنه .

(ب) واذ كان المؤمنون أولو الألباب يصلون ما أمر الله به أن يوصل فان هؤلاء الكافرين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل فيجافون كل خير وبر وفضيلة .

(جـ) واذ كان المؤمنون أولو الألباب يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ويصبرون ابتغاء وجه الله ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ، فان هؤلاء الكافرين يفسدون فى

الأرض فى مقابل كل تلك الفضائل التى يفعلها المؤمنون والتى فيها صلاح واصلاح فى الأرض ، فهم لا يخشون الله ولا يخافون سوء الحساب ، من أين يأتيهم ذلك وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وهم لا يصـــبرون ابتغاء وجه الله ولا يقيمون الصـــلاة لأنهم دنياويون لا يرقبون ثوابا منه ولا يتوقعون عقابا .

وهم لا ينفقون اموالهم فى ســـبيل الله لانهم اشحاء انانيون لا يتحســـون الا بمطالب انفســـهم .

وهم لا يدرءون بالحسنة السيئة بل يبدءون بالسيئة كلما وجدوا فى ذلك مصلحة لهم ، مهما يكن فيه ضرر بغيرهم وافساد فى الأرض ، لذلك فلا بد أن يكون جزاؤهم من الله أمرين :

١ ــ اللعنة : وهى الطرد من رحمة الله .

٢ ــ سوء الدار : واذ كانت عقبى الدار الحسنة للمؤمنين هى الجنـــة ، فلا بد ان يكون فى مقابل ذلك ســـوء الدار للكافرين النـــار ، وهى دار العذاب التى أعدها الله لعقاب الكافرين والعاصين أعاذنا الله منهـــا ومن كل ســـــوء .

(ب) معنى الآية (١٨ ــ ٢٥) نصا واقتضاء :

وبعـــد أن وصل الصراع بين المحقين والمبطلين الى قمته ، وهو ما صوره المثلان اللذان عرضتهما الآية السابقة (١٧) وانتهت السورة بانتصار الحق ودعاته على الباطل وجنـــوده فى بدافع المستقبل القريب تطلب سياق البيـــان الرفيع فى السورة أن يزاح الستار عن المستقبل البعيد لمشاهدة عاقبـــة أهل الباطل ، وعاقبة أهل الحق فى الدار الآخرة بارزا فيها فضل الله وعدله ، مع بيان الأسباب التى دعت ان يمنح الله فضله طائفـــة من عباده فيجعلهم من أهل الجنة والكرامة ، وأن يوقع عقابه فى طائفة اخرى من عباده فيجعلهم فى العذاب خالدين ، فقال تعالى : **(للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)** . وقد أبان جل وعلا بهذه الآية العاقبة الحسنى فى الدار الآخرة التى ينالها المستجيبون لدعوة ربهم وهم المؤمنون ، والعاقبـــة السيئة التى يرتطم بهـــا الذين لم يستجيبوا له وهم الكافرون الذين صارعوا الحق واهله ، وتتجلى العاقبـــة الســـيئة لهؤلاء فى ثلاث مراحل من مراحل العـــذاب :

المرحلة الأولى : مرحلة ما بعد الموت وهى فترة البرزخ الواقعـــة ما بين الموت الى البعث ، وفى هذه المرحلة يشهدون من العذاب النازل بهم والعذاب، الذى ينتظرهم ما تبلغ حالهم معه لو أن لهم ما فى الارض جميعا ومثله معـــه لافتدوا به ، كيف لا تكون حالهم كذلك ؟ وقد خسروا كل شىء حتى انفسهم ، وما قيمة كل شىء يملكه الانسان اذا كان قد خسر نفسه ورماها فى العذاب ؟

المرحلة الثانية : مرحلة يوم الحساب ، وتكون هذه المرحـلة بعد البعث وقبل دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، وفى هذه المرحـــلة يشهدون اونا قاسيا من ألوان العذاب ، الا وهو **(سوء الحساب)** اذ يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة ، وكل جزئية وكلية كانت قد سلفت منهم فى الحيـــاة الدنيـــــا .

المرحلة الثالثة : وهى مرحـــلة المأوى الأخـــير بعـــد موقف الحســـاب والجزاء ، اذ يكبهم الله فى جهنم ، ويجعلهـــا مأواهم ومستقرهم وفراشهم الممهد لهم بألوان العـــذاب المادى والمعنوى ، وبئس المهـــاد مهادهم الذى يفترشونه ويستقرون فيه **(ومأواهم جهنم وبئس المهاد)** .

وقد رأينا فى هذه الآية مجمل ما يلاقيه المؤمنون من جزاء حسن وذلك فى قوله تعالى : **(الحسنى)** كما رأينا نبـــذة من تفصـــل ما يلاقيـــه الكافرون من جزاء سيىء ، وذلك فى قوله تعالى :

١ ــ **(لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به)** .

٢ ــ **(أولئك لهـــم ســـوء الحســـاب)** .

٣ ــ **(ومأواهم جهنم وبئس المهـــاد)** .

ولكن البيان الرفيع يستدعى الكشف عن هـــذا التفريق فى نوعى الجـــزاء طبق قانونى الفضل والعدل الربانيين كما يستدعى تفصيل ما حصل الاجمال فيه بهذه الآية ، والختم باجمال ما جاء فيه تفصيل ، استكمالا لأسلوب تقابل الأضداد ، واحتباك المعانى . ولذلك اتبعت هذه الآية ببيان السبب الداعى الى كون العاقبة الحسنى فى الآخرة هى جزاء المؤمنين ، والعاقبـــة السوأى فى الآخرة هى جزاء الكافرين ، فقال تعالى : **(افمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟)** اى : كيف لا يستدعى العدل هذا التفريق فى الجـــزاء يوم الدين ؟ والمؤمن قد استعمل ما وهبه الله من عقل وبصيرة بالأمور فبحث وناقش وعلم ان ما انزل اليك من ربك الحق ، والكافر قد عطل ما وهبه الله من عقل أو كابر فجحد بعـــد ما علمه فكان ادنى منزلة من الجاهل الذى عطل

عقله ، وهو في كلتا حالتيه كالاعمى ، بل هو جـدير حقـا بأن يطلق عليه أنه اعمى ، سواء عطل قوة بصيرته فاستمر في الجهـالة أو كابر عن معرفة فكان اسوأ حالا من الجاهلين .

وفي قوله تعالى : **(افمن يعلم انمـــا انزل اليك من ربك الحـق كمن هو اعمى ؟)** ربط بين مع ما بدات به السورة اذ قال تعالى في مطلعها : **(تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لا يؤمنون)** .

ثم فصل سبحانه وتعالى في الآيات التاليـــة واقع حال كل من المؤمنين والكافرين ببيان صفات الأولين التى رفعت منزلتهم ، وجعلتهم اهــلا للجزاء بموجب قانون الفضل الالهى . وببيـــان صفات الآخرين التى حطت منزلتهم وجعلتهم يستحقون الجزاء بموجب قانون العـــدل الالهى فقال تعـــالى : **(انما يتذكر اولو الالباب)** أى لا يتذكر تذكرا مؤديا للعظة الا أصحاب العقول الكاملة الذين يعرضون كل امر على ما اودع الله في عقولهم من أصول ثابتـــة تعرف بها حقـائق الأشـياء ، فيميزون بهـا بين الحق والبـاطل والخير والشر ، وبخاصة حينما تأتيهم بيانات الشريعة بأحكامهـــا ، فتكشف لهم ما كانوا عنه غافلين ولأصوله ناسـين .

أما صفات أولى الألبـاب الذين يستعملون ألبابهم فيما خلقت له فهـــذا اجمالها وتتلخص في تسع صفات :

الأولى : **(الذين يوفون بعهـد الله)** فيؤمنون به ، وينفـــذون وصاياه المبينة في شريعته لعباده ؛ ويلتزمون بتطبيق ما عاهدوا الله عليـــه من ايمـــان وعمل صالح ، لأنهم أولو الباب كاملة يتبصرون بحقائق الأمور وبواطنها .

الثانية : **(ولا ينقضون الميثاق)** أى ميثاق يعطونه لأحد سواء أكان مع الله أو مع عباده لأنهم مؤمنون أولو الباب كاملة ، ومن كان كذلك كان عارفا بالله فهو يخشـــاه ؛ فلا ينقض ميثاقا أمره الله بالوفاء به ؛ وفي هذا الوصف تعميم بعد تخصيص .

الثالثة : **(والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل)** فهم ابرار لا يجـدون منقطعـا أمر الله بأن يوصل الا وصلوه ، ولا يجـــدون بابا من أبواب الخـير الا دخلوه ، وهم انما يعملون الخير ابتغاء مرضاة الله ، وعملا بأوامره ، فيصلون بأنواع الصلات المـــادية والمعنوية الرحم والاخوان في الله وســـائر المسلمين وجميع ما خلق الله من انسان ودابة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ويفهم من قوله : (**ما أمر الله به أن يوصل**) ان ما امر الله به أن لا يوصل فانهم يقطعونه ولا يصلونه ، لذلك فهم يحبون فى الله ويبغضون فى الله ، ويسالمون ما أمرهم الله بالسلم ، ويحاربون ما امرهم الله بالحرب ، ويوادون من امر الله بموادتهم ، ويهجرون من أمر الله بمقاطعتهم وهجرهم ، لا تأخذهم فى شىء من ذلك لومة لائم ، ولا يمنعهم عن شىء منه عتب عاتب .

الرابعة : (**ويخشون ربهم**) فهم يعرفون الله فيعظمونه ويحبونه ويرهبون جانب عدله فلا يتجاوزون حدوده .

الخامسة : (**ويخافون سوء الحساب**) لانهم يؤمنون باليوم الآخر وما فيه والايمان باليوم الآخر من اهم الأمور التى تقوم سلوك الانسان فى الحياة ، لذلك فهم يراقبون ذلك اليوم فيخشون ان يتعرضوا الى سوء الحساب اذا اساءوا فى أعمالهم ، وأفسدوا وعصوا الله ، لذلك فهم لا يعملون الأعمال التى من شأنها أن يستحقوا عليها سوء الحساب .

السادسة : (**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم**) فهم قد جاهدوا ويجاهدون انفسهم فى فعل الطاعات والبعد عن المعاصى بصبر ، ويجاهدون عدو الله وعدو المسلمين مختلف انواع الجهاد المعنوى والمادى بصبر كما يتلقون انواع قضاء الله وقدره فيما يكرهون بصبر ، وانهم يصبرون فى ذلك ابتغاء وجه ربهم ، وطلبا لرضاه وسعيا فى السبيل التى شرعها لعباده ، واتجاها الى الجهة التى فيها تحقيق طاعته ، وبلوغ جنته وفى كل ذلك وجه الله .

السابعة : (**واقاموا الصلاة**) وذلك لتستمر مراقبتهم لله فيما يعقدون بينهم وبين ربهم من صلة العبادة على ما شرع لهم ، وليؤكدوا وحدة اتجاههم الى الله تعالى ، ووحدة صفهم فى اقامة الجماعة ، ووحدة قيادتهم فى طاعتهم لائمتهم الذين يقيمون شريعة الله ويطبقون احكامها .

الثامنة : (**وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانيه**) وذلك قياما بواجب التكافل الاجتماعى الذى شرعه الله لعباده طبق نظام النفقة الواجبة ، والزكاة المفروضة ، والواجبات الأخرى من كفارات ونذور وهدى وصدقات ، وطبق نظام الصدقات والهبات والهدايا العامة غير الواجبة التى فيها طاعة لله وأجر عنده من كل ما يبتغى به وجهه .

التاسعة : (**ويدرءون بالحسنة السيئة**) تداركا لفلتات الذنوب وذلك بفعل الحسنة عقب فعل السيئة التى تسبق منهم بجهالة . وتحقيقا لمبادىء الأخلاق الاجتماعية ، وذلك بالسبق الى الاحسان الى الناس ، اذ يدفعون

بذلك ما يمكن ان يكون منهم من سيئات وبفعل الخصال الحسنة فى مقابل ما يوجه اليهم من اساءات فيدفعون بذلك سيئات أكبر ربما كانت تحصل لو اتبعوا اهواءهم فى الانتقام ، وبالعمل على نشر الخير ، وذلك بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اذ يساهمون بذلك فى تقويم المجتمع ويدفعون به سيئات كبرى من شأنها ان تنتشر فى المجتمعات التى لا يوجد فيها من يقوم بهذا الواجب العظيم .

ومن استجمع هذه الصفات التسع فى دار الابتلاء والفناء دار الحياة الدنيا فقد استجمع عناصر الخير كلها التى تستوجب بموجب قانون الفضل الربانى الكرامة العظمى عند الله فى دار الجزاء والبقاء ، كيف لا يكون لهم عند الله يوم القيامة الجزاء الافضل ؟ وقد اصلحوا ما بينهم وبين الله بالايمان والطاعة ، وأصلحوا ما بينهم وبين الناس ، وأدوا ما يجب عليهم صابرين راضين مبتغين فضل الله وثوابه ، لذلك كان من الحق أن يكون لهم عند الله العاقبة **(الحسنى)** وقد جاء عقب هذه الصفات التى يتصفون بها تفصيل للعاقبة الحسنى التى جاءت مجملة فى صدر البيان ، فقال تعالى : **(أولئك لهم عقبى الدار)** فما هى عقبى الدار هذه ؟ لقد بينها الله بقوله : **(جنات عدن)** جنات اقامة خالدة وليست جنة واحدة ، انهم **(يدخلونها)** هم **(ومن صلح من آبائهم)** آباء وامهات **(وأزواجهم وذرياتهم)** فترفع منازل هؤلاء اكراما لاولئك ليأنسوا بلقائهم ويتم بهم سرورهم ؛ وان لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ، وذلك فضل الله ؛ ثم ان لهم اكراما آخر من الله بينه الله بقوله : **(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب)** من ابواب الجنات ؛ أو من ابواب قصورهم فيها دخول تكريم واحترام وتحية ومؤانسة فيقولون لهم : **(سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)** هذه العقبى التى نلتموها ، فاليوم يظللكم سلام ، اى أمن وطمأنينة من الله ؛ وتنزل عليكم تحيات منه بسبب صبركم فى الدنيا على مخالفة النفس فى كل ما تكرهون مما فيه مرضاة الله تعالى .

وفى هذا نوع من التفصيل لما يلاقيه المؤمنون اولو الألباب يوم القيامة من عاقبة حسنى طبق قانون فضل الله .

وفى مقابل صفات هؤلاء يأتى بيان صفات أولئك البعداء الكافرين بالله ، فهم :

اولا : (**ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**) فلا عهد لهم ولا ذمـــة ، ومن لا عهد له مع الله يلتزم به فلا يمكن ان يكون له عهد وميثاق مع النـاس يلتزم به ، الا لعلة وهى منفعة يرجوها او مضرة يخشاها .

ثانيا : (**ويقطعون ما امر الله به أن يوصل**) وذلك لانهم ماديون لا امل لهم وراء الدنيا ، ولا طمع لهم بما عند الله من اجر ، فليس لهم هم الا السعى وراء تحقيق مطالب انفسهم ، وهذا لا يسمح لهم بأن يضحوا فى سبيل غيرهم بشىء فكيف يصلون غيرهم على ســبيل التبرع والغــيرية دون أن يربطوا صلتهم بمعاوضة ومكافأة ؟ .

ثالثا : (**ويفسدون فى الارض**) ومما لا شك فيه ان واقعهم المنغمس بالكفر بالله والمادية الدنيوية لا بد ان يولد فيهم فقد كل خلق كريم نفسى او اجتماعى ما لم يرتبط ذلك بمصالح متبادلة ، ونظرا الى أن كثيرا من مطــالب الانفس لا يتحقق لهم الا عن طريق الاضرار بالآخرين ، وافتراس حقوقهم ، والعدوان عليهم فلا غرو ان ينتهى وضعهم الاجتماعى العــام الى طبيعة الافســاد فى الارض ، وذلك نهاية الشر التى تنتهى اليها كل جماعة تجتمع على الكفر بالله ، والانغماس بالمادية القريبة .

ومن استجمع هذه الاصول الثلاثة من خصال السوء فى دار الابتلاء فقد استجمع عناصر الشر كلهـــا التى تستوجب بموجب قانون العدل الربانى الاهانة العظمى فى دار الجزاء ، فقد افســـد هؤلاء ما بينهم وبين الله بالكفر والعصيان ، وافسدوا ما بينهم وبين الناس بالظلم والعــدوان ، وعملوا على نشر الفساد فى الارض ، لأن طاقة السعى فيهم اذ لم تتجه الى الخير فلا بد أن تتجه الى الشر : (**يا ايها الانســان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه**) لذلك كان من العدل أن تكون لهم عند الله العاقبة السيئة وهى اللعنة وسوء الدار ، واذ جاء تفصيل هذه العاقبة السيئة فى صدر البيان اكتفى الله هنـا باجمال ذلك فى قوله تعالى : (**اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**) .

النص

قال الله تعــالى :

« **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع** » . (٢٦)

(أ) اللغـة والمعنى المراد :

(يبسط الرزق) : اى يوسـعه ويزيده ، ويقال بسط الثوب اذا نشره ووسع السطح الذى يشاهد منه .

(ويقدر) : اى يضيق . تقول : قدرت عليه الشىء اذا ضيقته عليه .

(وفرحوا بالحياة الدنيا) : الفرح انشراح الصـدر بلذة عاجلة ، قالوا : واكثر ما يكون فى اللذات البدنية ، اى ، وفرح الكافرون بلذات الحياة الدنيـا وما فيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد .

(وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع) : المتاع كل شىء يتمتع به الى اجل ثم ينتهى ويفنى .

والمعنى : وما الحياة الدنيا بكل ما فيها فى جنب الآخرة وبالقياس عليهـا الا متاع ينتفع به الى اجل ثم يصير الى الزوال والفناء ، وهذا مشاهد فى كل ما فى هذه الحياة الدنيا ، فكل شىء فيها عرض زائل .

(ب) معنى الآية (٢٦) نصا واقتضاء :

واذ تم فى المجموعة الســابقة من الآيات بيان عاقبــة كل من المؤمنين والكافرين فى المستقبل البعيد ، فلا غرو أن يلوح فى الانفس ســؤال فحواه كما يلى :

لما كان للمؤمنين أولى الألباب المتصفين بالصفات التسع التى سبق بيانها كل ذلك التكريم وكل ذلك الاجر العظيم عند الله ، ولما كان للكافرين فى مقابل ذلك اللعنة وسوء الدار ، فلماذا نشاهد فى الدنيا أن الله قد يوسع الرزق على الكافرين ، وقد يضيقه على المؤمنين ؟ فما هى الحكمة من ذلك ؟ ولماذا لا يكرم الله المؤمنين فى الدنيا بالرزق الواسع ويهين الكافرين بالتضييق عليهم فيـه ؟ واجابة على هذا السؤال الذى يلوح فى الانفس قال تعالى : **(الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع)** .

ويتضمن هذا البيان اشارات الى حكمة الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا . اذ ابتلاء الارادة من شأنه ان تستكمل فيه ظروف الامتحان على الوجه الأكمل ، وذلك بأن يوضع الناس جميعا على قدم المساواة بالنسبة الى شروط الحياة ووسائل العيش فى هذه الدنيا دار الابتلاء ، حتى لا يكون التباين فيها مغريا أو ملجئا للارادة التى منحها الله حرية اختيار طريق الخير أو طريق الشر ، ومن اجل ذلك كان لا بد ان يمنح الله كل وســائل العيش وشروطه للمؤمنـين

والكافرين ، وبما أن فلسفة الابتلاء ذات وجوه ، اذ قد يكون الابتلاء بالصحة كما قد يكون بالمرض ، وقد يكون بالقسوة كما قد يكون بالضعف ، وقد يكون بالغنى كما قد يكون بالفقر ، الى غير ذلك من أضداد كثيرة لا حصر لها . كان لا بد ان تكون هذه الوجوه على اختلافها موزعة فى الأمم والشعوب مؤمنها وكافرها ، مطيعها وعاصيها حسب مشيئة الله وقضائه وقدره فى ابتلاء كل فرد من الناس بحسبه ، وهذا ما أشارت اليه الآية بقوله تعالى : (**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**) وقد رددت هذه الحقيقة وأوضحتها آيات أخرى متفرقة فى مواضع من القرآن العظيم .

وقد جعل الله كل ما فى هذه الحياة الدنيا متاعا قريب الزوال يتمتع به الموضوعون تحت كواشف الامتحان وليست هى الحياة الخالدة حتى يتنافس فيها المتنافسون ، ومهما طال عمر هذه الحياة فهى بالنسبة الى الحياة الآخرة الخالدة وبالقياس عليها متاع سريع الزوال ، ولا يستحق هذا المتاع عند أولى الألباب ان يكون هو محل التكريم أو الاهانة ، وقد أوضح هذا المعنى قوله تعالى : (**فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا**) .(1)

ولكن الكافرين الذين عطلوا ألبابهم عما خلقت من أجله فكانوا كمن لا ألباب لهم . قد غرتهم مباهج هذه الحياة الدنيا ، وخدعتهم مفاتنها فحجبت عنهم النظر البعيد ، ففرحوا بالحياة الدنيا ، ووقفوا عند حدودها ، وأخذوا يتسابقون فى تحصيلها ، ويتنافسون فيها ، وقد عشيت بصائرهم عما خلقوا من أجله ، وشغلتهم الوسائل عن الغايات فكان مثلهم كمثل من الهته قاعة الامتحان ومقاعدها وأوراقها عن الأمر الذى دخل القاعة من أجله ، حتى اذا انتهى الوقت اخرج من القاعة ، واخذت منه صحيفة أعماله التى سودها بالأباطيل ، وكذلك هؤلاء اذا حان الأجل ، وأخرجوا من هذه الدار قهرا ، وجدوا أثقال أوزارهم ، وحلت بهم الندامة ولكن لات ساعة مندم ، وهذا ما أشارت اليه الآية بقوله تعالى : (**وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع**) فهى وسيلة تشبه المتاع الذى يتمتع به الى أجل، والغاية التى يسعى اليها العقلاء انما هى الدار الأخرى التى هى دار الحيوان .

النص

قال الله تعالى :

« **ويقول الذين كفروا : لولا انزل عليه آية من ربه قل : ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب . (٢٧) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله**

(1) الفجر الآيات ١٥ — ١٧

الا بذكر الله تطمئن القلوب . (٢٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب» . (٢٩) .

(أ) اللغة والمعنى المراد :

١ ـ **(ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه) :**

(الذين كفروا) : هم مشركو العرب .

(لولا أنزل عليه) : **(لولا)** حرف تحضيض بمعنى هلا ، ويحتمل أن يكون معناها هنـــا التلويم ، وذلك انه قد سبق منهم أن طلبوا هذا الطلب قبل أن يصل موقف الصراع بينهم وبين الرسول الى ما وصل اليه ، وهو ما عرضته الآيات السابقة .

(آية من ربه) : اى معجزة من ربه مثل معجزة موسى فى فلق البحـــر ، ومعجزة عيسى فى احياء الموتى ، ونحو ذلك .

ويفيد عرض هذا القول من أقوال المشركين انه بعد ألوان الصراع العنيف الطويل بين المشركين وبين حامل الرســـالة الالهيـــة صلوات الله عليه يظل المشركون فى مكانهم الأول متجاهلين كل حجة بينة ، وبرهان قاطع ، فيعودون الى تكرير مقالتهم الأولى : **(لولا انزل عليه آية من ربه)** كأن شيئا من الصراع لم يكن ، وكأن الحجة لم تلزمهم ، زاعمين أنهم ظافرون بمطعن كبير فى صحـــة رســـالة محمد صلوات الله عليه ، أو عاجزين على أن يجدوا شـــيئا آخر يتمسكون به .

٢ ـ **(قل : ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب) :**

يضل : من أضل ، ولكى نفهم معنى أضل ومعنى هدى فى هـــذه الآية لا بد أن نعرض الى معانى الاضلال والهداية المرادة فى مختلف الآيات القرآنيـــة ، وفيما يلى بيان ذلك :

لدى التتبع فى نصوص القرآن العظيم نلاحظ انه قد ورد استعمال كل من الهداية والاضلال فى اربعة معان :

المعنى الأول : الهداية بمعنى الدلالة والارشاد والتعليم ، ومنه قوله تعالى مخاطبا رسوله **(ووجدك ضالا فهدى)** (١) اى وجدك جاهلا بالمعارف الدينية فعلمك اياها .

وفى مقابل هذا المعنى من معانى الهداية يأتى الاضلال بمعنى الاغواء الذى يصور الباطل بصورة الحق ، وهو ما يقوم به الموسوسون المضللون من الانس

---

(١) الضحى الآية ٧

والجن ، أو بمعنى الابقاء فى الجهل وعدم الارشاد ، ومنه قوله تعالى : **(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير)** (١) اى يغويه ويوسوس له ، ويصور له الباطل بصورة الحق ويزينه له .

المعنى الثانى : الهداية بمعنى وجود الشىء والعثور عليه يقال : اهتدى اليه بمعنى وجده وعثر عليه . وفى مقابله يكون **(اضله)** بمعنى ضيعه فلم يعثر عليه .

المعنى الثالث : ان يكون **(هداه)** بمعنى اثبت له الهداية وحكم له بها .

وفى مقابله يكون **(اضله)** بمعنى اثبت له الضلالة وحكم عليه بها ، ونلاحظ فى القرآن الكريم نصوصا كثيرة تتضمن ان الله يهدى من يشاء بمعنى يثبت لهم الهداية ويحكم لهم بها ، او تتضمن ان الله يضل من يشاء بمعنى يثبت لهم الضلالة ويحكم عليهم بها ، ولهذا المعنى مستند من اللغة ، فقد ثبت فى اللغة ان : (اضل الرجل) تأتى بمعنى وجده ضالا ، ومنه يستعملون : (أتى فلان قومه فأضلهم) أى ، فوجدهم ضالين ، وعلى هذا المعنى يحمل قول الله تعالى **(فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)** (٢) .

(أركسهم) : اى نكسهم واذلهم بما كسبوا . والمعنى اتريدون أن تثبتوا هداية من أثبت الله له الضلالة ومن يضلل الله ، اى يثبت له الضلالة بموجب قانون شريعته فلن تجد له سبيلا الى تبرئته مما هو عليه من الكفر المحقق الذى بدت دلائله فى أقواله وافعاله .

وعلى هذا المعنى يمكن حمل الاضلال فى الآية التى نحن فى صدد تدبر معانيها ، فمعنى : **(قل : ان الله يضل من يشاء)** قل يا محمد : ان الله العالم بى وبكم بيده الحكم بالضلالة على من يشاء ، ومعلوم أن مشيئته فى احكامه لا بد أن تكون مطابقة لعلمه وعدله ، ومن علمه وعدله أن يحكم بالضلالة عليهم بسبب كفرهم وجحودهم الحق .

المعنى الرابع : أن يكون التعبير باسناد الهداية الى الله بمعنى أن الله يوفق العبد الى سلوك سبيل الهداية ، بعد أن تصدق ارادة العبد الحرة فى أن يكون من أهلها ، وأن يوفقه الله الى سلوك سبيلها ، كما يأتى التعبير باسناد الاضلال الى الله بمعنى ان يسهل لعبده سلوك سبل الضلالة ويمد له فيها ، وذلك بعد أن تتجه ارادة العبد الحرة بشكل جازم الى سلوك سبل الضلالة ، وتتم عزيمته على ذلك ، ومما جاء من ذلك قوله تعالى :

---

(١) الحج الآية ٣ ، ٤

(٢) النساء الآية ٨٨

« قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الســاعة فسيعلمون من هو شر مكانا واضعف جنــدا . ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عنــد ربك ثوابا وخير مردا » (١)

وفى هذا النص نلاحظ أمرين :

الأول : أن الله يمــد لمن كان فى الضــلالة فيزداد بذلك المد ضلالا ، وهذا المد من مقتضى قانون الابتلاء الربانى لعباده .

الثانى : أن الله يزيد الذين اهتــدوا هدى ، وهذا من فضــل الله الذى يساعد به من أراد الهداية وسلك سبيلها على مقدار جزم ارادته وتصميمها فى ابتغــاء مرضاة الله .

وعلى هذا المعنى يمكن حمل الهداية التى نحن فى صدد تدبر معانيهــــا ، فمعنى : (**ويهدى اليه من أناب**) يوفق الى سلوك طريقه من اناب اليه ، اى من رجع اليه ، كما يمكن عليه حمل الاضلال أيضا ، اذ يكون المعنى من قوله : (**ان الله يضل من يشاء**) أن الله يمد بالضــلالة لمن شاء سلوك طريقهــا وذلك تطبيقا لقانون الابتــلاء الذى يقتضى ان تستكمل للممتحنين ظروف اختبارهم فى الحياة الدنيا دون أن يعترض طريقهم شىء .

(**من أناب**) : اى من رجع يقال : أناب ينيب انابة الى الله بمعنى رجع اليه بالتوبة واخلاص العمل ، واصل النوب رجوع الشىء مرة بعــد اخرى ، يقال لغة ناب نوبا ونوبة .

٣ ـ (**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب**) :

(**تطمئن**) : أى تسكن وتهدأ وتخشع فلا يبقى فيها قلق ولا اضطراب ، يقال : اطمأن يطمئن اطمئنانا وطمأنينة اذا سكن وهدأ بعد قلق واضطراب .

(**بذكر الله**) : الذكر يكون باللسان ، ويكون بالقلب ويكون بهما معا والذكر باللسان الذى يكون عن ارادة للذكر ويصاحبه جد وعزم من شأنه أن يؤدى الى حضور القلب مع دلالات الألفاظ التى يرددها اللســــان ، والذكر بالقلب فى صورته الكاملة يصاحبه تدبر وتأمل فى المعانى .

وذكر الله يكون باللسان وبالقلب، والجانب القلبى منه هو الذى له الاثر فى الفكر والنفس ، والذكر القلبى يكون بالتفكير والتدبر فى معــانى صفات الله ودلائل آلائه فى كونه ، وان الانســان لا يزال فى حيرة واضطراب من أمر هــذا الوجود وسر الحيـــاة والموت حتى يذكر الله ويتفكر فى آلائه ببصر نافذ الى الحقيقة ، فاذا فعل ذلك جاءته الطمأنينة ، ونزلت عليه السكينة ، ولا يسكن

(١) مريم الآية ٧٥ ، ٧٦

اضطراب النفس وقلق الفؤاد مثل الوصول الى الحقيقة ، ومن أجل ذلك طلب سيدنا ابراهيم عليه السلام من ربه ما يوصله الى طمانينة القلب اذ قال : **(بلى ولكن ليطمئن قلبى)** (١) هذا فى مرحلة البحث عن سر الوجود ، والوصول الى الايمان بالله وعظيم صفاته ، وتأتى بعدها مرحلة ذكر الله بعد الايمان .

فاذا تدبر المؤمن الذاكر لله بصفات قهر الله وعدله وانتقامه وراقب معها ذنوبه وتقصيراته التى لا يخلو منها الا معصوم حصل فى قلبه وجل وخوف من سوء المنقلب ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى : **(انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم)** (٢) .

واذا تدبر بصفات رحمة الله وعفوه وغفرانه ، وما أعد للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل اطمأن قلبه ، وسكنت نفسه ، وعلى هذا يحمل ما جاء فى هذه الآية التى نتدبر معانيها : **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)** .

٤ ـ **(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)** :

(طوبى لهم) : اى أصابوا خيرا وطيبا ، وطوبى مصدر كبشرى وزلفى ، من طاب يطيب طيبا وطوبى ، وأصل الواو فيه ياء ، ولكنها لما سكنت وانضم ما قبلها قلبت واوا ، وطوبى لهم : نظير سقى لهم ورعى بالرفع ، أو سقيا لهم ورعيا بالنصب .

وأصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس . وقد جاء فى تفسير طوبى عند أهل التفسير عدة معان منها ما يلى :

(ابن عباس) : فرح لهم وقرة عين .
(عكرمة) : نعمى لهم .
(قتادة) : حسنى لهم .
(النخعى) : خير لهم وكرامة .

وهذه المعانى لدى التحقيق لا تخرج عن معناها اللغوى الذى شرحناه .

(وحسن مآب) : اى وحسن مرجع والمآب : مصدر من آب يئوب أوبا وايابا ومآبا ، والمآب أيضا اسم زمان واسم مكان منه ، قال الراغب الأصفهانى : ولا يستعمل الأوب الا فى من له رادة بخلاف الرجوع فانه يستعمل فيه وفى غيره .

---

(١) البقرة الآية ٢٦٠
(٢) الانفال الآية ٢

والمعنى على المصدرية : لهم حسن رجوع ، اى رجوع الى الله حسن يوم القيـــامة .

وعلى انه اسم مكان ، لهم حسن مرجع ، اى مكان حسن يرجعون اليـــه وهى الجنـــة .

وعلى انه اسم زمان ، لهم حسن يوم يرجعون اليه اى يوم حسن يرجعون اليه وهو يوم دخولهم الجنـــــة ، والاضافة على كل من اضـــافة الصفة الى الموصوف .

فيكون معنى الآية : الذين آمنوا وإثمر لهم ايمانهم عملا صـــالحا سيكون لهم يوم القيامة طيب عظيم من الأجر ومرجع الى الله حسن .

(ب) معنى الآيات (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) نصا واقتضاء :

على الرغم من كل ما سبق فان مشركى العـــرب لا يبرحون مكانهم الأول جامدين عند نقطة واحـــــدة ، لا يحاولون ان يفتحوا بصائرهم الى اية حجة تعرض عليهم . ولا ان يتأملوا فى اية مناقشة تقدم لهم الاقنـــاع الكافى لمن أراد الوصول الى الحقيقة ، فهم فى آخر كل بيان يكشف لهم عن وجه الحقيقة وفى خاتمة كل بحث يعودون الى نقطة البدء فيقولون : **(لولا أنزل عليه آية من ربه)** متجاهلين بل متعامين عن المعجزات الكثيرة التى انزلها الله على رسوله ، وفى مقدمتها معجزة القرآن ، كأن الحجة لا تقوم عليهم الا بأن ينزل الله على رسوله المعجزات التى تعنتوا بطلبها ، وفى هذا نهاية المكابرة وغمط الحق والامعـــان فى الاصرار على مواقف الضلالة .

واذ قد بلغوا من الضلالة هذا المبلغ المتعنت فلا مندوحة من الحكم عليهم بها حكما مبرما عادلا من الله الذى لا سلطان عليه من أحد فى حكمه . فهو يحكم بما يشاء ، ولكن مشيئته فى الحكم لا بد وان تكون مطابقـــــة للحق والواقـــع والعدل ، واشارة الى ذلك قال الله لرسوله ، **(قل ان الله يضـــل من يشاء)** وفى هذا تعريض لهم بأن الحكم الالهى المبرم عليهم قد أوشك أن يتم بتـــــه وابرامه بضلالهم . حكما لا رجعة فيه اذ ينتهى فيه أجل الامهال ؛ ومن حـــكم الله عليه بالضلال فلا مناص له من حلول عقاب الله فيه ، ويوضح دلالة هـــذا التعريض ان نقول : ان من كان فى موقف الجريمة واصر عليها ، ثم قيل له : ان الحاكم المطلع على أعمالك يجرم من يشاء كان فى معنى هـــذا الكلام تعريض له بانه قد أصبح على أبواب الحكم عليه بالجريمة ، ومتى حكم عليـــه بها كان لا محالة تحت سلطان العقاب .

ولما كان الموقف موقف تعريض بقرب النهـاية اسـتدعى أن يفتح الله لهم بابا من ابواب الرجاء ، ليجدوا سـبيلا أمامهم الى الانابة الى الله ، فاذا انابوا قبل فوات الأوان منحهم الله الهداية فوفقهم الى متابعة طريقهـا الموصل الى الله ، واشعارا بذلك فتح الله لهم باب الأمل بأن الله يهدى اليـه من اناب عقب التلويح بالحكم عليهم بالضلال ، فقال تعالى : **(قل : ان الله يضل من يشـاء ويهدى اليه من اناب)** .

ولكن ليست الانابة الى الله مجرد دعوى يتحلى بها المدعون ، ولكنها حقيقة يتصف بها المؤمنون الصادقون بايمانهم ، الذين تطمئن قلوبهم بالتدبر والتفكر فى آلاء الله ، اذ يصرف ذلك عنهم كل عامل من عوامل الاضطراب والقلق التى تخالج قلوب أهل الشك ، والذين تطمئن قلوبهـم بذكر رحمـة الله وعفوه وغفرانه ، اذ يصرف ذلك عنهم الاضطراب والقلق اللذين يولدهما الخوف من العقاب على ما ارتكبوا من آثام فى حق الله وحق دينه ورسوله ، وبيانا لذلك قال تعالى : **(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله)** .

وكأن فى تحويل الأسلوب من الفعل الماضى الى المضارع الذى فيـه معنى التجدد والاسـتقبال فى قوله تعالى : **(آمنوا وتطمئن)** وعـدا لهم بأن الله سيذهب عن قلوبهم ما يشعرون به من قلق واضطراب وحذر من سوء العقاب بعد أن يؤمنوا ، ولكن بشرط ان يذكروا الله .

او أن المنيبين هم الذين يتحلون بوصفين :

الأول : انهم آمنوا ايمانا صادقا .

الثانى : أنهم تتجدد الطمانينة فى قلوبهم بسبب ذكر الله .

ثم قرر الله جل ثناؤه لهم ولغيرهم مبدأ عاما ، ودواء ناجعـا لعلاج قلق القلوب واضطرابها فقال تعالى : **(الا بذكر الله تطمئن القلوب)** وفى اعلان هذا الأصل العام والقانون الدائم عقب معالجة بعض جزئياته ، اسلوب رفيع من أساليب التربية والتعليم ، له فى القرآن امثال كثيرة .

ثم لوح الله لهم بالعاقبة الكريمة يوم القيامة اذا أضافوا العمل الصالح الى ركن الايمان وفى هذا تلطف تربوى فى التـدرج بمراتب الكمال فقال تعالى : **(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)** وذلك لأن الايمـان جوهرة فى القلب لا بد ان يكون لها أثر فى الظاهر ، واثرها فى الظـاهر انما هو العمل الصالح ، وبرجوعهم الى الله فى الدنيا بالايمان والعمل الصالح يكون لهم عند الله طيب من الأجر ومآب حسن .

خاتمة للمجموعة الثانية من السورة :

وفيها خلاصـــة تسلسل ما جاء فى الآيات من (١٢) الى (٢٩) وترابط معانيها ، وترقيم هـــذا التسلسل تابع لخلاصـــة تسلسل المجموعة الأولى من الســـورة .

٧ ـ ثم عرضت السورة أدلة قدرة الله وعلمه وحكمته فى العلو القريب بين السماء والأرض ، وذلك فى ظواهر البرق والسحاب والرعـد والصواعق مع التلويح بالوعيد الذى تحمل دلالته هذه الظواهر وبخاصة الصواعق منها .

٨ ـ ثم صورت السورة حالة عجز الناس وضعفهم أمام الظواهر الكونية المخيفة التى لا حيلة لهم معهـا الا أن يلتجئـــوا بالدعاء الى قوى أخرى وراء الظواهر ، يعتقدون أنها تنجـدهم ، أما المؤمنون فيلتجئون الى الله القـادر فيستجيب لهم ، وأما المشركون فيلتجئون الى شركائهـم الذين لا يستجيبون لهم بشى .

٩ ـ ثم بينت السورة أن كل شىء فى الكون خاضـع لقـدرة الله وقهره ، نافذة فيه مشيئة الله ، وذلك حثا للمشركين على أن يتمموا واقعهم غير الادارى بسجود ارادى منهم لله تعالى .

١٠ ـ ثم علم نبيه كيف يعالج المشركين بوسائل الاقناع والمجـادلة بالتى هى أحسن متخـــذا معهم مرحـلة من مراحل الهجوم على باطلهم بالبراهين القاطعة ، والحجج الدامغة ، بعد أن كان الموقف فى أول السورة موقف الدفاع وفى هذه المرحلة الجـديدة لون من الوان الصراع الفكرى المهـــذب بين الحق والباطل ، الا أن التهذيب من جهة واحدة هى جهة أصحاب الحق .

١١ ـ وبعد أن وصل الرسول الى نهاية مرحلة الهجوم الكلامى المهذب على باطل المشركين تنتقل السورة فتصور مرحـلة عنيفة من مراحل الصراع بين الحق والباطل ، بين حق يغالب بكل وســيلة مشروعة ليظهر ويبسط فى الأرض عدله ونوره ، وبين باطل يغالب بكل وســـيلة غير مشروعة ومبطلين يصارعون الحق واهله ، وتنتهى الصورة بانتصار الحق ودعاته على البـاطل وجنوده فى الأرض .

١٢ ـ ثم ينتقل البيان فى السورة الى ازاحة الستار عن المستقبل البعيد لمشاهدة عاقبة أهل الحق وعاقبة اهل الباطل فى الدار الآخرة بارزا فيها فضل الله وعدله مع بيان الأسباب الداعية الى أن يمنح الله فضـــله للمؤمنين ، وأن

يوقع عقابه فى الكافرين ، وقد تضمن ذلك بيان صفات المؤمنين وصفات الكافرين .

١٣ ـ ثم كشفت السورة الحكمة الداعية الى عدم حرمان الكافرين من اسباب العيش والرفاهية فى الحياة الدنيا .

١٤ ـ ثم صورت السورة حال المشركين الذين لم تؤثر فيهم كل تلك البيانات السابقة باصرارهم على موقفهم الأول ، وعودتهم الى تكرير مقالتهم السابقة (**لولا انزل عليه آية من ربه**) .

ثم عالجت حالتهم بطريقة جديدة فيها تلويح بحصول العقاب القريب ، مع ابقاء باب الأمل والرجاء مفتوحا أمامهم لينيبوا الى ربهم بالايمان والعمل الصالح ، واعطتهم الدواء الدينى الشافى لاضطراب القلوب ، الا وهو ذكر الله الداعى الى التأمل فى آلائه ، والتفكر فى عظيم صفاته ، التى منها رحمته وعفوه وغفرانه .

١٥ ـ ثم تنتقل السورة الى مرحلة جديدة ، وهى مرحلة تربية الله لرسوله ، وهذه المرحلة موصولة بالمراحل السابقة التى كان فيها صراع مع المشركين .



المجموعة الثالثة

النص

قال الله تعالى :

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ
جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣)
لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)
* مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ
عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ
أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ
ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ
وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ
لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ
جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(ا) اللغة والمعنى المراد :

١ ــ قوله تعالى :

« كذلك ارسلناك فى امة قد خلت من قبلها امم لتتلو عليهم الذى اوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن » (٣٠) .

(**كذلك ارسلناك**) : الارسال ، هو التوجيه بأمر ما الى جهة ما ، والرسول هو المأمور بالتوجه .

اما الرسول شرعا فهو عبد اصطفاه الله بالوحى وامره بأن يحمل رسالته ويبلغها الى الناس عامة ، أو الى الأمة التى ارسل اليها فقط .

والخطاب فى قوله تعالى : (**ارسلناك**) ليسدنا محمد صلوات الله عليه ، اما المشار اليه فى قوله تعالى : (كذلك) ففيه احتمالان :

الاحتمال الأول : ان يكون المشار اليه هو ارسال الرسل الى الامم السالفة .

والمعنى على هذا : مثل ذلك الارسال الذى اضطلع بمهامه الرسل السابقون ، اذ ارسلناهم فى أمم كثيرة سالفة أرسلناك فى هذه الأمة ، وهذا المشار اليه معلوم فى قصص القرآن الكثيرة ، كما انه مشار اليه بعد ذلك بقوله تعالى : (**قد خلت من قبلها امم**) .

الاحتمال الثانى : أن يكون المشار اليه هو واقع الرسالة التى ارسل بها محمد صلوات الله عليه بمهامها العظمى ، ومصاعبها الكبرى التى ذاق الوانا من صعوباتها ، والتى عرضت الآيات السابقة فى السورة شيئا منها ، واشارة الى رفعة مكانتها وعظم شأنها اشار اليها باشارة البعيد (كذلك) .

والمعنى على هذا : مثل ذلك الارسال الذى دخلت غماره وذقت مصاعبه، واضطلعت بمهامه ، ومارسته تطبيقا وعملا ارسلناك اذ حملناك شرف الرسالة، والقينا عليك مسئوليتها منذ الفترة الأولى التى أشعرناك فيها بمهمتك ، وأمرناك فيها بتبليغ رسالتك .

وكأن الله جل وعلا يقول لرسوله من وراء هذا الخطاب افكنت تظن ان أمر الرسالة تشريف فقط ليس معه مسئولية تتعرض فيها الى اذى وتكذيب واستهزاء من قومك ؟ .

فالمماثلة اذن بين المهمة التى بدأ بها التكاليف وبين الواقع التطبيقى الذى انغمس الرسول صلوات الله عليه فى صعوباته . وهذا الواقع المشار اليه قد جاء تفصيله فيما سبق من آيات السورة .

(فى امة قد خلت من قبلها امم) :

(الأمة) : كل جماعة يجمعهم امر وتؤلف بينهم طريقة ما ، وتطلق الامة على جماعة من العقلاء ، وعلى جماعة من غيرهم ، قال تعـالى :- **((وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم))** (١)

(قد خلت من قبلها امم) : اى سلفت من قبلها امم كثيرة كان منها لرسلها مثل ما شهدت من هذه الأمة ، فما شأن أمتك الا كشأن الأمم السالفة .

(لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك) :

(لتتلو) : اى لتتابع لهم تبليغ ما أوحينا اليك من قرآن وأحكام وشرائع وغيرها ، وأصل فعل تلا يتلو يأتى بمعنى المتابعـة والمتابعـة تكون بالجسم أو بالقراءة ، أو بالعمل أو بالتفكير ، أو بغيرها .

(أوحينا) : الوحى لغة يستعمل فى عدة معان تدور حول الاعـلام الخفى السريع ، مهما اختلفت أسباب هذا الاعلام ، لذلك فهو يطلق على الايماء ، وعلى الاشارة السريعة ، وعلى الكلام الخفى ، وعلى الكتابة ، وعلى القاء المعنى فى النفس ، وعلى الالهام ، سواء أكان بدافع الغريزة ، أو باشراقات الفطرة ، ومن استعمالات الوحى فى المعنى اللغوى قوله تعالى : **(وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٢)** أى الهم غريزتها ذلك.

(والوحى شرعا) : لدى التأمل فى النصوص الشرعية التى توضح لنا ظاهرة الوحى الذى اصطفى الله به انبياءه ورسله ، نستطيع أن نعرف الوحى فى الاصطلاح الشرعى بما يلى :

هو اعلام الله رسولا من رسله أو نبيا من انبيائه ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبى أو الرسول العلم اليقينى القاطع بما أعلمه الله به .

والمعنى : لتبلغهم ما أمرناك بتبليغه مما أوحينا اليك ، وفى هذا تحديد لمهمة الرسول صلوات الله عليه من الرسالة التى أمره الله بحملها الى الناس .

(وهم يكفرون بالرحمن) : اى والحال انهم يكفرون بالرحمن ، ولفظ الرحمن سبق شرحه فى البسملة ، وانه اسم من أسماء الله الحسنى ، وفى ايراد اسم الرحمن هنا اشارة الى انهم يكفرون بالله متجاهلين صفة رحمته الغامرة لهم بالنعم التى لا تحصى .

وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى : **(وهم يكفرون بالرحمن)** أن النبى صلوات الله عليه يوم الحديبية لما اراد أن يكتب كتاب الصلح بينه وبين مشركى العرب من قريش قال لكاتبه : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

---

(١) الأنعام الآية ٣٨

(٢) النحل الآية ٦٨

فقال ممثل قريش لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعنا يا رسول الله نقاتلهم فقال : لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون ، انى محمد بن عبد الله ، فلما كتب كاتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال وفد قريش أما الرحمن فلا نعرفه وكان اهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه : يا رسول الله دعنا نقاتلهم قال : لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون ، فأنزل الله قوله : **(وهم يكفرون بالرحمن)** اشارة الى ذلك ، ولنا ان لا نسلم بأن هذا هو سبب النزول ، اذا لاحظنا أن السورة مكية على أرجح القولين .

على اننا نقول : انّ العبرة بعموم اللفظ ، فالمشركون يكفرون بالرحمن ، أى يكفرون برحمة الله العظمى التى بها يحييهم ويؤويهم ، ويطعمهم ويسقيهم ، ويدفع عنهم الضر ويجلب لهم الخير ، ثم يتعلقون بأوثانهم ويشركون به تعالى شركاء لا تملك لانفسها نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وبهذه العقائد الباطلة التى لا دليل لهم عليها الا أن يقولوا : **(انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون)** (1) يجادلون الرسول صلوات الله عليه ، ويكيدون له ولدعوته كيدا شديدا ، ويستهزئون به ، ويمعنون فى كفرهم .

٢ ـ قوله تعالى :

« قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (٣٠) .

فى هذا النص يعلم الله رسوله كيف يقيم الحجة العقلية على المشركين ، وتتضمن الحجة فى هذا أمرين ثانيهما مرتب على الأول منهما ترتيبا عقليا .
الأمر الأول : توحيد الربوبية ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(قل هو ربى)** اى لا رب لى غيره ، والرب كما سبق بيانه مأخوذ من التربية ، والمعنى هو وحده خالقى والذى يمدنى بالتربية الدائمة ، وقد استفيد القصر من تعريف طرفى الاسناد . وتوحيد الربوبية بمعنى الخلق شىء كان جمهور مشركى العرب يؤمنون به ولا ينكرونه ، وانما كانوا ينكرون توحيد الألوهية .

الأمر الثانى : توحيد الالوهية ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(لا اله الا هو)** وتوحيد الالوهية شىء مترتب عقلا على توحيد الربوبية ، فمتى كان الرب الخالق واحدا وجب أن يكون هو وحده الا له المعبود ، وفى هذا منتهى ما يتطلب العاقل المنصف من حجة لمعرفة الحق الذى لا ريب فيه .

---

(1) الزخرف الآية ٢٣

(عليه توكلت اليه متاب) :

(عليه توكلت) : يقال توكل عليه يتوكل توكلا اذا استسلم والتجا اليه ، ووثق به واعتمد عليه ، وفوض اليه القيام بما يرجو من امر ، ولما كان الانسان عاجزا عن ان يقوم بكل مهامه بنفسه فان طبيعة العجز تلجئه الى ان يوكل غيره بها ، وفى الحياة أمور كثيرة لا يستطيع البشر ان يقوموا بها بأسبابهم المادية لذلك كان لا بد لهم من ان يكلوا تحقيقها الى القوة من وراء الأسباب المادية ، ومتى ترك المخلوق الأسباب المادية التى سلط الله يده عليها ، فانه لن يجد غير الله وكيلا ، يفوض اليه أمره ، ويرجوه فى تحقيقه .

وتوحيد الربوبية والألوهية لله تعالى يستدعيان التفويض اليه ، والتوكل فى كل الامور عليه .

فمعنى عليه توكلت : عليه وحده لا على غيره توكلت فى تحقيق ما ارجوه ، فهو وكيلى فى كل أمرى لانه هو ربى ، واحدا فى ربوبيته ، وهو الهى واحدا فى الوهيته ، لا اله الا هو ، واستفيد الاختصاص من تقديم المعمول على عامله .

فمعنى عليه توكلت : عليه وحده لا على غيره توكلت فى تحقيق ما أرجوه ، فهو وكيلى فى كل أمرى ، لأنه هو ربى ، واحدا فى ربوبيته وهو الهى واحدا فى ألوهيته ، لا اله الا هو ، واستفيد الاختصاص من تقديم المعمول على عامله .

(متاب) : مصدر تاب ، يقال تاب الى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا ، أى اناب ورجع الى الله ، والتوبة الرجوع من الذنب الى الطاعة ، واصل تاب عاد الى الله ورجع وأناب .

فمعنى واليه متاب : واليه وحده لا الى غيره رجوعى فى كل أمر من أمورى، وكل حاجة من حاجاتى ، وهذا ما يوجبه توحيد الألوهية أيضا ، واليه أيضا رجوعى يوم الدين ، فهو الذى يحاسبنى ويجازينى ، لذلك فلا انظر الى رضا غيره ، ولا أبتغى بعملى سواه .

وقد قرىء متابى باثبات ياء المتكلم ، وهى مع حذفها ملاحظة تقديرا .

معنى الآية بشكل عام : تنتقل السورة اعتبارا من هذه الآية حتى آخرها الى مرحلة جديدة تتضمن تربية سامية من الله للرسول ، مع المحافظة على وحدة موضوع السورة ، وذلك لمعالجة حال الرسول صلوات الله عليه التى تأثرت باصرار المشركين على كفرهم واستهزائهم به ، والحاحهم على طلب الآيات أو استعجال العذاب .

والتربية فى هذه الآية تاتى على مرحلتين :

المرحلة الأولى : ما بينه الله لرسوله من انه ليس بدعا فى الرسل ، وان امته شبيهة بسائر الأمم بالنسبة الى رسلها ، لذلك فمهمته مماثلة لمهمة الرسل من قبله ، فهى :

(أ) ان يبلغ امته ما أوحاه الله اليه ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك)**

(ب) ان يحمل هذه المهمة الى امته فى حال كونهم يكفرون بالرحمن ، وقد دل عليه قوله تعالى : **(وهم يكفرون بالرحمن)** .

وفى هذا اشعار له بأن مهمته لا تصل الى حد أن يسعى وراء الوسائل التى تحولهم من الكفر الى الايمان غير وسائل التبليغ والارشاد والاقناع التى تهيىء لهم ظروف الاقتناع بالحق ، حتى يؤمنوا به بانفسهم ، وبمحض اراداتهم الحـرة .

المرحلة الثانية : ما علمه الله رسوله من اقامة الحجة العقلية عليهم ، وذلك بأسلوب يتحدث فيه عن نفسه وعن عقيدته ، بعيد عن أسلوب المواجهة والجدل ، اذ يعلن لهم ما أورثه القناعة التامة ، واعطاه الدليل الكافى على ما يؤمن به ، لذلك فهو يؤمن بما ثبت عنده بالبرهان القاطع ايمانا لا شك فيه ، ويتمسك به ، ويعمل بما يوجبه عليه ، ثم هو يعرضه عليهم عرض تبليغ ، رغبة فى أن يشتركوا معه فى تذوق حلاوة هذا الخير العظيم ، وفى اقتطاف ثمراته العاجلة والآجلة ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : **(قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت** واليه متاب) .

٣ ــ وقوله تعالى :

((ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الأرض او كلم به الموتى بل لله الامر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ؟ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتى وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد)) (٣١) .

(قرآنا) : القرآن فى الاصل مصدر مثل الرجحان والغفران ، تقول : قرات الشىء قرءا وقرآنا اذا جمعته ، قال تعالى : **(ان علينـا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه)** (١) . قال ابن عباس : اذا جمعنـاه واثبتناه فى صـدرك فاعمل به .

وقد خص لفظ القرآن بالكتاب المنزل على سيدنا محمد صلوات الله عليه، قيل : وقد سمى قرآنا لكونه جامعا لثمرة كتب الله كلها .

---

(١) القيامة الآية ١٧ ، ١٨

(سيرت به الجبال) : اى ازيلت عن اماكنها بمجرد تلاوته .

(او قطعت به الأرض) : في معنى تقطيع الأرض وجهان ، أحدهما : تقطيع اقسام منها وتشقيقها وازالة القطع عن أماكنها لتفجير العيون واخراج الكنوز ونحو ذلك ، والثانى : قطع المسافات الشاسعة فيها بلمحات الأبصار .

(او كلم به الموتى) : اى او خوطب به الموتى ، فأحياها الله به فسمعت واجابت .

اما جواب **(لو)** ففيه وجهان :

الوجه الاول : انه محذوف تقديره : ولو أن قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الأرض او كلهم به الموتى لما تغير من حال هؤلاء المشركين شيء ، أى لانهم مكابرون معاندون ، فهو تقديره : لم يؤمنوا ، أو نحو ذلك . وقيل الجواب المحذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، أى ولو أن قرآنا حصل به تسيير الجبال وتقطيع الارض وتكليم الموتى لكان هذا القرآن .

الوجه الثانى : انه متقدم عليها ، وهو قوله تعالى فى الآية السابقة : **(وهم يكفرون بالرحمن)** والكلام بينهما قد جاء معترضا ، وهذا الوجه محكى عن الفراء ، قال الزمخشرى : وليس ببعيد من السداد .

ولا ارى انه ينبو عن اساليب القرآن ، والله اعلم .

سبب نزول هذه الآية جمعا من مختلف أقوال أهل التفسير : أن مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو وسعت لنا بقرآنك اودية مكة وسيرت جبالها فاحترثناها فانها ضيقة علينا ، او قطعت لنا به الأرض فتشققت لنا عن ينابيعها ، وكنوزها ، وقربت لنا به الشام فانا نتجر اليها ، او احييت به فلانا وفلانا من آبائنا ، لآمنا بك ، وان كنت صادقا فلست بأهون على الله من موسى وسليمان وعيسى ، فانزل الله تعالى قوله : **(ولو ان قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض او كلم به الموتى)** اى لما آمنوا لأن سبب كفرهم انما هو العناد والمكابرة ، لا حاجتهم الى الدليل على صدق رسالتك وان ما جئت به هو الحق من ربك .

وقد روى انه لما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذا الوحى قال : **(والذى نفسى بيده لقد أعطانى ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكن خيرنى بين ان تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين ان يكلكم الى ما اخترتم لأنفسكم ، ثم ان كفرتم يعذبكم عذابا لا يعذبه احدا من العالمين ، فاخترت باب الرحمة)** والله اعلم .

وعلى هذا يكون جواب (**لو**) المحذوف : لكان هذا القرآن .

(**بل لله الأمر جميعا**) : اى امر تلبية طلباتهم او عدم تلبيتها ، وامر ايمانهم وعدم ايمانهم وامر تعجيل عقابهم او امهالهم ، وكل امر غير ذلك .

وفى هذا اشـــارة الى الرسول صلوات الله عليه بعد أن عرفه الله حـــدود مهمته أن يريح نفسه وقلبه مما لم يحمـــله الله مسئوليته ، بل اصطفى الامر فيـــه لنفســـه .

والاضراب ببل يشعر بالتوجيه الى صرف النظـر عن تتبـــع تعليل قضاء الله وتصرفاته فى خلقـــه ، فالمؤمنون الكاملون يعلمون أن الأمر كله لله ، يقضى فيه بما يشاء ، وان الحكمة مســـايرة لكل ما يجريه من امر ، وهو بكل شيء علـــيم .

(**افلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا**) :

(**ييأس**) : اليأس القنوط من الشيء .

(**الذين آمنوا**) : وفى مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(**أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا**) : المشيئة لها ثلاثة وجوه :

(ا) مشيئة الاجبار على الهـــداية .

(ب) مشيئة الاجبار على الضلالة .

(جـ) مشيئة ترك الخيرة للعبد فى أن يختار لنفسه الهـــدى أو الضلال بارادته التى حباه الله اياها تكريما له .

ومتى تعلقت مشيئة الله بواحد من هذه الوجوه الثلاثة بالنسبة الى طائفة مما خلق امتنع فى الوقت نفســـــه أن تتعلق مشيئته بأن يكونوا مجبرين على سلوك سبيل الهداية او سلوك سبيل الضلالة ، لكنه مع ذلك يقال : لو يشـــاء لهداهم : اى لو يشاء اجبارهم على الهداية لسلبهم اراداتهم الحـــرة فجعلهم مجبرين غير مخيرين ، ولو جعلهـــم كذلك لكان من حكمته تعالى أن يهـــديهم جميعـــا .

وعلى هذا تكون معنى النص كما يلى : أفلم ييـــأس الذين آمنوا من أمر هداية الناس جميعا ، اذ لو يشاء الله لهدى النـــاس جميعـــا ، اى فجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولكن هذا ينافى حكمة

الابتلاء ، بعد ان تمت مشيئته تعالى في ان يهبهم الارادات الحرة التي يختارون بها ما يشاءون من خير او شر ، ليبتليهم ايهم أحسن عملا .

ويشكل على بعض اهل التأويل فهم معنى اليأس هنا بجانب ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، لذلك يفسرون اليأس هنا بمعنى العلم فيقولون : ان المعنى : أفلم يعلم الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا .

ولا ارى ضرورة لاخراج كلمة اليأس عن معناها الى معنى العلم ، وذلك لأن العلم بأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا يتضمن التقنيط من تغيير مشيئة الله التي تمت بأن يجعل الناس مخيرين في ارادتهم الحرة ، والتقنيط من جمع الناس كلهم على الهدى ، وقد أعطاهم الله حرية الاختيار ، فالتقنيط موجه لشرط (لو) وجوابها ، لأن الجواب لازم للشرط ، واذ قد انتفت هذه المشيئة وجب ان ينتفي لازمها وهو هداية الله للناس جميعا ، فيعود أمر هدايتهم وعدمها الى اراداتهم الخاصة بهم التي منحهم الله اياها .

قال تعالى :

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد) . (٣١) .

(قارعة) : القارعة في اللغة المصيبة والداهية والنازلة الشديدة من شدائد الدهر ، وهي مأخوذة من القرع وهو الضرب .

(وعد الله) : الوعد مصدر وعده الأمر ووعده بالأمر وعدا وعدة وموعدا وموعدة ، والوعد هو الأخبار بما تم العزم على فعله في المستقبل ، ويكون في الخير وفي الشر ، يقال : وعده بنفع ووعده بضر .

اما الوعيد والايعاد فهو في الشر خاصة .

قال الأزهري : كلام العرب وعدت الرجل خيرا ووعدته شرا ، فاذا لم يذكروا الخير قالوا ، (وعدته) ولم يدخلوا الفا (أي لم يقولوا أوعدته) واذا لم يذكروا الشر قالوا : (أوعدته) ولم يسقطوا الألف ، وأنشد لعامر بن الطفيل :

وانى ان اوعدته او وعدته
لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

واذا ادخلوا الباء لم يكن الا في الشر ، كقولك أوعدته بالضرب . انتهى .

والمراد من قوله تعالى : **(حتى ياتي وعد الله)** حتى يحين وقت انجاز وعد الله ، لأن وعد الله بنصر المؤمنين وخذل الكافرين وعقابهم قد سبق فيما

انزل على رسوله من قبل ، فمجيء الوعد هو مجيء زمن تحقيق ما وعد به .
(الميعـاد) : قال الراغب الاصفهانى : والموعد والميعاد يكونان مصـــدرا واســـما **(اى هما اسمان للوعد)** .

ومعنى **(لا يخلف الميعاد)** : لا يترك ولا يهمل تنجيز ما وعـد به فى الوقت الذى حدده ، قالوا : والاخلاف فى الاخبـار عما سـيفعل المخبر فى المستقبل كالكذب فى الاخبار عما فعل فى الماضى ، واصل الاخـلاف هو وضـع الشىء فى الخلف ، ويســتعمل كنـاية عن الاعراض والاهمال وعدم الاكتراث بتنفيـذ الوعـــد .

والمعنى للنص : ولا يزال الذين كفروا وهم مشركو اهل مـكة تصيبهم بما صنعوا بالرســول ودعوته وصحبه من تكذيب وهجر ، واســتهزاء ونكر ، وتعذيب ومكر ، قارعة تنزل بهم من قوارع الله وعقوباته ، أو تحل قريبـا من دارهم ، منذرة لهم بقرب حلول عقـــاب الله فيهم ، حتى يأتى وقت وعد الله بنصر نبيه والمؤمنين معه ، فيدخله مكة فاتحا بعد خروجه منهـــا مهاجرا ، ويخذل عدوه ، أو يحل به عقابه ونقمته فى الدنيا دار البلاء ، أو فى الآخرة دار الجزاء ، ان الله لا يخلف الميعاد ، اى لا يخلف وعده اذا حان الوقت الذى قرر حصول موعده فيه .

٤ ــ قــوله تعـالى :

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب ؟ » (٣٢) .

(استهزىء) : بالبناء للمجهول ، اى سخر اقوامهم منهم .

(فامليت للذين كفروا) : اى امهلتهم ، يقال : **(املى الله له)** اذا امهـله وطول له المدة ، وهو ماخوذ من الملوة وهى المدة من الزمان .

(ثم اخذتهم) : الاخذ فى الأصل هو حوز الشىء وتحصيله ، ويكنى به عن التعذيب والمعاقبة ، لأن الحاكم العادل اذا اخذ المجرم واحتجزه عنده ، فانه قد اخذه ليعاقبه على جريمته ، ومن ذلك يطلق الأخذ ويراد منه العقاب .

(عقاب) : اى عقـابى على حذف المضـاف اليـه لرعاية رءوس الآيات ، والعقاب والمعاقبة أن تجزى المسىء بما فعل سوءا ، وهما مصدران من عاقبه بذنبه اذا جزاه عليه بمثل سيئته ، والاسم العقوبة ، وقرىء فكيف كان عقابى ، بذكر المضاف اليه .

والمعنى : واذا احزنك او آلمك يا محمد استهزاء الكافرين بك فقد جاء من قبلك رسل كثيرون قد استهزأ بهم الكافرون من أقوامهم ، فأمهلت هؤلاء الذين كفروا ولم اعجل لهم العقاب ـ اى لأن الحكمة تقتضى ذلك ـ ثم اخذتهم بالعذاب الشديد الذى قصصت عليك طائفة من اخباره فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، فكيف رايت ما كان من عقابى لهم ؟ ألم يكن عقابا شديدا ؟ وفى هذا تلويح للمشركين بالعقاب على ما يفعلونه من استهزاء بالرسول .

٥ ـ قوله تعالى :

« افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء قل سموهم ام تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ ام بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن فضلل الله فما له من هاد » (٣٣) .

« افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء قل نفس بما كسبت ولا أحد غيره .

(قائم على كل نفس) : القائم على الشىء هو الملازم له بثبات مستمر ، مأخوذ من القيام بمعنى الثبات والملازمة ، فاذا عدى بالباء كان معناه ملازمة عمله ، فالقائم بالشىء هو الثابت على فعله ، واذا عدى بعلى كان معناه الثبات على القهر والغلبة ، او الثبات على الرعاية والحفظ ، أو الثبات على المراقبة والعلم ، او كل ذلك . والمناسب هنا فى مقام الربوبية مع قوله تعالى : **(بما كسبت)** امران :

الأول : ملازمة المراقبة والعلم فلا يعزب عن علمه تعالى شىء مما تكسب كل نفس خيرا او شرا علانية او سرا .

الثانى : استمرار القهر والغلبة ، وذلك لتحقيق العدل ، بعد الحساب المستند الى العلم الذى يحيط بكل شىء .

وفى هذا تلويح للمشركين بعقاب الله ، لأن من كان قائما على كل نفس بما كسبت لا بد أن يقيم فى الأنفس عدله ، ومن عدله معاقبة المسيئين .

وخبر **(افمن هو قائم)** محذوف دل عليه قوله تعالى عقب ذلك : **(وجعلوا لله شركاء) والتقدير** : افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت يشركون به من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

وفى قوله تعالى : **(افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)** عود الى تثبيت اتصاف الله تعالى بصفة العلم المحيط بكل شىء صغيرا كان او كبيرا ،

وهى الصفة التى تحدثت عنها السورة فى الثلث الاول منها بنفس طويل بدءا من قوله تعالى : (**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد ....**) واضاف معنى القيام هنا صفة العدل التى تقتضى ان يجازى المحسن باحسانه والمسىء باساءته .

والاستفهام فى : (**أفمن هو قائم**) استفهام انكارى من قبيل الانكار الابطالى .

(**وجعلوا لله شركاء**) : اى وجعل المشركون لله القائم على كل نفس بما كسبت شركاء فى منتهى الحقارة والعجز والجهالة ، وقد استفيد هذا من تنكير شركاء ، اذ يأتى التنكير للتحقير كما قال علماء البلاغة .

ثم ارشد الله رسوله الى لون من ألوان المحاجة للمشركين ، لالزامهم بفساد طريقتهم ، وبطلان اعتقادهم بالشركاء ، فقال تعالى : (**قل : سموهم ام تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ ام بظاهر من القول**) .

وفى هذا يأمر الله رسوله بان يضع المشركين امام احتمالات ثلاثة :

الاحتمال الأول : أن يكونوا يعتقدون فعلا بوجود شركاء لله مستندين فى اعتقادهم الى دليل ما من أدلة الاستنتاج وان كان دليلا فاسدا .

وأمام هذا الاحتمال يقول الله لرسوله : (**قل سموهم**) اى صفوهم وبينوا لنا حقيقتهم واثبتوا لنا العلامات الدالة على انهم آلهة ، وليس المراد مجرد ذكر أسماء آلهتهم التى جعلوها شركاء لله ، لأن أسماءها معروفة مشتهرة فهى اللات والعزى ومناة الى آخر سلسلة الأسماء التى اتخذوها آلهة ، وهذا يستدعى اقامة الأدلة العقلية على ما يدعون ، وأنى لهم أن يجدوا دليلا واحدا على وجود الشركاء ، وكل ما فى الوجود من أدلة يدل على وحدانية الله تعالى .

أى فان حاولوا بيان صفات آلهتهم التى يجعلونها شركاء لله تعالى ، واقامة الأدلة عليها فقد ظفرت بهم لأن حجتك ستكون هى الغالبة لا محالة .

ولما كان الاسم مأخوذا من السمة وهى العلامة ، والعلامة على الشىء هى ما يدل عليه ، والاسم علامة على مسماه ودليل عليه ، ترجح لدينا أن المراد من قوله تعالى : (**سموهم**) طلب أوصافهم ، وتقديم الأدلة الدالة على كونهم آلهة شركاء لله ، ونظيره فيما أرى قوله تعالى : (**وعلم آدم الأسماء كلها**) أى صفات الأشياء وخصائصها الدالة عليها ، والمميزة لها ، أما المفردات اللغوية الدالة على مسمياتها ، فهى الفاظ اصطلاحية ليس بينها وبين مسمياتها ارتباط

عقلى ، والذى امتاز به الانسان ممثلا بآدم انما هو العقل وقدرة الاستنتاج ، والله أعلم .

الاحتمال الثانى : أن يكون اعتقادهم بهم ناشئا عن مشاهدات محسة ، شاهدوها فى الأرض دالة على أن هؤلاء الشركاء آلهة فعلا ، فدليلهم على ما يعتقدون دليل حسى كالدليل الحسى على أن النار تحرق ، وأن السم يقتل ، وأن الماء يروى ، وأمثال ذلك .

وأمام هذا الاحتمال يقول الله لرسوله قل لهم : **(أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟)** أى أم أنتم تخبرون الله بوجود آلهة فى الأرض لها آثار محسة تشاهدونها والله لا يعلمها ، مع أنه المحيط بكل شىء علما ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، فلو كان فى الأرض آلهة تخلق أو تشارك الله فى شىء من خلقه لعلم بها الله ، فهو قائم على كل نفس بما كسبت .

وهذا يستدعى اقامة الدليل الحسى على ما يدعون ، وأى دليل حسى يستطيعون أن يثبتوه يدل على أن أوثانهم شركاء لله حقا فى خلقه وأمره .

الاحتمال الثالث : ان يكونوا كاذبين فى دعوى اعتقادهم بشركائهم ، فهم فى الحقيقة لا يؤمنون بأنها آلهة حقيقية ، ولكنهم يقولون : انها آلهة بظاهر من القول : لا حقيقة له فى قلوبهم ، ولا مدلول له فى نفوسهم .

ويتحقق هذا الاحتمال فى الرؤساء الذين لهم فى هذه العقيدة الباطلة منافع مادية أو معنوية ، فهم يثبتون بأقوالهم شيئا لا يعتقدونه ليضللوا رعاعا من الناس ، فيقودوهم وراءهم ، ويفرضوا عليهم رياستهم ، ويسخروهم فيما يريدون .

وبيانا لهذا الاحتمال قال الله تعالى : **(أم بظاهر من القول ؟)** أى قلّ لهم أم تخبرون الله بظاهر من القول ، فهو غير ذى حقيقة تؤمنون بها فى قلوبكم .

ومن البدهى أنهم اذا لم يكن لهم دليل عقلى ولا دليلَ حسى على ما يقولون أن يلزمهم مضمون الاحتمال الثالث ، وهو أن يكونوا كاذبين مضللين ، وهذا الاحتمال يقابل مجموع الاحتمالين السابقين ، لأنهما يدخلان تحت عنوان : هل أنتم تؤمنون حقا بوجود الشركاء ؟ والاحتمال الثالث يدخل تحت عنوان : أم أنتم لا تؤمنون بذلك وانما تكذبون ؟ .

وعقب ذلكَ قالَ تعالى :

(بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد) . (٣٣) .

(**زين**) بالبنـــاء للمجهول ، وتزيين الشيء تحسـسينه ، ويكون التزيين على وجهـين :

الوجه الأول : بجعل الشيء الحسن فى حقيقته حســنا للناظرين ، وذلك بأن يعرض عرضا حسنا ، أو يثنى عليه فيزدان فى النفوس ، أو يضاف اليــه ما يجعله مستساغا حلوا وان كان حسنه الحقيقى مرا على بعض النفوس .

الوجه الثانى : يجعل الشيء القبيح فى حقيقته حســنا فى مظهره ، وذلك بأن يضفى عليه من المظاهر الخادعة الخلابة ما يستميل اليه اهواء النفوس ، والتزيين فى الآية من هــذا النوع .

(**صدوا**) : فيها قراءتان احداهما بالبناء للمجهول ، والاخرى بالبنـــاء للمعلوم ، وعلى القراءة الثانية اما أن يكون لفظ صدوا فعلا لازما غير متعــد ومعناه : اعرضوا ، واما ان يكون متعــديا ، ومعنـــاه : صرفوا الاتبـــاع عن السبيل .

(**مكرهم**) : نائب فاعل زين ، والمكر هو تدبير امر فى خفاء عمن دبر عليه ، لصرفه عما يريد أو لايقاعه فيما لا يريد ، قال تعــالى : (**واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك اويخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**) (1) فقد دبر الذين كفروا من أهل مكة أمرا فى خفاء عن الرسول صلوات الله عليه ، وبيتوا فيه أن يسجنوه أو يقتلوه أو يخرجوه من مكة ، ولكن الله دبر فى الخفاء عنهم أمرا آخر يعصم فيه نبيه منهم ، ويهيىء له ما يقوى شوكته ، حتى ، يعود فاتحا منتصرا ، بعد خروجه فى خفية مهاجرا .

فالمكر قد يكن مكرا مذموما اذا كان الأمر الذى دبر فيه مؤديا الى نتيجــة مذمومة ، وقد يكون مكرا محمودا اذا كان الأمر المدبر فيه مؤديا الى نتيجــة محمـــودة .

فتدبير الأمر فى الخفــاء لا يوصف لذاته بحسن أو قبح ، فاذا كان مؤديا الى خير كان حسنا ، واذا كان مؤديا الى شر كان قبيحا .

ولذلك كان ما يدبره زعمـــاء المشركين مكرا سيئا ، لأنهم يدبرون سرا ما يضللون به أتباعهم عن الحق ، ليحافظـــوا على منافعهم وزعاماتهم فيمـا بينهـــم .

وقد زين لهم هذا المكر ، زينتــه لهم نفوســهم المنحرفة عن منهج الخلق القويم ، المتعلقة بالشهوات الزائلة ، والمنـــافع الدنيوية العاجلة ، والزعامة الفارغة الباطــلة .

---

(1) الانفال الاية ٣٠

(وصـــدوا عن الســـــبيل) : اذا كان على البنـــاء للمجهــول فالمعنى كما يلى :

اما الاتباع فقد صدهم قادتهم عن سلوك السبيل الحق الذى هو سبيل الله ، واما الرؤساء فقد صدهم ما زين لهم صدهم عن سلوك السبيل الحق ، او صدهم الشيطان عنه ، ويرد على هذا أن الشيطان لا سلطان له ، ولا يتعدى تأثيره حـــدود الاغــواء والوسوسة بالشر والتزيين له .

واذا كان على قراءة البناء للمعلوم فالمعنى كما يلى :

اما القادة فقد صـــــدوا اتباعهم ، اى صرفوهم عن سلوك السبيل ، كما اعرضوا هم عنه ، واما الاتباع فقد اعرضوا عن سلوك الســـبيل كما ساهموا بصرف اتباع لهم من نساء وذرارى عن ســـلوك سبيل الله ، لأن كل تابع لغيره لا بد أن يجد تابعا له غالبا ، مع تعاقب الزمن .

(ومن يضلل الله فما له من هـــاد) اى من يثبت الله ضلاله بحكمه العادل فما له من هاديثبت له الهداية ، بعد أن حكم الله عليه بالضـــلالة . ومن حكم الله عليه بالضلالة فلا واقى له من عقاب الله ، ولذلك رتب الله على الحكم عليهم بالضـــلالة الذى اشـــــار اليه هذا النص ما جاء فى النص بعـــــده ، وهو : **(لهم عذاب فى الحياة الدنيا)** . . . الى آخر الآية .

٦ ــ قوله تعـــالى :

« لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اشـــق وما لهم من الله من واق » (٣٤) .

(لهم عذاب فى الحياة الدنيا) : وهذا اول وعيد صريح يعلنـــه الله فى هذه السورة بمعجل العذاب فى الحياة الدنيـــــا للكافرين بعد كل ما سبق قبها من التلويح به فى معاريض القـــول .

والعذاب على أنواع ، فقد يكون بايلام الجسد ، وقد يكون بايلام النفس ، وقد يكون بايلام الروح من وراء الجســــــد والنفس ، وقد نكون بكل ذلك ، واشده ما بلغ مبلغ ايلام الروح أو ما جمع أنواع الألم كلها .

فقد يتألم الجسد ولكن تكون النفس مطمئنة راضية وكذلك الروح ، وهو ما يحصل للمؤمنين عند اصابة أجـــادهم بالآلام اذا كانت قلوبهـــم راضية عن قضـــاء الله وقدره ، ويشبهه ما يحصل للمريض اذ يتوجع من الم الجراحـــة الضرورية لشفائه ، ونفسه وروحه مطمئنتان لذلك راضيتان به .

وقد تتألم النفس وتكون الروح راضية مطمئنة ، ويحصل هذا للمؤمنين ايضا ، ويشبهه تألم نفس الأم لآلام ولدها الذى يتوجع من ألم الجراحة الضرورية لشفائه من مرضه .

ولكن الروح متى مسها الألم فقد مس صاحبها أشد أنواع العذاب ، ولا يحصل هذا الا للكافرين الذين يحل بهم عقاب الله ، لأنهم لا يجدون لأرواحهم مفرا من العذاب او ملجأ تطمئن فيه .

والعذاب فى الحياة الدنيا الذى وعد الله به هؤلاء المشركين يكون بالخذلان والقتل والأسر على أيدى المؤمنين ، كما يكون بعقوبات الله الأخرى .

ولا يقتصر وعيدهم على عذاب الحياة الدنيا ، فان لهم عذابا فى الآخرة أيضا .

(ولعذاب الآخرة اشق) اى أثقل واشد ايلاما ، وأشق أفعل تفضيل من المشقة ، يقال لغة : شق عليه الأمر يشق شقا ومشقة اى ثقل واشتد وذلك لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فى كميته وفى كيفيته ، فهو أقوى واكثر انواعا ودواما .

وفى الكلام مضاف محذوف تقديره : ولعذاب الحياة الآخرة ، لأنها فى مقابل الحياة الدنيا .

(وما لهم من الله من واق) :

(واق) : اسم فاعل من وقى يقى وقاية فهو واق ، والوقاية هى ما يحجز او يدفع الأذى والضر .

والمعنى : فمالهم من واق يقيهم من عذاب الله ، فيكون (من الله) على تقدير مضاف محذوف ، اى من عذاب الله ، ويحتمل أن تكون (من) على معنى البدلية اى وما لهم بدل الله من واق ، أو التقدير : وما لهم من جهة الله — أى من رحمته — من واق يدفع عنهم عذابه .

و **(من)** فى قوله تعالى : **(من واق)** زائدة لتأكيد العموم ، لأنها وقعت فى سياق النفى .

٧ — قوله تعالى :

« مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » (٣٥) .

(مثل الجنة) : أى صفة الجنـــة ، ومثل الشيء هو ما كان بينه وبينـــه مشابهة ما ، والصورة الكلامية المعبرة عن شيء انما هى مشابهة فى دلالتهـــا لواقع ذلك الشيء ، ومن ذلك تسمى الصورة مثالا وتمثالا ، ويقـــال : مثل له الشيء اذا صوره ، ومنه قوله تعالى : **(فتمثل لها بشرا سـويا)** أى أتاها فى صورة بشر سوى .

و **(مثل الجنـــة)** مبتدأ خبره جملة **(تجرى من تحتها الأنهار ...)** أى قولنا : تجرى من تحتها .

(وعد المتقون) : أى وعدها المتقون أو وعد بها المتقون .

(تجرى من تحتها الأنهـــار) : أى تجرى فى أرضها فتكون **(من)** بمعنى **(فى)** أو تجرى من تحت قصورها ، فتكون **(من)** لابتداء الغاية .

(أكلها دائم وظلها) : ثمر أشجارها دائم ،و ظلها دائم .

(تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) : أى الجنـــة جزاء الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وعملوا صالحا ، وجزاء الكافرين بربهم النار .

المعنى : ولما دعى السـياق الى بيان وعيـــد الكافرين فى الآخرة كان من مقتضى التقابل الذى التزمه القرآن غالبا فى هـــذا الموضوع أن يعيـــد الله ذكر ما وعد به المؤمنين فى الآخرة ، ولكن الاعادة لا بد أن يرافقها مزيد من التفصيل والبيان عما جاء فيما سبق من السورة ، لذلك أعطى الله الجنـــة هنـــا بعض الصفات المشوقة اليها والمرغبة فيها ، فقال تعالى : **(تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها)** أى وظلها دائم .

فهى جنـــة ذات نعيم مادى ومعنوى لحيـــاة أخرى مادية وروحيـــة ، وليست حياة روحيـــة مجردة عن المادة كما يزعم بعض الفلاســـــفة وبعض أصحاب الملل الذين حرفت أصول دياناتهم الحقة .

وتلك الجنة الرفيعة المقـــام هى جزاء الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وعملوا صالحا ، فهم يدخلونها ويخلدون فيها ، بسبب ما قدموا من ايمـــان وعمل صالح ، وجزاء الذين كفروا بربهم فبعدوا عن كل خير فى الحياة الدنيا النـــار العظيمة التى أعدها الله للمجرمين .

ثم ينتقل السياق الى لون آخر من ألوان الصراع الذى جابهه الرســـول صلوات الله عليـــه فى دعوته ، انه صراع مع أهل الكتاب من يهود ونصـــارى ، فتعرض طائفة من الآيات التالية لمحة من عناصر هذا الصراع ولمحة تعليميـــة

للرسول في مجابهة الحوادث ، ولمحة تربوية لنفسه وقلبه ، وذلك في الآيات (٣٦ و٣٧ و ٣٨) .

٨ ـ قوله تعالى :

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل انما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه مآت » (٣٦) .

(**والذين آتيناهم الكتاب**) : هم احزاب اليهود والنصارى ، وقيل : من دخل في الاسلام منهم ، والمراد بالكتاب التوراة ، أو ما يعم الكتب التى انزلت على بنى اسرائيل ، وقيل : هم المسلمون عامة ، والمراد بالكتاب القرآن ، ونرجح القول الأول منها .

(**يفرحون بما انزل اليك**) : اى ان اهل الكتاب يفرحون بما أنزل الله اليك اما من آمن منهم فيفرحون كل الفرح به لأنهم قد جمعوا بين الحسنيين فانتقلوا من الدين المنسوخ الى الدين الناسخ ،واما الذين لم يؤمنوا منهم فيفرحون نوع فرح بما انزل اليك من آيات الله ، لأن فيها تصديقا لأنبيائهم وكتبهم فهم يجدون فى ذلك قوة لدينهم ضد مشركى العرب الذين لا كتاب لهم ، كيف لا يفرحون ؟ وهم فى البلاد العربية بالنسبة الى العرب المشركين قلة غير ذات شوكة ، وهذا نظير ما تعرض اليه المسلمون اذ كانوا قلة مضطهدين فى مكة ، فلما وصلت اليهم انباء القتال بين فارس والروم صاروا يتمنون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، أما المشركون فكانوا يتمنون ان تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان .

(**ومن الاحزاب من ينكر بعضه**) : اى ومن كل حزب من احزاب اليهود والنصارى ، وهم الذين لم يسلموا منهم ، طوائف ينكرون بعض ما أنزل اليك، لما فيه من تكفيرهم ، وكشف تحريفاتهم فى دينهم ، وبيان فساد كثير من عقائدهم ، لذلك فهم يساومون الرسول على دينه ، ليحذف من القرآن الآيات التى تكشف باطلهم ، أو تصفهم بالكفر ، أو تهاجم معتقداتهم .

وسمى الله أهل الكتاب هنا أحزابا لأنهم جماعات متفرقة ، لاتجمعهم عقيدة واحدة .

(**قل : انما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه مآب**) :

(**مآب**) : اى مآبى ، والمآب هو المرجع ، وقرىء (**واليه مآبى**) .

والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب : ليست مهمتى استرضاءكم ، وليس الغرض مما أنزل على مما فيه تصديق لما معكم استجداء معونتكم ، ومساعدتكم

ضد المشركين ، ولكنني رسول من عند الله مأمور بأن أعبد الله ولا أشرك به واذا كنت أحارب الشرك الذي عليه قومي فلأن الله أمرني بذلك ، لا لأسترضيكم وأستجدي مساعدتكم ، فاذا كنتم تتصورون او تزعمون أني أدعو الى عبادة الله وحده وعدم الاشراك به ، واهاجم ما عليه قومي من وثنية وشرك موافقة لكم في بعض أصولكم لأجد عندكم عونا ضد قومي ، فهو تصور خاطيء ، وزعم باطل ، وذلك لأنني ما أمرت من قبل الله الذي أرسلني الا بأن أعبده وحده ولا أشرك به ، لذلك فأنا اليه وحده ادعو لا الى غيره ، واليه وحده مآبي ومرجعي في كل أمر من أموري ، كما أن اليه مرجعي يوم الدين .

٩ ــ قوله تعالى :

« وكذلك انزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق » (٣٧) .

(وكذلك انزلناه) : الضمير في **(انزلناه)** عائد الى **(ما)** من قوله تعالى في الآية السابقة : **(بما انزل اليك)** .

(حكما) : الحكم هو القول الفصل المبين للحق ، ويتناول ضروب خبر الكلام وانشائه .

(عربيا) : ولما كان الحكم قولا مبينا للحق صح أن يوصف بأنه عربي ، لأن لفظ القرآن عربي ، هذا اذا جعلنا لفظ **(عربيا)** صفة لـ **(حكما)** اما اذا جعلناه حالا ثانية للقرآن فان من أوصاف القرآن المعروفة للفظة انه عربي ، والتقدير : وكذلك انزلنا القرآن حالة كونه حكما وحالة كونه عربيا ، على تأويل **(حكما)** بمشتق أي فاصلا مبينا للحق .

والمشار اليه في قوله تعالى : **(كذلك)** هو الكتاب من قوله تعالى في الآية السابقة : **(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك)** .

والمعنى : ومثل ذلك الكتاب الشامل للكتب المنزلة على بني اسرائيل بلسانهم انزلنا القرآن قولا فصلا مبينا للحق عربيا .

ولما كان الله هو المنزل لجميع الكتب السماوية فان حكمته اقتضت في الكتب السابقة أن ينزلها بألسنة غير عربية ، كما اقتضت في القرآن أن ينزل بلسان عربي مبين .

وقد ورد هذا البيان عن القرآن متضمنا الرد غير الصريح على من قال من اهل الكتاب : ان محمدا يأخذ قرآنه عن بعض العلماء بالكتب السابقة :

ومضمون هذا الرد أن الكتب السابقة منزلة من عند الله ، وكذلك هذا القرآن منزل من عند الله ، والكتب السابقة قد انزلت بألسنة غير عربية ، وهذا القرآن قد انزل بلسان عربي ،أي وبما أن لفظه العربي معجز استحال أن يكون مترجما عن اية لغة اخرى بحسب قدرات الناس .

وقد جاء الرد صريحا في غير هذه السورة ، وذلك في قوله تعالى : **(لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)** (١) .

وقد اتخذ اهل الكتاب بعد فرحهم المبدئي بما أنزل على محمد طرقا لمساومته على دينه وعلى دعوته ، منها الأمور التالية :

(أ) أن يقر لهم واقعهم ولا يعتبرهم كافرين اذا لم يتبعوه ويدخلوا في دينه .

(ب) أن يحذف من القرآن ما فيه مهاجمة لهم أو لعقائدهم .

(جـ) أن يعود الى التوجه الى المسجد الأقصى في الصلاة بعد أن حوله الله عنه ، وامره بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام .

وقد تولى الله الرد عليهم ، وذلك بأسلوب واحه فيه الرسول بقوله التالي :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق) :

(ولي) ناصر .

(واق) : اسم فاعل من وقى يقي وقاية .

والمعنى : ولئن اتبعت أهواءهم فقبلت مساوماتهم على دينك بغية استرضائهم ، واستجداء مساعدتهم أو مهادنتهم بعد ما جاءك من العلم الرباني والحكم الالهي ما لك من الله من ولي يتولاك وينصرك ، ولا واق يقيك من عذابه .

وفي صورة هذا النص تحذير شديد للرسول من قبول مساومات أحزاب اهل الكفر ، مهما كان نوع كفرهم ، وفي فحواه اشعار لهم بأن أمر الدين ليس من عند محمد حتى يستطيع التصرف في عقائده ومبادئه وشرائعه ، وانما هو من عند الله ، ولو أن محمدا فعل شيئا من ذلك لأخذه الله بعقابه ، ومن هذا القبيل قول الله تعالى : **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين)** (٢) .

كما أن فيه تهديدا شديدا لمن تحدثه نفسه من المسلمين بمداهنة أهل الكفر ومساومتهم على دينه ، لأن الله قد خاطب بهذا الخطاب الشديد رسوله

---

(١) النحل الآية ١٠٣

(٢) الحاقة الآية ٤٤ — ٤٦

المصطفى عنده ، الذى لا يمكن ان يفعل شيئا الا ان يأذن الله له به ، فما يكون حال غيره لو فعل شيئا من ذلك ؟ .

ومحل قوله تعالى : (**من الله**) اما حال من قوله : (**من ولى ولا واق**) اى ما لك من ولى ولا واق حالة كونهما من الله ، وعلى هذا اما ان تكون (**من** ابتدائية أو بدلية ، اى ما لك من ولى ولا واق مبتدىء من الله ، أو ما لك من ولى ولا واق بدل الله . واما متعلق بـ (**ولى**) ويقدر لواق مثله ، اى مالك من ولى ينصرك من عذاب الله ولا واق يقيك منه .

وبعد عروض المساومة اخذ اليهود يهاجمون الرسول فى سلوكه الانسانى البشرى ، فقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة الا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا كما زعم لشغله امر النبوة عن النساء .

ولم يقل اليهود مقالتهم هذه عن قناعة فى نفوسهم لأنهم يعلمون من أمور انبياء بنى اسرائيل ورسلهم ان الزواج من سنن الأنباء ، وانما غرضهم أن يفتنوا اصحاب الرسول عنه ، وا ن يضللوا المنافقين الذين لم يدخل الايمان الى قلوبهم ، وان يوقفوا تدفق العرب الى الدخول فى الاسلام ، فتولى الله الرد عليهم عن طريق خطابه للرسول صلوات الله عليه ، بما يلى :

١٠ ـ قوله تعالى :

« ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية » (٣٨) .

اى فليس أمرك بدعا فى الرسل ، فانت بشر عندك غرائز البشرية كما ان الرسل من قبلك كانوا بشرا ، وانت معرض لأن يكون لك ازواج وذرية كما كان الرسل من قبلك لهم ازواج وذرية .

واليهود الذين القوا هذه الشبهة هم أعرف الناس ببطلانها ، لأنهم يعرفون أن انبياء بنى اسرائيل لم تمنعهم نبواتهم عن التزوج بالنساء ، وان نساء سليمان قد زدن على المائة ، الى غير ذلك من عوارض البشرية التى كانوا يتعرضون لها او يمارسون شيئا منها بارادتهم .

وبعد هذه العارضة التى عرضت جانبا من صراع الدعوة مع اهل الكتاب فى هذا القسم الأخير من السورة الموجه ثقله لتربية الرسول صلوات الله عليه ، ولتسليته ولمعالجة خلجات نفسه ، يعود السياق الى استكمال تربية الرسول فيما يتعلق بأحواله ومشكلاته مع المشركين .

وكان الله جل ثناؤه ادمج هذه العارضة فى موضوع صراع الرسول مع المشركين من العرب لأن مشكلاته مع اهل الكتاب داخل البلاد العربية فى ذلك

الوقت كانت بمثابة الشيء العارض فى حيـاة الرسول يومئـذ ، قبل أن يكون للرسول صلوات الله عليه داخل الجزيرة قوة تستشرف الى ما وراءها .

بعد هذه العارضـة تأتى حركة نفس لرسـول نحو تلبيـة طلب المشركين الآيات التى اقترحوها وضرورة معالجتها بتربية الهية .

ويظهر أن الرسول صلوات الله عليه لما وجد أن الله قد منحه القدرة على تلبية اقتراحاتهم اذ قال له : **(ولو أن قرآنا سيرت به الجبـال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى)** اذا قدرنا أن جواب **(لو)** المحذوف لكان هذا القرآن بدات نفسـه تميل الى تلبية طلباتهم منتظرا الاذن من الله به ، لذلك أنزل الله عليـه ما يلى :

١١ ــ قوله تعـالى :

((وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب)) (٣٨) .

وفى هذا يبين الله لرسـوله أنه ليس من شـأن أى رسول ــ ولو أعطـاه الله القدرة على الاتيان بالمعجزات ــ أن يأتى بمعجزة منها الا اذا أذن الله له بذلك .

ونظيره فى تصرفاتنا الانسانية أن نسلم أمين الصندوق مفتاح صندوق المال ، ونسلط يده على فتحـه واخراج المال منـه فى كل وقت ، ثم نقول له لا يجوز لك أن تخرج منه شيئا الا اذا جاءك اذن منا بذلك .

ويحمل هذا النص وجهين :

الوجه الأول : يقصد به تربية الرسول وتحديد صلاحياته .

الوجه الثانى : يقصد به البيان للمشركين الذين يطالبون الرسول بأن يأتيهم بالمعجزات المادية التى اقترحوها ، وذلك باعلامهم أن الرسول لا يستطيع أن يأتى بالآيات الا اذا أذن الله له ، ولو كان عنده القدرة على الاتيان بها .

أما قوله تعالى : **(لكل أجل كتاب)** ففيما يلى بيان المراد منه :

(الأجل) : يأتى لعدة معان :

(أ) فهو الوقت المحدد لحصول الشيء أو ابتداء زمانه .

(ب) وهو غاية الوقت المحدد للشيء .

(جـ) وهو المدة المضروبة للشيء المحصورة بين أول وآخر .

قال الله تعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (١)

---

(١) النحل الآية ٦١

أى فاذا جاء الوقت المحـدد لموتهم أو اذا انتهى الوقت المضروب لحياتهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

وقال تعـالى : **(يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجـل مسمى فاكتبوه)** (١) أى اذا تداينتم بدين الى مدة مسماة بينكم لتأخير الوفاء فاكتبوه.

(الكتاب) : هو فى الأصـل مصـدر كتب كتـابا واسـم للصحيفة المكتوبة ، وتطلق الكتابة مجازا على معان عديدة ، منها : الاثبات ، والتقدير ، والايجاب ، والعزم ، لأن الشىء يحدد أولا بالارادة ، ثم تعلن الارادة بالقبول ، أو بوسيلة اخرى من وسـائل التعبير ، فاذا أريد تثبيته تثبيتا جازما كتب فى كتاب ، ومن أجل ذلك قد تطلب الكتابة على الارادة الجازمة ، اشعـار بأن الجـزم بهـا بلغ مبلغ الكتاب ، ومنـه قوله تعـالى : **(قل لن يصيبنـا الا ما كتب الله لنـا)** (٢) .

كما تطلق الكتابة فى جانب الشىء المأمور به على الايجاب ، ومنـه قوله تعالى : **(كتب عليكم الصـيام كما كتب على الذين من قبلكم)** (٣) أى فـرض عليكم .

ومعنى **(لكل أجل كتاب)** : لكل وقت محدد من أوقات المستقبل كتاب مسجل فيه ما أراد الله حدوثه فى ذلك الوقت من ايجاد أو اعدام أو أى شىء ، ولكل مدة حددها الله لانتهاء أى شىء كتاب ايضا مسجل فيه ما أراد الله منه .

ويدخل فى هذا التعميم شمول ارادة الله الجازمة لكل ما يحدث فى كل وقت من أوقات المستقبل ، ولكل امهال قدر الله بحكمته ان يبتلى به عباده ، وان هذه الارادة الجازمة معلنة على المأمورين بتنفيذها من الملائكة ، ومسجلة لهم فى كتب ، فلا مجال لاستعجال أمر قدر الله تأجيله ، ولا لتأجيل أمر قدر الله تنجيزه .

أى فأرح نفسك يا محمد من أن يخالجها رغبة بتعجيل ما يستعجلونه من عقاب ، فلكل أجل كتاب .

قال بعض أهل التأويل : ان الكلام على القلب ، واصله لكل كتاب أجل ، وقد قلب رعاية للفاصلة ، وأرى هذا التأويل يفسد المعنى المراد ، لأن المعنى عليه يكون كما يلى : لكل كتاب كتبه الله وقت سيأتى تحقيقه فيه ، وهذا المعنى مخالف للواقع لأن المكتوبات الالهية لا تقتصر على ما سيحدث فى المستقبل ، اذ فيها مكتوبات تناولت الحقـائق التى لا ترتبط بزمن ، كحقائق الألوهية

---

(١) البقرة الآية ٢٨٢
(٢) التوبة الآية ٥١
(٣) البقرة الآية ١٨٣

وصفاتها ، وفيها مكتوبات تناولت ما مضى وانقضى من الأحداث ، فلم تعد ازمانها التى حدثت فيها آجالا ، لأن الآجال انما هى للازمنة الآتية .

والتحقيق هو ما ذكرناه وان الكلام على ما هو عليه فى صيغته لا قلب فيه، وان سداد المعنى وموافقته للواقع يقتضيان أن يقال :

(لكل اجل كتاب) .

١٣ ـ قوله تعالىٰ :

« يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب » (٣٩) .

(المحو) : ازالة الأثر من كتابة أو غيرها ، وعكسه الاثبات .

(ام الكتاب) : اى أصل كل الكتب ، والمراد منه اللوح المحفوظ ، او علم الله .

وأم الكتاب غير قابل للمحو ، لأن علم الله بما سيكون لا يمكن أن يخالف الواقع ، ولو كان قابلا للمحو لا نقلب العلم جهلا .

والمعنى : يمحو الله ما يشاء محوه من المكتوبات ، ويثبت ما يشـاء اثباته فيها ، وعنده الأصل لكل الكتب التى يطلع عليها وملائكته ، وهذا الأصل الذى استأثر الله به لنفسه غير قابل لتغيير أى شيء فيه .

هذا ما يوحي به قوله تعـالى : **(يمحو الله ما يشـاء ويثبت وعنده ام الكتاب)** .

وقد كثرت اقوال المفسرين فى الأمور التى هى محل للمحو والاثبات ، ونرى ان يبقى النص على اطلاقه دون تقييد بنوع من الأمور التى ذكروها ، لأن المحو والاثبات غير مقيدين فى النص الا بمشيئة الله ، والله أعلم بالأمور التى يشـاء محوها أو يشاء اثباتها ، وقد أخبرنا بأنه يمحو ما يشـاء من الكتب ويثبت فيها ، واخبرنا بأن عنده ام الكتاب ، اى الذى هو الأصل لكل صـور المحو والاثبات ، فهو اذن لا محل فيه لمحو ولا تغيير .

ولما كان قوله تعالى **(يمحو الله ما يشاء ويثبت)** عقب قوله تعالى : **(لكل اجل كتاب)** دلنـا ذلك على أن هذه الكتب التى اثبت فيها ما يحـدث فى كل اجل قابلة بمشيئة الله لمحو ما اثبت فيها ، واثبات ما لم يكن مكتوبا فيها .

وفى هذه الآية جواب عما قد يدور فى الانفس من أشكال مفاده : اذا كان كل ما سيحدث فى الأزمان الآتية مما تتعلق به ارادة الله مكتوبا مثبتـا فائدة الدعاء والالتجاء الى الله تعالى فى أن يدفع المصائب ويحقق الرغائب ؟ .

ومضمون الاجابة يقضى بأن لا نترك الدعاء والالتجاء لأن الله يمحو من صحف ملائكته ما يشاء ، ويثبت فيها ما يشاء ، فرب أمر مكتوب على العبـد

معلق محو؛ فى علم الله على عمل يفعله ذلك العبد ، فاذا فعله محا الله المكتوب فى صحيفته ، ورب أمر غير مثبت فى صحيفة العبد معلق اثباته فى علم الله على عمل يكون منه ، فاذا فعله أثبت الله ذلك الأمر فى صحيفته ، وعلم الله الذى هو أم الكتاب أو الأصل لأم الكتاب اذا فسرنا أم الكتاب باللوح المحفوظ ، لا يعزب عنه ما سيفعل العبد ولا ما سيحصل فى الكتب من محو واثبات بمشيئة الله تعالى .

هذا ما تحصل لدينا فى تفسير المراد من هذه الآية والله أعلم .

وبهذا يتبين لنا أن تسلسل نظم الآية يفيد استدراكا على استدراك ، لأن قوله تعالى : **(لكل أجل كتاب)** يوهم انه لا محو ولا أثبات فى الكتب فلا فائدة من الكسب والعمل ، فدفع الله هذا الايهام بقوله : **(يمحو الله ما يشاء ويثبت)** وهذا يوهم التغيير والتبديل فى علم الله ومراداته فدفع الله هذا الايهام بقوله : **(وعنده أم الكتاب)** .

١٣ ــ قوله تعالى :

وان ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب . (٤٠) .

(وأما نرينك) : **(أما)** مركبة من **(ان)** الشرطية الجازمة و **(ما)** الزائدة للتوكيد .

(بعض الذى نعدهم) : الضمير يعود على المشركين أو على الكافرين عامة ، وقد وعدهم الله بالعذاب المعجل فى الحياة الدنيا ، وهو ما نصت عليه الآية (٣٤) السابقة **(لهم عذاب فى الحياة الدنيا)** والوعد كما سبق يكون فى الشر ويكون فى الخير ، والأغلب أن يستعمل الوعيد فى جانب الشر .

(أو نتوفينك) : اى نوفيك أجلك فى الحياة الدنيا ، فاذا استوفى أجله رحل الى ربه .

(فانما عليك البلاغ) : اى ما عليك الا البلاغ ، والبلاغ اسم بمعنى التبليغ ، وفى هذا عود الى بيان مهمة الرسول ، وهى التبليغ ، وأنه ليس مسؤولا عن هدايتهم ولا عن محاسبتهم .

والظاهر أن قوله تعالى : **(لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك)** فى الآية (٣٠) قد سيق لبيان أنه ليس مسؤولا عن هدايتهم بمعنى تحويلهم من الكفر الى الايمان ، وقوله تعالى هنا : **(فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)** قد سيق لبيان أنه ليس مسؤولا عن حسابهم ، ولذلك قال تعالى : **(وعلينا الحساب)**

اى ليس عليك حســـابهم ، فلا تحدثك نفسك بتعجيل ما استعجلوه لأنفسهم من عـــذاب .

ونلاحظ ان تربية الله لرسوله قد بلغت مبلغ التأكيد الشـــديد اذ اكد له الفعلين بنون التوكيد الثقيلة ، وذلك لمعالجة ما يعتمل فى نفسه من الرغبـــة بتعجيل العذاب للكافرين حسب طلبهم ، وبخاصة بعد أن قابلوا امهال الله لهم بالاستهزاء والسخرية بالرســـول ، وكأنهم قد وجدوا الحجة لاعلان أنه ليس مرســـلا من عند الله اذ اقترحوا الآيات فلم يأت بهـــا ، فاستعجلوا العذاب فأمهلهم الله .

فاقتضى حال الرســـول صلوات الله عليـــه أمام هـــذا الموقف الحرج أن يخاطبه الله بمثل هذا الخطاب الذى فيـــه ذروة تسكين النفس من جهـــة ، وتحديد المهمة من جهـــة أخرى .

والمعنى : واما نرينك يا محمد بعض الذى نعدهم وانت على قيد الحياة ، او نتوفينك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك من المسؤوليـــة فى كل الأحـــوال الا التبليغ فقط ، أما التحويل من الكفر الى الايمان فهم المسؤولون عنه ، وأما الحساب أى وما يتبعه من جزاء فهو علينا ، وما عليك من حسابهم من شىء .
ووفى قوله تعالى : **(بعض الذى نعدهم)** اشـــعار بأن الله على كل حال سيقبض الرسول اليه قبل أن يريه كل ما وعـــد الكافرين من عذاب عاجل فى الحياة الدنيـــا .

وبعد هذا الموقف الحازم من التربية الالهيـــة للرسول صلوات الله عليه ، المحاطة بالجلال يعود السياق الى تسليته ، وتطييب نفسه ، والتنفيس عنه بأسلوب مشرق بالجمال ، يحمل بشائر النصر ، وذلك فى .

١٤ ـــ قـــوله تعـــالى :

أو لم يروا انا نأتى الأرض ننقصها من اطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه . وهو سريع الحساب . (٤١) .

(أو لم يروا) : فاعل يروا يحتمل ان يكون عائدا الى الذين آمنوا فى قوله تعالى : **(افلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا)** ويحتمل ان يكون عائدا الى المشركين .

فعلى الاحتمـــال الأول يكون المراد تطييب قلوب المؤمنين وتطمينهم بلفت نظرهم الى بشائر النصر .

وعلى الاحتمـال الثانى يكون المراد قطع جدال المشركين اذ يتحـدون الرسول باستعجال السيئة ، ولفت نظرهم الى ما أعـد لهم من عذاب أشد ، فقد بدأت طلائع العذاب تدنو منهم .

ولا إرى مانعـا من أن يكون المقصود بالكلام هؤلاء وهؤلاء ، وعليه تكون الغاية من النص مزدوجة ، وتعدد القصد فى النص الواحـد كثير فى أساليب القرآن ، وهو من روائعه .

والاستفهام فى قوله : **(أو لم يروا)** استفهام تقريرى .

(أنا نأتى الأرض) : اى نأتيها بقضائنا وحكمنا ، أو بعذابنا وعقابنـا ، والمراد من الأرض الأرض المعهودة ، وهى التى تقع تحت سـلطان المشركين ، وتدخل فيها ارض مكة دخولا اوليا عند نزول النص .

(ننقصها من اطرافها) :

(ننقصها) : فعل نقص يستعمل متعـديا ولازما ، تقول : نقصت الشىء اذا اخـذت طائفـة منـه فقللت بذلك مقداره ، وتقول : نقص الشىء اذا قل مقداره ، والفعل هنا فى الآية على التعدية .

(من أطرافهـا) : الأطراف جمـع طرف بفتحتين ، وجمع طرف بكسر فسكون ، وجمع طرف بفتح فسكون .

أما الطرف بفتحتين : فمعناه فيما يلى :

قال اهل اللغة : طرف كل شىء منتهاه وجمعه أطراف . وقالوا : الطرف الناحية من النواحى ، والطائفة من الشىء وجمعـه أطراف . وقالوا : طرف القوم رئيسهم وشريفهم والجمع أطراف . وقالوا : الطرف الطائفة من الناس والجمع أطراف ، ومنه قوله تعـالى : **(ليقطـع طرفا من الذين كفروا)** أى طائفـة .

وأما الطرف والطرف : فيطلقـان على الكريم من الفتيـان والرجال وجمعهما اطراف .

وبنـاء على ذلك يمكن تدبر المعنى المراد من قوله تعـالى : **(ننقصها من اطرافهـا)** وفيما يلى بيان ذلك .

ان جو المعنى للآيات السابقة واللاحقـة يوحى بأن الغرض من هذه الآية تطييب قلوب المؤمنين وتطمينهم بلفت نظرهم الى بشائر النصر ، وقطع مجادلة

المشركين للرسول وتنبيههم الى طلائع العذاب الذى سيتوالى عليهم فقد بدأت مقدماته .

وبناء على هذا ينبغى أن يكون نقص الأرض من أطرافها شيئا يتعلق بما لحق الكافرين قبل نزول الآية من نقص فى أشخاصهم أو فى سلطانهم على الأرض أو فى أموالهم فيها ، ونجد فى المعانى اللغوية لكلمة الأطراف كل ذلك .

فاذا كان الأمر الواقع قبل نزول الآية أن المشركين قد فقدوا بالقتل أو بالأسر أو بالموت أشرافا منهم أو طائفة من فتيانهم ورجالهم ذوى المكانة فيهم فالمراد من نقص الأرض من اطرافها هو نقص ارضهم من هؤلاء . ويحتمل أن يكونوا قد فقدوهم اذ دخلوا فى الاسلام ، وبذلك تكون أرض المشركين قد نقصت من أشرافها وفتيانها ورجالها ، وزادت أرض الاسلام بالمسلمين .

واذا كان الأمر الواقع قبل نزول الآية ما حصل من انتصار لبعض سرايا المسلمين على المشركين وامتداد سلطان المسلمين بقيادة الرسول صلوات الله عليه على أقسام من الأرض التى كان المشركون هم اصحاب السلطان عليها ، فالمراد من نقص الأرض من اطرافها تقليص نفوذ المشركين على نواح من الأرض وبسط نفوذ المسلمين عليها . واذا كان الأمر الواقع قبل نزول الآية هذا وذاك فالمراد الأمران جميعا والله أعلم .

(والله يحكم لا معقب لحكمه) :

(يحكم) : اى يقضى ويفصل فى كل أمر بالحق .

(معقب) : اسم فاعل من عقب تعقيبا ، والمعقب هو الذى يتتبع افعال غيره بالنقد . وبالنقض . يقال : عقب الحاكم على حكم من قبله اذا تتبعه وظهر فساد حكمه أو نقضه .

والمعنى : والله يحكم فى اى امر فى حال انه لا معقب لحكمه لأن احكامه احكام حق وعدل ، فهى مستندة الى علمه المحيط بكل شىء صغيرا كان أو كبيرا ، ظاهرا كان أو خفيا .

(وهو سريع الحساب) : اى وهو لا يحتاج فى اصدار احكامه جل ثناؤه الى اناة وروية ، حتى يحصى اجزاء ما يحكم به ، ويجرى لها حسابات أولية ، ثم تدقيقات عليها ، ثم تحقيقات ليتحقق من صحتها ، وينكشف له وجه الحق فيها ، فان بطء الحساب من صفات المخلوقين ، أما الله سبحانه فهو سريع الحساب ، لا يخفى عليه من الحساب شىء .

وأصل الحساب العلم بالأعداد واحتمالات جمعها وتفريقها ، ولما كانت الأحكام التى يحكم بها الله على عباده لا بد ان يلاحظ فيها مفردات أعمالهم الكبيرة والصغيرة حتى الذرات منها كان العلم بها والنظر فيها حسابا .

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير على طريقة الالتفات فى قوله تعالى : **(والله يحكم)** عقب قوله : **(أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها)** اشارة الى أن من الصفات اللازمة التى تجب لله تعالى كونه سريع الحساب ، وذلك لأن الربوبية والألوهية تستدعيان هذه الصفة .

وقد جاء هذا النص فى معرض وعد الله المؤمنين بالتأييد والنصر ، ووعيده المشركين بالخذلان والقهر ، مبينا أن ما ينجزه الله من أمر من أمور الجزاء انما يكون عن حكم عادل مستند الى حساب غير قابل للخطأ ، على الرغم من سرعته التى تسبق مرور الزمن .

١٥ ــ قوله تعالى :

« وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا . يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » (٤٢) .

(قد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا) .

(المكر) ، هو تدبير أمر فى خفاء عمن دبر عليه لصرفه عما يريد ، أو لايقاعه فيما لا يريد ، وقد سبق انه قد يكون مكرا مذموما اذا كان الأمر المدبر فيه مؤديا الى نتيجة مذمومة ، وقد يكون مكرا محمودا وذلك اذا كان الأمر المدبر فيه مؤديا الى نتيجة محمودة .

والضمير فى قوله تعالى : **(من قبلهم)** يعود الى المشركين ، ومعلوم أن موضوع السورة يدور حول الحديث عنهم .

أى ، فلا غرابة أن يكون منهم مكر بالرسول وبالدين الذى جاء به ، وبالمسلمين ، فقد سبقتهم أمم كثيرة كافرة مكرت بالرسل وبالرسالات وبالمؤمنين بها .

(فلله المكر جميعا) : جملة لا غموض فى تركيبها ، فهى مؤلفة من مبتدأ وخبر وحال ، ولكن ما هو المعنى المراد من كون المكر كله لله ؟

لقد سبق أن عرفنا المكر ، وأنه قد يكون مكرا فى الخير وقد يكون مكرا فى الشر ، فلا بد أن نقول : ان المكر المنسوب الى الله انما هو من المكر فى الخير .
فلنتبين الحقيقة قبل تحليل النص :

١ ـ يتصور الكافرون أنهم يدبرون خطط مكرهم فى خفـــاء ، وأن خططهم ستحقق لهم الظفـر بالرسل وبرسالاتهم التى من شأنهـــا أن تسلبهم نفوذهم وسلطانهم فى قومهم .

٢ ـ الله تعـالى مطلع عليهم لا تخفى عليـــه منهم ولا من أفعالهم ومخططاتهم خافية ، فما يظنونه خفيا هو معلوم لله تعالى .

٣ ـ يترك الله تعـــالى الماكرين يتابعون تنفيذ خططهم فى المكر وهو مطلع عليهم ، وقد دبر لهم من الأمر ما ليس فى حسبانهم ، حتى اذا ظنوا انهم قد قاربوا ان يقطفوا ثمـرة مكرهم فوجئوا بتدبير لا علم لهم به أفســد عليهم خططهم ، ووجدوا انفسهم قد سقطوا فى شركهم الذى نصبوه دون ان يعرفوا سقطوا فيه ، وعند ذلك يجدون أن مكرهم كان عليهم لا لهم .

وهنا نقول : ان المكر الذى يحاول أن يوجهه الكافرون لرسل الله ولدينه انما هو فى الحقيقة محاولة مكر بالله ، ولما كان الله مطلعا على ما يدبرون ، لأنه يعلم ما تكسب كل نفس ، سقط أن يكون ما يحاولونه فى حقيقة الأمر مكرا ، ولما كان الله فيما يمد لهم قد دبر لهم من حيث لا يعلمون ما يفســـد عليهم مكرهم ، ويوقعهم فى جزاء عملهم كان المكر فى الحقيقة لله ، لأن تدابير الله تعالى مجهولة لهم ونافذة فيهم لا محالة .

فأى التدبيرين فى الحقيقة وواقع الأمر هو المكر ؟ أتدبيرهم أم تدبير الله ؟ لا شك أنه تدبير الله ، لكن محالتهم قد كانت ابتغـــاء الشر ، وما دبره الله قد كان ابتغـــاء الخـــير .

ثم هل كان المكر الذى دبره الكافرون لهم ، أى لفائدتهم ومصلحتهم ، أم كان فى النتيجة لله ، أى لدينه ولرسوله وللمؤمنين ؟ لا شك أنه لله ، لأنهم قد فعلوا ما فعلوه ليمنعوا دين الله من أن يظهر وينتشر ، وليحافظوا على أوضاعهم فى أقوامهم ، فانقلب الأمر عليهم ، فكان ما فعلوه ســـببا فى أن يظهر دين الله وينتشر ، وأن يخسروا كل مكانـــة لهـــم فى أقوامهـــم ، وأن يخسروا أخيرا انفسهم ، وعلى مثل هـــذا يكون مكر الله ، لنشر دينـــه وتأييد الحق واقامة العدل ، لقد مكروا مكرا ومكر الله مكرا والله خير الماكرين .

ولذلك نجد من الخير الكبير تدبير الأمور بغـــاية الكتمان والسرية للظفر بالمجرمين اللذين يتوارون فى جرائمهم عن أعين السلطة الحاكمـة العـادلة ، ويدبرون مكائدهم فى الظلمات .

وعلى هذا نستطيع ان نقول : ان الذى يمكر بمن لا يخفى عليه مكره ولا يصل اليه أثره ، بل يعرضه مكره الي العقاب ، هو فى الحقيقة المكور به ، وهذا نظير قوله تعالى : (**يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون**) .

ونقرب صورة المكر الالهى بمثال انسانى،انسان عنده قصر عظيم طمع به اللصوص ، فدبروا امرا فى الخفاء ان يأتوا بليل ويحتفروا احد جدران القصر ، ويدخلوا اليه ، ويسطوا على ما فيه من مال ومتاع ويقتلوا من فيه ، وقد علم صاحب القصر بما دبروا ، وعرف الجدار الذى عزموا على نقبه ، ودبر خطة فى الجدار يهلكون فيها بايديهم ، دون أن يقاتلهم احد من رجال القصر ، ولما حان الوقت المقرر فيما بينهم جاءوا متسللين ظانين ان احدا لا يشعر بهم ، ولكن صاحب القصر وجنوده يراقبون كل حركة من حركاتهم ، وهم فى مكان يرون فيه اللصوص من حيث لا يرونهم ، واخذ اللصوص ينقبون الجدار حسب الخطة المدبرة ، ولما زعموا انهم كادوا يظفرون بما يريدون انقض عليهم الجدار فهلكوا تحت انقاضه .

لقد مكروا بزعمهم ومكرهم شر ، ولكن المكر فى الحقيقة لصاحب القصر ، ومكره خير ، لأن غرضه من مكره أن يمنعهم عن فعل الشر ويجازيهم عليه بأيديهم ، ويريح الناس من جرائمهم .

وبعد هذا البيان المسهب نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى : **فلله المكر جميعا**) .

لقد تبين لنا من التحليل السابق ان المكر فى الحقيقة وواقع الأمر كله لله ، لأن مكر الكافرين المعلوم لله والذى لا يحقق لهم اغراضهم ليس هو فى الحقيقة وواقع الأمر مكرا ، فلم يبق الا تدبير الله ، الذى هو المكر فى الحقيقة وواقع الأمر ، ولكنه ابتغاء الحق والعدل والخير .

ويحتمل أن نقول : ان اللام الجارة فى : (**لله المكر**) تمعنى : (**الى**) او بمعنى (**عند**) وعلى هذين يكون المعنى ينتهى الى الله المكر جميعا ، اى العلم به وما يترتب عليه من جزاء ، وعند الله المكر جميعا ، اى عند الله العلم به والجزاء عليه . ولكن البيان الأول هو الاسد فى تدبر معنى النص ، والله أعلم .

قال المفسرون فى قوله تعالى : (**فلله المكر جميعا**) اقوالا منها :

(أ) معناه أن مكر جميع الماكرين حاصل بخلق الله وارادته ، لانه تعالى خالق لجميع أعمال العباد ، وقد نقله المفسرون عن الواحدى .

(ب) معناه أن الله جزاء المكر ، وذلك انهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله انه يجازيهم على مكرهم .

(جـ) معناه ان مكرهم كلا مكر بالاضافة الى مكره تعالى ، وهذا ما اورده صاحب الكشاف ثم علق على قوله تعالى : (**يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار**) بقوله : لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون ، هم فى غفلة مما يراد بهم .

(**يعلم ما تكسب كل نفس**) : أى يعلم جميع ما تكسب كل نفس ، سواء اكان كسبا ظاهرا أو باطنا فى التطبيق والعمل أو فى النية والقصد ، وهذه الجملة فى منزلة التعليل لقوله تعالى : (**فلله المكر جميعا**) اى لأنه يعلم ما تكسب كل نفس فلا يخفى عليه من مكر الماكرين شىء .

(**وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار**) : وفى هذا وعيد للكافرين جزاء كفرهم ومكرهم يوم القيامة ، والمراد من عقبى الدار العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة ، وسيعلمون أنها لن تكون لهم ، وانما تكون للمؤمنين ، أما هم فجزاؤهم النار .

١٦ ـ قوله تعالى :

ويقول الذين كفروا لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب . (٤٣) .

ويختم الله آيات السورة بآية يعرض فيها خاتمة أقوال الكافرين ، ويأمر فيها رسوله بما ينبغى أن يقوله لهم اذ يختم معهم البحث ، وينفض يده من معالجتهم ، ويحسم النقاش ، لقد انتهى الذين كفروا الى مقالتهم الأخيرة مخاطبين الرسول بها (**لست مرسلا**) وذلك بعد الصراع المختلف الأنواع بينهم وبين الرسول ، وهو ما عرضته السورة بأشكاله المتنوعة التى سبق بيانها .

لقد طرحوا كل الحجج والبيانات التاريخية وراءهم ظهريا ، ولم يعبأوا بالتلميح بالانذار ولا بالتلويح بالوعيد ، ثم بالتصريح بهما ، ولم تؤثر فيهم انواع المعالجات النفسية ، بل اطمعهم الأمهال ، فجرأهم على الاستهزاء والسخرية بالرسول واستعجال العقاب ، ثم لم تهزهم من غفلتهم المواجهة القوية بالوعيد الصريح ، واخيرا لم يتعظوا بمقدمات العذاب وطلائع العقاب ، وظلوا يجترون مقالتيهم الأوليين ، وهما :

(أ) ان كنت صادقا فى رسالتك فاتنا بالمعجزات التى طلبناها .

(ب) اذا لم تأتنــا بالمعجزات التى طلبناها فاستعجل لنــا من ربك العقاب .

ولما أمهلهم الله قالوا للرســـول مقالتهم الأخيرة على ســـبيل الجزم : **(لست مرسلا)** وهذا ما ذكره الله بقوله : **(ويقول الذين كفروا لست مرسلا)** واخذوا يرددون هذه المقالة ، فقال الله لرسوله : **(قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنــده علم الكتاب)** وبهذا يقطع الرسول معهم حبل المناقشـــة ويحسم الجدل ، اى حسبى شهادتان :

الشهادة الأولى : أن يشهد الله لى بأنى رسوله ، وشهادة الله له فى الدنيا تكون بالمعجزات التى اعطاه اياها غير التى تعنتوا بطلبها ، وفى مقدمتها معجزة القرآن ، وهذه الشهادة الالهية له ستكون حجة عليهم يوم القيــامة .

الشهادة الثانية : أن يشـــهد لى من عنـــده علم الكتاب بانى رســول الله حقــا .

ومن عنده علم الكتــاب هم : اما المؤمنون الذين تكشف لهم من اعجاز القــرآن مادلهم على انه كلام الله حقا ، فعرفوا منذ ذلك ان محمدا رسول الله حقا ، واما المؤمنون من اهل الكتاب الذين عرفوا من صفات الرسول فى كتبهم والبشــائر به ما اثبت لهم انهم رســول الله حقــا ، ولذلك آمنــوا به واتبعوه .

ولما انقطع الجدل وحسم الأمر ، واصبح الموقف موقف انتظار حكم الله فى اهل الكفر ، انتهت السورة .

(ب) معنى الآيات من (٣٠ الى ٤٣) نصا واقتضاء :

وبعد أن وصل الرسول مع المشركين الى ما وصل اليــه وهو ما عرضته الآيات الســابقه فلابد ان يخالجه عدة امور بوصفه بشرا ، منها الأمور التاليــة :

الأمر الأول : أن يصعب عليه ويحزنه بقاؤهم على الكفر والشرك ، بعــد كل البينات التى ساقها اليهم ، والحجج الدامغة التى حاجهم بهــا ، وانواع التربيـــة التى تفنن فى اساليبها لمعالجة انحرافهم عن الحق وردهم الى الصراط المستقيم .

الأمر الثانى : أن تحدثه نفســه بأن يقول : لو اعطـــانى الله الآيات التى يتعنتون فى طلبها او اذن لى بان اقدمهـــا اليهم ، قطعا لالسنتهم عن طلب الآيات ، ورجاء أن يؤمنوا اذا رأوها قد تحققت على ما طلبوا .

الأمر الثالث : ان يمر على خاطره انزال العقاب بالمكابرين منهم الذين استعجلوا العذاب ، تخلصا منهم ، ولعل ذلك يكون سببا فى ايمان الآخرين ومبادرتهم الى الدخول فى دين الله .

الأمر الرابع : أن يحزنه ما يلاقيه منهم من استهزاء وسخرية جارحين للنفوس ومحزنين للقلوب .

الأمر الخامس : أن تخالج نفسه أمور أمام مساومات يتعرض اليها من قبل أهل الكتاب على بعض ما جاء به وهو فى قمة صراعه مع المشركين .

الأمر السادس : أن يتخوف مما يبيت الكافرون له ولرسالته والمسلمين من مكر ، وهو ما يتكشف له باستمرار من تدبيراتهم وأعمالهم مع امهال الله لهم .

الأمر السابع : أن تحزنه مواجهة الكافرين الصريحة له بقولهم : (**لست مرسلا**) من عند الله ، وذلك لأنه لم يأتهم بما طلبوا من آيات مع امهال الله لهم بعد استعجالهم العذاب .

وفى هذا القسم الأخير من السورة توجه الله ثقل تربيته لرسوله صلوات الله عليه ، معالجا ما يدور فى نفسه فعلا ، أو ما يمكن ان يدور فيها بأسلوب رفيع بالغ الروعة ذى وجهين : وجه ينظر اليه الرسول فيشاهد فيه تربية له وتعليما ، ووعدا بالنصر والتأييد والمثوبة الحسنى ، ووجه آخر ينظر اليه الكافرون فيرون فيه حجة عليهم وبيانا ، أو انذارا لهم ووعيدا بالخذلان والعذاب وسوء العقاب ، وفيما يلى تفصيل ذلك :

اما الأمر الأول : وهو حزن الرسول لبقاء المشركين على كفرهم بعد كل الحجج والبينات وانواع التربية التى عالج اصلاحهم بها فقد جاءت الآية ٣٠) توجه للرسول التربية بالنسبة الى هذا الأمر ، وقد تضمنت تربية الله لرسوله فيها أمرين :

الأول : بيان الله لرسوله أن مهمته هى التبليغ فقط ، وذلك بأن يتلو عليهم ما أوحاه الله اليه فى حالة كونهم يكفرون بالرحمن ، واشعاره بأن هذه المهمة هى مهمة الرسل من قبله ، فليس عليه أن يحولهم من الكفر الى الايمان ، واشعاره ايضا بأن الأمم من قبلهم قد كانوا أيضا يكفرون بالرحمن ، فما مهمته اذن الا كمهمة سائر الرسل ، وليس واقع حال قومه بواقع غريب فى الأمم ، وهذا ما دل عليه قوله تعالى :

« كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها امم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن » (٣٠) .

الثانى : بيان الله لرسوله أن يصر على اقامة الحجة العقلية التى تبين لهم سلامة عقيدته وطريقته ، وفساد عقيدتهم وطريقتهم ، وذلك بان يقول لهم : الله وحده هو ربى ومن كان وحده هو الرب كان هو وحده المستحق للعبادة ، فهو اذن الاله الذى لا اله الا هو ، وهذا كاف فى رد ما يعتقدون من وجود شركاء الله تعالى : ولما كان هو وحده الاله الذى لا اله الا هو فانى أتوكل عليه ، وأرجع فى كل أمرى اليه ، كما أن اليه رجوعى يوم الدين ، وهذا ما دل عليه قوله تعالى :

« قل : هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » .

القسم الثـالث

معلومات عامة حول السنة والاجماع والاجتهاد

كتب هذا القسم د. مصطفى عبد الواحد

تعريف السنة :

السنة فى اللغة الطريقة والسيرة محمـــودة كانت او مذمومة . ومن استعملوها بهذا المعنى اللغوى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بهـــا الى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » (١) .

وفى اصطلاح المحدثين : ما اضيف الى النبى صـــلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة او سيرة . وعند علماء الأصول : ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير فالقول : هو ما تكلم به صلى الله عليه وسلم عما يتصل بامور الدين واحكام الشريعة كقوله صلى الله عليه وسلم : « **انما الأعمال بالنيات** » وقوله « **لا وصية لوارث** » وقوله : « **لا ضرر ولا ضرار** » .

وغير ذلك مما هو مذخور فى كتب الصحاح والمسانيد والسنن .

وأما الفعل فهو ما نقـله الصحـــابة رضوان الله عليهم من افعاله صلى الله عليه وسلم فى شئون العبادة والمعاملة والتشريع والخلق .

واما التقرير فهو كل ما اقره النبى صـــلى الله عليه وسلم من اقوال الصحابة وافعالهم سواء كان ذلك التقرير بسكوت منه وعدم انكار او باظهار الرضا والاستحسان .

فمن الأول : اقراره صلى الله عليه وسلم اجتهـــاد الصحابة فى امر صلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قـــال لهم صلى الله عليه وسلم « لا يصلين احد العصر الا فى بنى قريظة » .

فمنهم من اخذ بظـــاهر الامر فاخر صـــــلاة العصر حتى انتهوا الى بنى قريظـــــة . ومنهم من حمل هـــذا الأمر على معنى الحث على الاسراع فى الذهاب الى بنى قريظة ، فصلوا العصر فى وقتهــــا قبل بلوغ بنى قريظـــة . فبلغه صلى الله عليه وسلم ما فعله الفريقان فاقرهما ولم ينكر على أيهما .

ومن الثانى : ما روى ان خالد بن الوليد رضى الله عنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى طعـــام فقدم اليهما ضب فاكل منه خالد رضى الله عنـــه ولم ياكل منه النبى صلى الله عليه وســـلم ، فقال له بعض الصحـــابة أو حرام هو يا رسول الله ؟

فقال : لا ، ولكنه ليس فى ارض قومى فاجدنى اعافه .

فقد اقر صلى الله عليه وسلم خالدا على اكله الضب بتأييد قولى صريح .

---

(١) رواه مسلم

معنى الحديث :

الحديث في اللغة الجديد . نقيض القديم ـ ومادة الكلمة تدور حول معنى واحد وهو كون الشيء بعد ان لم يكن .

وفي اصطلاح المحدثين : هو ما اثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة . والحديث بهذا المعنى مرادف للسنة .

الخبر والأثر :

يرى جمهور العلماء ان الخبر والأثر لفظان مرادفان للحديث . ومن العلماء من فرق بين الحديث والخبر والأثر ؛ فجعل الحديث ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما جاء عن غيره (١) . وأما الأثر عند هؤلاء فهو الحديث الموقوف على الصحابة والتابعين .

الحديث الصحيح :

هو الحديث المسند أى الذى اتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط من اول السند الى منتهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا .

الحديث الحسن :

هو كالحديث الصحيح في اتصال سنده وفي خلوه من الشذوذ والعلة . ولكنه يتقاصر عن درجة الصحيح في ان الصحيح من شرطه أن يكون جميع رواته قد ثبتت عدالتهم وضبطهم واتقانهم ، وذلك غير مشترط في الحسن فلا يخلو رجال اسناده من مستور لم يتحقق اهليته غير انه ليس متهما بالكذب ولا كثير الخطأ او انه من المشهورين بالصدق والأمانة غير أنه لم يبلغ درجة
وله اقسام كثيرة بينها علماء الحديث (٢) .

الحديث الضعيف :

كل حديث لم تجتمع فيه صفات الحديث الصحيح ولا صفات الحديث الحسن .

وله اقسام كثيرة بينها علماء الحديث (٣) .

---

(١) قواعد فى علوم الحديث للتهانوى ص ٣٤ .
(٢) راجع علوم الحديث لابن الصلاح ٢٧ ـ ٣٩ .
(٣) يراجع علوم الحديث لابن الصلاح ص ٣٧ وما بعدها .

الحديث القدسي :

هو ما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل .
وقد اختلف العلماء في الحديث القدسي : هل هو موحى بلفظه ومعناه ؟
أم بمعناه ، واللفظ من النبي صلى الله عليه وسلم . وجهان .

واذا قلنا انه موحى بلفظه ومعناه فالفرق بينه وبين القرآن انه لا يراد بالحديث القدسي التحدي والاعجاز كما هو الشأن في القرآن .

ويرى بعض الباحثين أنه لو كان موحى بلفظه لما جازت روايته بالمعنى ، ولدون وحفظ كما حفظ القرآن . ومن هنا يرجح هؤلاء أن الحديث القدسي . موحى بمعناه اما لفظه فهو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي :

على قول من يرون الحديث القدسي موحى بلفظه ومعناه ، يكون الفرق بينه وبين الحديث النبوي أن الحديث القدسي هو من كلام الله سبحانه ـ وان لم يكن مقصودا به التحدي والاعجاز . أما الحديث النبوي فهو من كلامه صلى الله عليه وسلم .

اما على قول من يرون أن الحديث القدسي من لفظه صلى الله عليه وسلم فالفرق بينه وبين الحديث النبوي من جهة المعنى أن معنى الحديث القدسي وحى لا اجتهاد فيه ولا استنباط . أما الحديث النبوي فمنه طائفة أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم معناها وطائفة اخرى من اجتهاده واستنباطه . وهذا القسم الأخير ما دام قد أقره الوحى فهو منه أيضا .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) : فلما قطعنا في الحديث القدسي بنزول معناه لورود النص الشرعي على نسبته الى الله تعالى ، بقوله صلى الله عليه وسلم :

(قال الله تعالى) : سميناه قدسيا لذلك (٢) .

تدوين السنة :

(أ) في عهد النبي صلى الله عليه وسلم :

١ ـ كان الصحابة رضوان الله عليهم يتلقون السنة القولية والعملية من

---

(١) الحديث النبوي للاستاذ محمد الصباغ ص ٣٦ .
(٢) النبأ العظم ص ١٠ .

الرسول صلى الله عليه وسلم بحرص بالغ . اذ هى بيان للقرآن وتوضيح لمعالم الاسلام .

وكان التعويل فى الأعم على الحفظ . . اذ لم تكن الكتابة شائعة بين العرب وحين اراد بعض الصحابة فى اول الأمر كتابة حديث النبى صلى الله عليه وسلم نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه ».

واخرج ابن عبد البر عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث فأمر انسانا أن يكتبه فقال له زيد : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا لا نكتب شيئا من حديثه . فمحاه (١) .

وانما كان هذا النهى عن كتابة الحديث حتى لا يختلط شىء منه بالقرآن ، وحتى تنصرف الهمم الى العناية بكتابة القرآن ليتم ما وعد الله سبحانه به من حفظ هذا الكتاب من الضياع او التحريف . قال سبحانه : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »** (٢) .

٢ — ثم اذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لجماعة من اصحابه ممن كانوا يتقنون الكتابة والضبط ، وممن يؤمن غلطهم او خلطهم بين القرآن وغيره — بكتابة الحديث ومن هؤلاء عبد الله بن عمرو . ويذكر ابن قتيبة فى كتابه تأويل مختلف الحديث أن اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمرو فى كتابة الحديث يرجع الى انه كان متقنا ضابطا يعرف السريانية والعربية ويكتب بهما ، فمثله يؤمن غلطه بخلاف غيره ممن لم يتقنوا الكتابة .

ومن العلماء من يرى أن النهى عن الكتابة . انما كان المقصود به النهى عن كتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة . وفى ذلك يقول الامام الخطابى :

« وقد قيل انما نهى أن يكتب الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة لئلا يختلط به ويشتبه على القارىء . فأما أن يكون نفس الكتاب محظورا وتقييد العلم بالخط منهيا عنه فلا » (٣) .

٣ — والتحقيق فى ذلك أن النهى عن الكتابة كان أولا للأسباب التى اشرنا اليها .

ثم نسخ هذا الحكم بالأحاديث التى دلت على أباحة كتابة الحديث .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٦٣/١ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٣) معالم السنن للخطابى ١٨٤/٤ .

فمنها ما رواه البخارى ومسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه قال :
لما فتحت مكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكر الخطبة ــ خطبة النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : فقام رجل من اليمن يقال له ابو شاة . فقال يا رسول الله اكتبوا لى . فقال صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى شاة . يعنى الخطبة .

« ومنها ما رواه ابو داود والحاكم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله انى اسمع منك الشىء فاكتبه ؟ قال : نعم . قال عبد الله : فى الغضب والرضا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم فانى لا اقول الا حقا » .

وكتب صلى الله عليه وسلم . كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره (١) .

وفى الصحيح عن ابى جحيفة قال : قلت لعلى بن ابى طالب هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن ؟ قال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة الا ان يعطى الله عبدا فهما فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة . قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الاسير والا يقتل مسلم بكافر .

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو صحيفة يقال لها الصادقة وعنها يقول :
« فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢)
غير ان هذه الاباحة لكتابة الحديث كانت فى اواخر حياته صلى الله عليه وسلم .

وكان من يكتبون من الصحابة رضوان الله عليهم قلة .

التدوين فى عهد الخلفاء الراشدين :

لم ير الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم اشتغال الناس بتدوين السنة ، صرفا للعناية الى جمع القرآن واعتمادا على أن السنة محفوظة عن طريق الرواية ، والمشهور فى ذلك موقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو ما رواه معمر عن الزهرى عن عردة « ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اراد ان يكتب السنن فاستفتى اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فاشاروا عليه بان يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ، ثم اصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال انى كنت اريد ان اكتب السنن ، وانى ذكرت

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٧١/١ .
(٢) سنن الدارمى .

قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا اشوب (١) . كتاب الله بشيء أبدا » .

وهذا الخبر يبين أسباب منع تدوين السنة بصورة عامة فى عهد الخلفاء الراشدين ، ولا ينفى هذا أن بعض افراد الصحابة كانوا يكتبون لأنفسهم .. ولكن الشيء الذى لم يحدث فى ذلك العصر هو تدوين السنن المحفوظة فى الصدور ، كما فعلوا فى كتابة القرآن . لقد كان القصد من هذا المنع من التدوين هو توفير الجهود كلها للاشتغال بحفظ القرآن وحتى لا يلتبس به شيء غيره .. وهذا معنى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا أشوب كتاب الله — وفى رواية : لا ألبس كتاب الله — بشيء أبدا » .

اذ كان المحذور من كتابة السنن فى ذلك العهد — أن تنتشر هذه الصحف فى الآفاق ، وان يقع الوهم بأن شيئا منها من القرآن ، ما دام قد كتب فى العصر الذى كتب فيه القرآن .

ولهذا كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الأمصار : « من كان عنده شيء فليمحه » (٢) .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما ينهى عن الكتابة أيضا .

ولم يكن على السنة فى هذا العصر من بأس — مع ترك تدوينها — اذ كان المعول على الحفظ الدقيق والرواية الواعية .

عن ابى نضرة قال : قلت لأبى سعيد الخدرى : الا نكتب ماتسمع منك — اى من الأحاديث والسنن قال : أتريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ ! ان نبيكم صلى الله عليه وسلم كان يحدثنا فنحفظ .. فاحفظوا كما كنا نحفظ (٣) .

وقال مالك رحمه الله : لم يكن مع ابن شهاب الزهرى كتاب الا كتاب فيه نسب قومه — قال : ولم يكن القوم يكتبون ، انما كانوا يحفظون ، فمن كتب منهم الشيء فانما كان يكتبه ليحفظه ، فاذا حفظه محاه .

وقد كان هذا كله من تقدير العزيز العليم الذى تكفل بحفظ القرآن .. فهدى الصحابة فى هذا العهد الراشد الى تخصيص القرآن وحده بالكتابة ، لا يلتبس به شيء ، حتى يثبت فى الصدور وينتشر فى الآفاق .. اما السنن فلم

---

(١) اى لا اخلط .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٦٥/١ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٦٤/١ .

يضيع منها شيء — رغم أنها لم تدون — اذ كانت الصدور الواعية تمسك بها .. وكان العمل بها والاهتداء بهديها يجعلها امرا مشهورا وطريقا مسلوكا .

تدوين السنة وجهود العلماء :

بعد أن انقضى عصر الصحابة رضوان الله عليهم وجاء عصر التابعين ومن بعدهم .. وكان القرآن الكريم قد لقى من العناية ما جعله فى مأمن بعد ذلك من التحريف او الخلط بغيره لم يعد هناك بأس من كتابة الحديث ..

بل أصبح ذلك امرا لازما .. خشية ذهاب الحديث بذهاب حفاظه .. وخوفا من ان يتطرق اليه مع اختلاف العصور الوهم او الخطأ او التحريف او النسيان ..

من هنا امر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فى فترة خلافته القصيرة(١) بكتابة الحديث وكتب الى عامله على المدينة ابى بكر بن حازم : « أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

وكان ابن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤ هـ أول من استجاب لهذه الرغبة .. فهو اول من دون كتابا جمع فيه ما كان يحفظه من الأحاديث وكان تدوين السنة فى هذا القرن الهجرى الثانى يجمع بين اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم واقوال صحابته .

وكان ابن شهاب الزهرى يجمع فى تدوينه للسنة بين أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وما جاء عن أصحابه .

عن صالح بن كيسان قال : كنت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم ، فاجتمعنا على أن نكتب السنن ؛ فكتبنا كل شيء سمعناه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال — اى ابن شهاب — اكتب لنا ما جاء عن اصحابه ؛ فقلت : لا ، ليس بسنة . وقال هو : بل هو سنة . فكتب ولم اكتب فانجح وضيعت (٢) .

وبدات هذه الكتب المدونة فى السنة تنتشر فى الأمصار الاسلامية فى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، كما يدل على ذلك قول ابن شهاب الزهرى :

« أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السنن ؛ فكتبناها دفترا دفترا ؛ فبعث الى كل ارض له عليها سلطان دفترا (٣) .

---

(١) ٩٩ — ١٠١ هـ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ٧٦/١ .

(٣) المصدر السابق .

وفى القرن الهجرى الثانى ايضا كتب الامام مالك (١) كتابه الموطأ الذى جمع فيه ما بلغه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأحكام واقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

تدوين السنة فى القرن الهجرى الثالث :

يعد هـذا القرن بحق العصر الذهبى للسنة اذ فيه اتجهت همم العلماء والرواة الى جمع الحديث الشريف . مفردا عن اقوال الصحابة والتابعين ، والى تحرى الدقة البالغـة فى التمييز بين الصحيح وغيره . وفى هذا القرن الثالث كتب البخارى المتوفى عـام ست وخمسين ومائتين كتاب الجامع الصحيح كما الف مسلم المتوفى عام احدى وستين ومائتين صحيحه .

وفيه ايضا جمع النسائى المتوفى عام ثلاث وثلاثمائة سـننه . وأبو داود المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين كتابه المعروف بسنن أبى داود .

والترمذى المتوفى سنة تسع وسبعين ومائتين كتابه الجامع . وابن ماجة المتوفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين كتابه المعروف بسنن ابن ماجة .

وهذه هى الكتب التى اطلق عليها علماء الحديث اسم الكتب الستة وكلها كتبت فى القرن الثالث الهجرى .

قال ابن الصلاح :

« أول من صنف الصحيح البخـارى . ابو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفى ، وتلاه ابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسـابورى القشيرى .. ومسلم ــ مع انه أخذ عن البخارى واسـتفاد منه ــ يشـاركه فى كثير من شـيوخه .

وكتاباهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز » (١) .

ثم قال :

« ثم ان كتاب البخارى اصح الكتابين صحيحا وأكثرهما فوائد » .

وينبغى هنا الاشارة الى ان صحيحى البخارى ومسلم لم يستوعبا كل الأحاديث الصحيحة .

---

(١) ٩٥ ــ ١٧٩ . ..

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٣ ــ ١٤ .

فقد روى عن الامام البخارى انه قال :

« ما ادخلت فى كتابى الجامع الا ما صح ، وتركت من الصحاح لحال الطول ــ أو لملال الطول » .

وقال الامام مسلم :

« ليس كل شىء عندى صحيح وضعته ها هنا ــ يعنى فى كتابه الصحيح ــ انما وضعت هاهنا ما اجمعوا عليه » .

قال ابن الصلاح : اراد مسلم ــ والله اعلم ــ انه لم يضع فى كتابه الا الأحاديث التى وجد عنده فيها شرائط الصحيح المجمع عليه » .

وقد بلغ من تحرى الامام البخارى الدقة البالغة فى اختياره لأحاديث الجامع الصحيح . . أن جملة ما فى كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثا ــ بالأحاديث المكررة . اما باسقاط المكرر فقد قيل انها أربعة آلاف حديث اختاره من محفوظه الكثير من الحديث .

اما الكتب الأربعة للنسائى وابى داود وابن ماجه والترمذى فقد جمعت بين الصحيح وغيره . وقد الف الحاكم ابو عبد الله كتابه المستدرك على الصحيحين . جمع فيه من الاحاديث الصحيحة ما لم يورده الشيخان فى صحيحهما . وان كان فى بعض ما خرجه الحاكم فى المستدرك مقال .

المنهج الدقيق لعلماء الحديث :

حاول بعض المستشرقين ومن اتبع سبيلهم من المسلمين وهم عدد قليل ــ التشكيك فى المنهج العلمى الرائع الذى التزمه علماء الحديث فى تدوينهم للسنة أو حكمهم على ما دونوه منها من جهة الصحة أو الحسن أو الضعف أو الوضع .

والحق ان هذه فرية ظالمة . . اذ ان الجهد الذى بذله علماء الحديث فى جمعه وضبط رواياته والبحث فى حال الرواة وغير ذلك مما يتضح فى علوم الحديث التى نشأت جنبا الى جنب مع رواية الحديث وتدوينه . . هذا الجهد هو اقصى ما تصل اليه طاقة بشرية مخلصة للحق مستمسكة بمبادىء العلم وقواعده .

١ ــ لقد كان التثبت فى الرواية منهجا متبعا عرفه الصحابة وتلقاه عنهم التابعون . . يقول الذهبى فى ترجمة ابى بكر الصديق رضى الله عنه : وكان أول

من احتاط فى قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب ان الجدة جاءت الى أبى بكر تلتمس ان تورث فقال : « ما أجد لك فى كتاب الله شيئا ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا » .

ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : « حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس » .

فقال له أبو بكر : هل معك أحد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه (١) .

وقال الذهبى فى ترجمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد اذا ارتاب » .
وقال فى ترجمة على بن أبى طالب رضى الله عنه : « كان اماما عالما متحريا فى الأخذ بحيث انه يستحلف من حدثه بالحديث » .

٢ ـ وقد عرف الصحابة والتابعون الرحلة فى طلب الحديث ، فمنهم من كان يسافر الأيام والليالى فى طلب حديث واحد . .

عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام » (٢) .

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال سمعت شيخا من اهل المدينة ـ يحدث عن عطاء ان أبا ايوب الانصارى رحل الى عقبة بن عامر ، فلما قدم مصر أخبروا عقبة فخرج اليه قال : حدثنا ما سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ستر المسلم ، لم يبق احد سمعه غيرى وغيرك .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ستر مسلما على خزية (٣) ستره الله يوم القيامة » فاتى ابو ايوب راحلته فركبها وانصرف الى المدينة وما حل رحله (٤) .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ٢/١ .
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٩٣/١ .
(٣) أى مايستحى منه .
(٤) جامع بيان العلم ٩٤/١ .

وقال سعيد بن المسيب : ان كنت لأسير الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد . بل ان مسروقا رحل فى طلب حرف واحد من حديث .. وكذلك نعل أبو سعيد (١) !

وقال بسر بن عبيد الله الحضرمى : ان كنت لأركب الى المصر من الأمصار فى الحديث الواحد لأسمعه .

فاذا كان هذا مبلغ تحريهم فى الجمع وتثبتهم فى النقل .. فمن أين يأتى الريب أو تتسرب التهمة .

٣ ـ ثم ننظر الى ما اختصت به هذه الأمة فى روايتها لسنة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم وهو الاسناد .

لقد ظهرت الحاجة الى النظر فى السند ـ وهو سلسلة الرواة ـ الذين تحملوا الحديث حتى ينتهى الى الصحابى الذى رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

حين ظهر الوضع فى الحديث بعد ان اتسع نطاق الفتنة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .. واخذت بعض الفرق المتصارعة تضع الأحاديث لنصرة معتقداتها والاحتجاج لآرائها .

هنا عنى رواة الحديث بالبحث فى اسناد الحديث وفحص أحوال الرواة لتمييز العدول الذين تقبل روايتهم من أهل الأهواء والبدع والزيغ الذين لا تقبل الرواية عنهم .

أخرج مسلم فى مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين أنه قال :

« لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم ، فينظر الى حديث أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » .

وكانوا يقولون :

« انما هذه الأحاديث دين ، فانظروا عمن تأخذونها » .

ومن هنا نشأ علم الجرح والتعديل الذى يوزن به الرجال ويعرف به صحة السند أو عدم صحته .

واذا نظرنا الى الكتب التى ألفت فى علم رجال الحديث منذ نشأ هذا العلم وحتى انتهى الى غايته عرفنا مدى التجرد فى البحث والصدق فى التحرى ..

---

(١) المصدر السابق .

اذ ذكروا في هذه الكتب حال كل واحد من الرواة ما له وما عليه .. لتعرف قيمة ما يرويه .

٤ ــ اما ادعاء بعض المستشرقين ومن اقتفى آثارهم : ان علماء الحديث وجهوا عنايتهم الى نقد الاسانيد ولم يعنوا بنقد المتون ، ــ أي نصوص الكلام المنسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم ــ فهذا محض افتراء .

اذ ان رجال الحديث قد وجهوا عنايتهم الى النظر في متون الحديث نفسها وعرضها على المقاييس التي تعرف بها صحتها .

بل ان هذا امر مقرر منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم اذ كانوا لا يأخذون المرويات التي تخالف اصلا قطعيا او مقصدا شرعيا اخذ من عدة ادلة تفيد اليقين .

اخرج مسلم في صحيحه ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع حديث فاطمة بنت قيس ان زوجها طلقها ثلاثا فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنى ولا نفقة . فقال عمر : لا نترك كتاب الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت او نسيت ، لها السكنى والنفقة قال الله عز وجل : ((**لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة**)) (١) .

وهذه عائشة رضي الله عنها قد نقل عنها النظر في بعض الاحاديث التي كان يرويها بعض الصحابة فقد سمعت حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابنه عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**ان الميت ليعذب ببكاء اهله عليه**)) فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعذب المؤمنين ببكاء احد ، ولكن قال : « ان الله يزيد الكافر عذابا ببكاء اهله عليه » ، وقالت : حسبكم القرآن : ((**ولا تزر وازرة وزر اخرى**)) (٢) .

زاد مسلم : « انكم لتحدثوني غير كاذبين ولا مكذبين ولكن السمع يخطىء » .

وقد جمع السيوطي هذه الاستدراكات التي ابدتها عائشة رضي الله عنها في رسالة عنوانها : « عين الاصابة في استدراك عائشة على الصحابة » . وهذا كله من نقد المتن .

---

(١) سورة الطلاق الاية « ١ » .

(٢) سورة الاسراء الاية « ١٥ » .

ثم ان علوم الحديث لم تحن بالسند فحسب ؛ بل ان من بحوثها ما يتجه الى معرفة احوال متن الحديث ، كبحثهم فى المرفوع والموقوف والناسخ والمنسوخ والمتلف الذى يحتاج الى تأويل .

بل ان النظر فى المقاييس التى اعتبرها علماء الحديث لمعرفة الأحاديث الموضوعة ؛ تدل على اعتبارهم النظر فى متن الحديث وسيلة من وسائل التمييز وقرينة من قرائن معرفة الوضع .

يقول ابن الصلاح :

« وانما يعرف كون الحديث موضوعا باقرار واضعه ، أو ما يتنزل منزلة اقراره . وقد يفهمون الوضع من قرينة حال الراوى او المروى ؛ فقد وضعت احاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة الفاظها ومعانيها » (١) .

وهذا ابن القيم (٢) . يؤلف كتابا يسميه « المنار المنيف فى الصحيح والضعيف » يقول فيه : « وسئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط . من غير ان ينظر فى سنده ؟ ثم يقول :

« ونحن نقيه على امور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعا ؛ فمنها : اشتماله على امثال هذه المجازفات التى لايقول مثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهى كثيرة جدا ؛ كقوله فى الحديث المكذوب :

« من قال لا اله الا الله : خلق الله من تلك الكلمة طائرا له سبعون الف لسان لكل لسان سبعون الف لغة يستغفرون الله له » .

ومن فعل كذا وكذا اعطى فى الجنة سبعين الف مدينة فى كل مدينة سبعون الف قصر . . . الخ .

وامثال هذه المجازفات الباردة التى لايخلو حال واضعها من احد امرين : اما ان يكون فى غاية الجهل والحمق ؛ واما ان يكون زنديقا قصد التنقيص بالرسول صلى الله عليه وسلم باضافة مثل هذه الكلمات اليه .

ومن هذه المقاييس كما يذكرها ابن القيم :
تكذيب الحس له . كحديث :

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٣٩ .
(٢) ٦٩١ — ٧٥١ هـ .

« الباذنجان لما اكل له » : وكذلك حديث : « اذا عطس الرجل عند الحديث فهو دليل صدقه ومنها : سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه كحديث : « لو كان الارز رجلا لكان حليما ؛ ما اكله جائع الا اشبعه » . فهذا من السجع البارد ، الذى يصان عنه كلام العقلاء فضلا عن كلام سيد الانبياء !

ويمضى ابن القيم فيعدد المقاييس التى يعرف بها كون الحديث موضوعا بالنظر الى متنه ، ودون نظر الى سنده .

فكيف يزعم الزاعمون بعد ذلك ان رجال الحديث وقفوا عند حد النظر فى الأسانيد وتركوا نقد المتون ، مع ان عنايتهم بالنظر فى المتون كما يتضح من علوم الحديث ـ لا تقل عن عنايتهم بنقد الأسانيد والبحث فى أحوال الرجال . الحق ان عناية الأمة الاسلامية بالسنة النبوية ـ ممثلة فى هذا الجهد العلمى الرائع الذى بذله رجال الحديث فى العصور المتتابعة ـ عناية لا نظير لها ؛ لم تبذلها امة غيرها نحو تراث نبيها وسنته .

مكانة السنة :

السنة النبوية التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصل من اصول الدين ، فهى المصدر الثانى الذى يؤخذ منه الدين عقيدة وعبادة وشريعة وخلقا ونظاما . بعد المصدر الأول وهو كتاب الله تبارك وتعالى . فالسنة بيان للقرآن وتفصيل لمجمله .

قال سبحانه :

« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل لهم (١)

وقال سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٢) .

وقد زعم قوم من ادعياء التجديد فى هذا العصر ان بامكانهم الاقتصار على القرآن ونبذ السنة بدعوى انه قد تطرق اليها الشك .

ومع ان هـذا الزعم باطل ـ من جهة توثيق السنة وصحة روايها وتدوينها كما بيناه آنفا ـ فهو باطل من جهة النظر الى الاصول التى يؤخذ منها الاسلام ، فقد انفردت السنة بتفصيل كثير من العبادات والأحكام

---

(١) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٢) سورة الحشر الآية ٧ .

التى لم تفصل فى القرآن ، مثل كيفية الصلاة وعدد الركعات وانصبة الزكاة وبعض احكام الحج وغير ذلك .

وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« الا وانى اوتيت القرآن ومثله معه »

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أحدكم ان يقول : هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال احللناه وما كان فيه من حرام حرمناه »

وفى رواية :

« يوشك رجل منكم متكئا على اريكة يحدث عنى بحديث فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، الا وان ما حرم رسول الله مثل الذى حرم الله » (١) .

وعن ميمون بن مهران فى قوله سبحانه :

« **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول** » (٢) .

قال : الرد الى الله : الرد الى كتابه . والرد الى رسوله اذا كان حيا ، فلما قبضه الله فالرد الى سنته »

قال ابن عبد البر :

والبيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين :

بيان المجمل فى الكتاب العزيز كالصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه الزكاة وحدها ووقتها وما الذى تؤخذ منه الاموال وبيانه لمناسك الحج . قال صلى الله عليه وسلم اذ حج بالناس : « خذوا عنى مناسككم » لأن القرآن انما ورد بجملة فرض الصلاة والزكاة والحج دون تفصيل والحديث مفصل .

والثانى : هو زيادة على حكم الكتاب . كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وكتحريم الحمر الاهلية وكل ذى ناب من السباع .. الى أشياء يطول ذكرها .. وقد امر الله عز وجل بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباعه امرا مطلقا مجملا لم يقيد بشىء ، كما امرنا باتباع كتاب الله » (٣)

هــذا وان فــرية الزعم بالاقتصار على كتاب الله وترك السنة فرية مدحوضة منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، اذ وجد فى زمانهم نفر

---

(١) تراجع روايات هذا الحديث فى جامع بيان العلم لابن عبر ٢/١٨٩ – ١٩٠ .

(٢) سورة النساء الاية ٥٩ .

(٣) جامع بيان العلم ١/١٩٠ .

قليل من أهل الأهواء كانوا يقولون بذلك .. وقد رد عليهم الصحابة بالحجة الواضحة .

عن عمران بن حصين رضى الله عنه انه قال لرجل : انك امرؤ احمق ! أتجد فى كتاب الله الظهر اربعا لا تجهر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد فى كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله أبهم هذا وان السنة تفسر ذلك (١) .

وقال رجل لمطرف بن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه : لا تحدثونا الا بالقرآن .

فقال له مطرف : والله ما نريد بالقرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا (٢) ـ يعنى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومجمل القول : ان حجية السنة وكونها مصدرا أصيلا للاسلام ثابت بنص القرآن وبنص حديث صلى الله عليه وسلم وباجماع الأمة ، وان السنة قد اشتملت على كثير من الأحكام المفصلة لأحكام القرآن ، كما انفردت ببيان طائفة منها لم ترد فى القرآن .

روى ابن عبد البر ان امرأة جاءت الى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقالت له :

بلغنى انك لعنت ذيت وذيت والواشمة والمستوشمة وانى قرات ما بين اللوحين فلم أجد الذى تقول

فقال لها عبد الله :

اما قرات : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٣) فقالت بلى . قال : فهو ذاك .

فالقرآن الكريم قد وجه المسلمين الى تلقى السنة واتباعها ، متى صحت وفق المنهج العلمى الدقيق الذى قرره علماء الحديث .

---

(٤) جامع بيان العلم ١٦١/٣ .

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الحشر الآية ٧ .

الاجمـــاع

الاجماع مصدر من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة . وهو اتفاق المجتهدين من امة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاته فى عصر من الأعصار على امر من الأمور الشرعية .

والاجماع حجة تثبت بها الاحكام . يقول سبحانه : (سورة النســاء الآية ١١٥)

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير ســبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

ووجه الاستدلال بهذه الاية ان الله سبحانه جمع بين مشاق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع غير سبيل المؤمنين فى الوعيد . فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحا لما جمع بينه وبين المحظور . فالخروج عن اجماع المجتهدين من المومنين اتباع لغير سبيلهم ..

ومن هنا تثبت حجية الاجماع . وانه مصدر من مصادر الحكم الشرعى ولقوله صلى الله عليه وسلم . « لن تجتمع امتى على ضلالة » اخرجه الطبرانى فى المعجم الكبيــر . واخرج الترمذى عن ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا تجتمع امتى على ضـــلالة ، ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ الى النار » .

واخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال :

« كان ابو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنه قضى بها . فان اعياه خرج فسأل المسلمين وقال : اتانى كذا وكذا فهل علمتم ان رســـول الله صـــلى الله عليه وســلم قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قضاء . فان اعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشـارهم ، فان اجمع رايهم على شىء قضى به . وكان عمر يفعل ذلك » .

وكان عمر رضى الله عنه يستشير الصحابة ، مع فقهه . حتى كان اذا رفعت اليه حادثة قال ادعوا لى عليا وادعوا لى زيدا فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه .

يقول الشيخ عبدالوهاب خلاف :

« من هذا يتبين ان اجماع الصحابة ما كان الا اتفاق من أمكن اجتماعهم من رءوسهم وخيارهم على حكم واقعة لم يرد نص بحكمها وان الذى دعاهم الى اتباع هذه السبل هو العمل بالشورى التى أوجبها الله وسار عليها الرسول صلى الله عليه وسلم » (١)

الاجتهـــاد

الاجتهاد فى اصطلاح علماء الاصول هو بذل الجهدللتوصل الى الحكم الشرعى العملى من دليله التفصيلى . وهو يكون ى الوقائع التى لم يرد فيها نص قطعى .

أما الواقعة التى دل على حكمها نص قطعى فى وروده ، وقطعى فى دلالته . بمعنى أنه لا مجال للعقل أن يدرك منه الا حكما بعينه فلا مساغ للاجتهاد فيها . والواجب اتباع حكم النص فيها بعينه .

فلا مجال للاجتهاد مثلا فى أن اقامة الصلاة فريضة . ولا فى فروض أصحاب الفروض من الورثة .

والواقعة التى دل على حكمها نص ظنى الدلالة . بمعنى أن النص يحتمل الدلالة على حكمها او على حكم غيرها .. يكون للاجتهاد فيها مجال . ولكنه اجتهاد فى حدود فهم المراد من النص وترجيح احد معانيه .. وفقا للاصول اللغوية والتشريعية ..

وذلك كما فى آية الوضوء فى قوله سبحانه :

« وامسحوا برءوسكم » (٢) .

فيحتمل أن يكون المراد الرأس كله . أو بعضه .. ومن هنا يكون عمل المجتهد هو ترجيح أحد المعنيين وفقا للادلة التى تظهر له .

والواقعة التى ثبت حكمها بانعقاد الاجماع فلا مجال للاجتهاد فيها .

غير أن الميدان الفسيح للاجتهاد هو فى الوقائع التى لم يدل على حكمها نص ولم ينعقد على حكمها اجماع .

ولا يجوز الاجتهاد ، ولا يقبل ، الا ممن استوفى شرائط المجتهد . وهى العلم بأحكام القرآن ومعرفة علومه : من الناسخ والمنسوخ والمكى والمدنى

---

(١) مصادر التشريع الاسلامى فيما لانص فيه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١٦٧ .

(٢) سورة المائدة الاية ٦ .

وغير ذلك . والعلم بالسنة العملية القولية والفعلية والتقريرية ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ منها . والعلم بالاجماع الذى انعقد فى عصر من العصور التى سبقت بحيث لا يخالف اجماع . من يعتد باجماعهم . ومعرفة القياس واركانه وشروطه .. وما يتصل به من الأصول .. وعلل الأحكام . كما يشترط فى المجتهد معرفة اللسان العربى قواعده ومفرداته وأساليبه ..

وقبل ذلك وبعده لا بد فى المجتهد من الورع والأمانة وحسن الخلق والشجاعة فى قول الحق والعدالة .

القيـــاس :

القياس هو الحاق امر لم يرد فيه نص بآخر ورد فيه نص يبين حكمه ، فى هذا الحكم الذى ورد به النص ، لتساوى الأمرين فى العلة .

مثال : ان شرب الخمر محرم بالنص وهو قوله تعالى : « فاجتنبوه » فيقاس عليه تحريم شرب اى نبيذ آخر تخمر وصارت فيه خاصة الاسكار التى فى الخمر لتساويهما فى علة التحريم .

وايضا : البيع وقت النداءللصلاة من يوم الجمعة منهى عنه بقوله تعالى « **فاسعوا الى ذكر الله** » (١) فيقاس عليه النهى عن الاجارة او العقود الاخرى فى مثل هذا الوقت لتساويها فى العلة وهى انها تشغل عن ذكر الله .

والقياس حجة شرعية ، واستدلوا على ذلك بالكتاب والسنة واقوال الصحابة .

ففى الكتاب قوله سبحانه :

« **فاعتبروا يا اولى الابصار** » (٢)

ووجه الاستدلال ان الله سبحانه بعد ان اخبر عما كان من بنى النضير وما نزل بهم من نكال قال : فاعتبروا اى فقيسوا انفسكم بهم لانكم اناس مثلهم ان فعلتم مثل فعلهم حاق بكم مثل ما حاق بهم (٣) .

وقال الله سبحانه فى جزاء الصيد « فجزاء مثل ما قتل من النعم » . وفيه تمثيل الشىء بعدله ومثله وشبيهه ونظيره وهو نفس القياس (٤)

---

(١) سورة الجمعة الاية ٩ .

(٢) سورة الحشر الاية ٢ .

(٣) مصادر التشريع للشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٤) جامع بيان العلم ٦٥/٢ .

وفى الحديث ان امرأة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم « أن أمى نذرت ان تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم نعم حجى عنها ، ارايت لو كان على امك دين أكنت قاضيته ؟ » قالت نعم . فقال : اقضوا الله فالله أحق بالوفاء » .

وغير ذلك من الأحاديث التى تدل على حجية القياس وانه مصدر من مصادر الحكم الشرعى ، بعد الكتاب والسنة والاجماع .

قال المزنى :

« الفقهاء من عصر الرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا وهلم جرا .. استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم قال : وأجمعوا أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل .

ثم قال : فلا يجوز لأحد انكار القياس لأنه التشبث بالأمور والتمثيل عليها وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى ابى موسى الأشعرى :

« واعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور » (٥) .

(٥) جامع بيان العلم ٢/٦٦ وفيه نصوص كثيرة فى هذا المعنى .

القســـم الرابع

دراسة لطائفة من احاديث الرســول (صلى الله عليه وسلم)

كتب هذا القسم الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني

الحديث الأول

عَنْ أَبِي عَمْرٍو جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ :

كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ ، فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ . إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ، حَتَّى قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ .

قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ . قَالَ : ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِن طَعَامٍ وَثِيَابٍ ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)

رواه مسلم في باب الحث على الصدقة

(أ) ترجمة راوي الحديث (جرير بن عبد الله البجلي) :

١ ــ هو أبو عمرو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة ابن جشم بن عويف البجلي ، نسبة الى بجيلة قبيلة من اليمن ، وهذه النسبة جارية على القياس لأن قياس النسبة الى فعيلة فعلى بفتح الفاء والعين .

٢ ــ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن عمر ، وعن معاوية .

٣ ــ كان اسلامه بعد نزول سورة المائدة ، في نفس السنة التي توفي فيها النبي صلى الله عليه وسلم .

٤ ــ قال جرير : ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ، ولا رآني الا ابتسم .

٥ ــ قال عبد الملك بن عمير : رأيت جرير بن عبد الله وكأن وجهه شقة قمر .

وقال عمر بن الخطاب : يرحمك الله نعم السيد كنت في الجاهلية ونعم السيد أنت في الاسلام .

٦ ــ توفي سنة (٥١ هـ) للهجرة وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

(ب) اللغــة :

١ ــ في صدر النهار : اي في أوله ، وصدر كل شيء أوله .

٢ ــ عراة : جمع عار ، اسم فاعل من عراه يعروه عروا اذا اتاه طالبا معروفه ، أو من عرى من ثوبه يعرى عريا وعرية اذا تجرد من اللباس . أو من قولهم رجل عار اذا اخلقت أثوابه .

٣ ــ مجتابي النمار : المجتاب اسم مفعول من اجتاب بمعنى خرق الشيء من وسطه ، يقال جاب الشيء جوبا ، واجتابه اجتيابا اذا خرقه . وكلّ مجوف قطعت وسطه فقد جبته واجتبته . وفي التنزيل . « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » (١) قال الفراء جابوا ، خرقوا الصخر فاتخذوه بيوتا .

٤ ــ النمار : جمع مفرده نمرة ، وهي بردة من صوف يلبسها الاعراب قال في لسان العرب : كأنها اخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض ، اراد انه جاءه قوم لابسو أزر مخططة من صوف ، انتهى .

٥ ــ مضر : قبيلة من قبائل العرب ، تنسب الى مضر بن نزار بن معد ابن عدنان ، قال ابن سيده : سمي به لأنه كان مولعا بشرب اللبن الماضر .

---

(١) الفجر الآية : ٩

يقال مضر اللبن يمضر مضورا اذا خمض وابيض .

٦ ــ فتمعر : فتغير لون وجهه شفقة عليهم ، يقال فى اللغة : غضب فلان فتمعر لونه ووجهه ، اى تغير وعلته صفرة ، والأصل فيه قلة النضارة وعدم اشراق اللون من قولهم مكان أمعر وهو الجدب الذى لا خصب فيـــه .

٧ ــ الفاقة : الفقر والحاجة ، وليس له فعل من لفظه ، وانما يقـــال : افتاق الرجل اذا افتقر فهو مفتاق ، ولا يقال فاق .

٨ ــ تساءلون به : اى تتساءلون به ، اذ كان من عادة العرب ان يسأل بعضهم بعضا بالله .

٩ ــ اتقوا : التقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف .

١٠ ــ من ديناره ــ من درهمه : اى من دنانيره ــ من دراهمه ــ لأن المفرد المضاف الى معرفة يعم ، وهكذا البقية .

١١ ــ الصاع : مكيال لأهل المدينة يأخذ اربعة امداد ، وهو يذكر ويؤنث : قال فى لسان العرب : فمن انث قال : ثلاث أصوع مثل ثلاث ادور ومن ذكره قال : «اصواع » اى ثلاثة اصواع .

اما المد : فمختلف فيه فقيل هو رطل وثلث بالعراقى ، وبه يقول الشافعى وفقهاء الحجاز ، وقيل : هو رطلان ، وبه اخذ ابو حنيفة وفقهـــاء العراق .

١٢ ــ الصرة : شىء يجمع فيه الدراهم والدنانير او غيرهما ويصر ، واصل الصر الجمع والشد .

١٣ ــ كومين : بفتح الكاف وضمها ، والكومة بالضم الصبرة . والكوم : هو العظيم من كل شىء ، والمكان المرتفع .

١٤ ــ يتهلل : اى يستـــنير ويتلألأ ، وذلك ممـــا وقع فى قلبه من السرور بتبادر الأصحاب الى مساعدة المضربين .

١٥ ــ كأنه مذهبة : اى كأنه فضة مموهة بالذهب ، اذ علت بياض وجهـــه صلى الله عليه وسلم حمرة المسرة والابتهاج . يقال فى اللغة : اذهب الشىء اذهابا ، وذهبه تذهيبا ، اى موهه وطلاه بالذهب .

١٦ ــ السنة : هى السيرة والطريقة حسنة كانت او قبيحة ، والسنة فى الاصطلاح الشرعى : ما اثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول او

فعل أو تقرير ، ولكن المراد من اللفظ هنا المعنى اللغوى .

١٧ ــ الوزر : الحمــل الثقيل ، والاثم ، وقد سمى الاثم وزرا تشبيها له بالحمل الثقيل ، وجمعه أوزار .

١٨ ــ ينقص : من نقص الشيء ينقص نقصــا ونقصانا ، ويستعمل الفعل متعديا ايضا ، فتقول : نقصت الشيء ، أما انقصته على التعــدية بالهمز فلغة مستعملة فى هذا الفعل ولكن الأولى افصح .

ج) الشرح :

١ ــ انسانية الرسول :

لم تمر انسانية الرسول الكاملة على مشهد فاقة القوم المضريين مرور أكثر الناس الذين تبلد حسهم الانسانى فلا يجدون انفعالا وجدانيا نحو ذوى الحــاجة يدفعهم لمواساتهم ، وكف الأذى عنهم ، ولكن انســانيته الكاملة صلوات الله عليه انفعلت لهذا المشهد انفعالا بالغا ظهر فى تمعر وجهه أولا ، ثم فى دخوله الى حجرته لعله يجد عنده ما يواسيهم به ثانيا ، ثم باعتبــار أمر حاجة هؤلاء من الأمور الهامة التى تســتدعى من الرســول أن يخطب بنفســه فى أصحابه ، يحثهم على مواساتهم بالصدقة فى أسلوب مؤثر رائع ، دفع المسلمين الى ان يساهموا بمعوناتهم ، حتى ترابى كومان من طعــام وثياب بين يدى الرسول صلوات الله عليه ، قبل أن ينفض الجمــع عقب صلاة الظهر على ما يظهر من الحديث .

الا فليتخذ القــادة هذا الانسان الكامل أسوة حسنة به يقتــدون ، وبهديه يسترشدون .

٢ ــ خطبة الرسول فى دعوة أصحابه لمواساة المضريين :

وانتظر الرسول صلوات الله عليه حتى دخل وقت صلاة الظهر ، وتهيأ المســلمون فى جو العبــادة الروحانى للاستجابة الى دعوة البذل والعطــاء ، فقام بهم خطيبــا بعد أن استكملوا ألوان عبادتهم - وافتتح خطبتــه بآيتين من كتــاب الله .

الآية الأولى منهما هى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ، ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا (١) ﴾ .

---

(١) سورة النساء : الآية ١ .

اختيار حكيم لتصدير الخطبة به ، انهـا آية تنادى النـاس بوصفهم الانسانى العام ، لتنبه فيهم انسـانيتهم المشتركة بين افرادهم ، ولتأمرهم بتقوى الله الذى يمدهم بالتربية الدائمة حسـا ومعنى ، والذى يعظمونه فيما بينهم حتى يقول قائلهم لأخيـه أسألك بالله ان تفعل كذا ، ولتذكرهم بوحدة أصلهم ، واخوة افرادهم ، وبواجبات الرحم . وفى كل ذلك ما يمهد للدعوة الى البـذل والسخاء لمواساة هؤلاء الفقراء العراة من قبيلة مضر ، فهم أخوة فى الانسانية ورحم فى النسب .

والآية الثانية منهما هى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعمـلون) (١) .

وفى اختيار هذه الآية معنى أخص من الآية السابقة . لأن الأولى تنبههم الى أنسانيتهم العامة ، أما هذه فتخاطبهم بوصفهم مؤمنين مندرجين فى سلك الذين يدفعهم ايمانهم الى طاعة الله وابتغاء رضوانه . وينتظرون وعد الله بالتوبة والأجر العظيم يوم القيامة ، على ما يقدمونه فى الدنيـا من عمل صالح ، وأعظم بالصدقة انتى لا من فيها ولا اذى عملا صالحا يستحق المؤمن فيه الأجر الأوفر ، فضلا من الله اقتضاه وعده الكريم . وبعـد ان استهل الرسول خطبته بهاتين الآيتين تلطف بدعوة المسلمين الى الصدقة :

(أ) بأسلوب الخبر لا بأسـلوب الأمر ليكون الرفق بالطلب والتعـريض به ادعى الى صدق البذل .

(ب) وعلى سبيل التنكير والابهام لا على سبيل الخطاب والتعيين ، ليكون وقع الطلب على نفوسهم هينا ، وليتنافسوا فى البذل ويظهر فضـل السابق منهم الى الخير ، والمندفع منهم بنفسه الى العطاء .

(جـ) وعلى مقدار الاستطاعة حتى لا يعتذر منهم معتذر بأنه لا كثير عنـده ينفق منه ، وحتى لا يخجل منهم مقل بما يقدم من قليل عطاء .

فقال صلوات الله عليه :

(تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صـاع بره ، من صاع تمره) .

---

(١) سورة الحشر : الآية ١٨ .

واستمر الرسول صلوات الله عليه يعدد متنازلا الى اقل ما يملك حتى قال :

(ولو بشق تمرة) وهل فى الصدقة اقل من نصف تمرة ينتفع به ؟

انه لايجاز رائع ، ارشــد وحث وبلغ الغــاية . فتسابق المسلمون الى تلبية دعوة الرسول هذه ، فكان اسبقهم رجل من الانصار جاء بصرة كبيرة عجزت كفه عن متابعة حملها ، وكأنى به قد احتملها بكلتا يديه بعد أن عجزت كفه عن الاستمرار فى حملها . فسن بسبقه الى فعل الخير سنة حسنة شجع بها القوم أن يسرعوا الى حمل ما تجود انفسهم به ، فتتابع الناس كل يحمل على مقداره ، حتى بلغ ما اجتمع بين يدى الرسول كومين من طعام وثياب .
عند ذلك امتلأ قلب الرسول صلوات الله عليه ابتهاجا بما رأى ، وطفق وجهه يتهلل سرورا وبشرا ، حتى بدا كأنه فضة مذهبة .

ولم ينس الرسول صلوات الله عليه أن يذكر فضل اول القوم مبــادرة الى تقــديم صــدقته ، وينــوه بشأنه . وينتهز المناسبة لاعلان مبدأ هام من مبادىء الاسلام واصل عظيم من اصوله . فقال :

(من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير ان ينقص من اجورهم شىء ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أوزارهم شىء) .

وانما كان لصاحب السنة الحسنة أجرها وأجر من عمل بها من بعــده ــ مع انه ليس للانسان الا ما سعى ــ لأن لسبقه الى فعــل الخير تأثيرا فى اقتداء الآخرين به ويتحقق له مثل اجرهم اذا قصــد أن يكون لهم قدوة ، وعند ذلك يكون اقتداؤهم به من آثار كسبه ، أو ان كسبه قد ساهم فيه ، وبذلك يكون للعاملين اجورهم الخاصة ، ويكون لمن سن السنة اجر السبق الى فعل الخير ، الذى جعل منه قدوة حسنة لهم فيه .

وفى مقابل السنة الحسنة يكون على صاحب السنة السيئة وزر سيئته ومثل وزر من عمل بها من بعده مقتديا به أو متأثرا به ، وذلك لأنه قــد جعل من نفســـه السيئة قــدوة سيئة لهم ، بسبب مجاهرته فى فعــل السيئة وتهوينها عليهم ، فكان لبدئه نوع تأثير فيما اقترفوه من اثم ، فحمل بذلك وزرا مثل اوزارهم ، دون أن يخفف من أوزارهم شيئا لانهم مسئولون عن الســيئات التى اكتسبوها بارادتهم الحرة ، ولكن مسؤولية القــدوة السيئة كانت اكبر ، ومن اجل ذلك استحق أن يحمل الوزر على مقــدار مسؤوليته ، والآثار التى ترتبت على سبقه الى فعل السيئة .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ مشروعية طلب المستحق الصدقة لنفسه اذا حملنا كلمة (عراة) على معنى طالبي المعروف .

٢ ـ مشروعية جباية الصدقة لمستحقيها في المساجد اخذا من عمل الرسول صلوات الله عليه ، ويمكن ان يقاس عليها ما يشبهها من أمور الخير .

٣ ـ الهدى النبوى في الخطبة للحث على الصدقة ؛ وفي الأسلوب الذى اتبعه الرسول ، وفي جعل ذلك عقب الصلاة وانتهاء العبادات المحدد لها أوقات خاصة .

٤ ـ ان للانسان أجر عمله وآثار عمله من خير أو شر ، وان من آثار عمل الانسان عمل من اقتدى به اذا عمل هو العمل ليكون فيه قدوة حسنة او سيئة ، أو تهاون في المجاهرة بفعل السيئة فسهل على الآخرين ارتكابها ، وممارستها .

٥ ـ التشجيع على بذل الصدقة مهما قلت أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم : (ولو بشق تمرة) .

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ :

(لَا وَاللهِ مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَّا مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا) .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ؟ فَصَمَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : (كَيْفَ قُلْتَ ؟) قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ؟ ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

« إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ أَوَ خَيْرٌ هُوَ ؟ إِنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ ، ثَلَطَتْ أَوْ بَالَتْ ثُمَّ اجْتَرَّتْ فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ ، فَمَنْ يَأْخُذْ مَالًا بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالًا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ » .

رواه مسلم في باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا وما يبسط منها

(ا) ترجمة راوى الحديث :

١ ـ هو ابو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخزرجى الأنصارى الخدرى نسبة الى خدرة ، وبنو خدرة بطن من الأنصار .

٢ ـ كان من علماء الصحابة ، وممن شهد بيعة الشجرة ، روى كثيرا من الأحاديث ، وروى عنه جماعة من الصحابة .

٣ ـ ولد قبل الهجرة بـ (١٢) سـنة وعاش (٨٦) سـنة وتوفى فى اول سنة (٧٤) هـ .

(ب) اللغــة :

١ ـ الخير ضد الشر وجمعه خيور .

٢ ـ حبطا : الحبط أن تأكل الماشــية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونهـا ولا يخرج عنها ما فيها . هكذا قال الجوهرى .

فالحبط انتفاخ البطن من التخمة ، وفعله حبط بكسر الباء يحبط حبطا فهو حبط .

٣ ـ يلم : أى يقارب ، يقال الم أن يفعل كذا ، أى قارب ان يفعله .
فمعنى يقتل حبطا أو يلم : يقتل من التخمة أو يقارب أن يقتل .

٤ ـ الخضر : ذكر الأزهرى أن الربيع ينبت احرار العشب التى تستطيبها الماشية فتكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، وينبت ايضا الخضر وهو ليس من احرار البقول التى تكثر منها الماشية ، قال : واكثر ما رأيت العرب يجعلون الخضر ما كان أخضر من الحلى الذى لم يصفر ، والماشية ترتع منه شيئا فشــيئا ولا تستكثر منه فلا تحبط بطونهـا عنه .
(الحلى : اسم نوع خاص من النبات كما ذكر الأزهرى أيضا) .

٥ ـ ثلطت : اى سلحت سلحا رقيقا ، قال ابن الأثير : واكثر ما يقـال للابل والبقر والفيلة .

٦ ـ اجترت : أى جعلت تمضــع ما تخرجه من بطنهـا ، وكل ذى كرش يجتر ، قال الجوهرى : الجرة بالكسر ما يخرجه البعير للاجترار ، وقال ابن سيدة : الجرة ما يفيض به البعير من كرشه فيأكله ثانية .

(جـ) الشرح :

وعد وتخوف :

من القرية الصغيرة التى رماها القدر فى باطن الصحراء بعيدا عن منابع

الثروة والحضارة وثمرات الارض خيراتهـا ، يطل الرسـول العظيم على المستقبل فيشاهد مفاتيح الارض تنتشر على امتـه من بعـده ، فتتفجر لهم خيرات الحياة الدنيا ، وتفيض بين ايديهم مالا وثمرا وعزا ، فيتخوف عليهم ان تفتنهم بزينتها ، ويطغيهم منها ما ، وسلطان ، فيتنافسوا فيها كما تنافس فيها من كان قبلهم من الامم ، فيجمعوها تفاخرا وتكاثرا ، وينفقوها ترفا واسرافا ، ويكسبوها بالظلم والحرام ويمنعوها عن ذوى الحقوق فيهـا ويقتتلوا من اجلها اقتتالا طويلا عريضا

من اجل كل هذه المخاوف يقف صلوات الله عليه في اصحابه خطيبـا فيعلن عليهم بأقوى صيغة كلام مؤكد مبلغ تخوفه على امته مما سيخرجه الله لهم من زهرة الحياة الدنيـا ، سلطان وجاه ومال ولذات ، طاويا ضمن هـذا التخوف الوعد الحق بمستقبل فيه سلطان باذخ ومال كثير ، فيقول : (لا والله ما اخشى عليكم ايها النـاس الا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا) .

نفى واقسم ثم قصر بالنفى والاستثناء ، انهـا لمؤكدات كثيرة تظهر مبلغ تخوف الرسول واهتمامه .

انه صلوات الله عليه لا يخشى على امته من بعده ان يكفروا بعد ايمان ، لأن الايمان الحق متى خالطت بشاشته القلوب استمكن منها ولم يغـادر ، ولا يخاف عليهم من الفقر فانهم لا شك قادمون على فتح ابواب ممـالك الأرض ، وقابضون على نواصى شعوبها ، ولكنه صلوات الله عليـه يخشى عليهم ما يخرج الله لهم من زهرة الدنيا . انه يسمى كل ما فى الحياة الدنيا من مال ومتاع وجاه وسلطان ولذة زهرة ؛ فكما ان الزهرة تفتن بجمـال منظرها ولطف رائحتها ولكنها سريعة الذبول والفناء ، كذلك مباهج الحياة الدنيا واموالها ومتاعها ولذاتها ، ومن اجل ذلك استحقت ان يستعار لهـا لفظ الزهرة .

وقد اقتبس الرسول هذه الاستعارة من القرآن الكريم حيث يقول تعالى : **(ولا تمـدن عينيـك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيـاة الدنيـا ..) الآية (١) .**

سؤال الصحابى :

فقال رجل : يا رسول الله أيأتى الخير بالشر ؟

استفهام يطلب فيه هذا الرجل من اصحاب الرسـول حل اشكال قام فى نفسه . تفصيله أن الرسول صلوات الله عليه يتخوف على امته مما

(١) سورة طـه : الاية ١٣١ .

سيخرجه الله لهم من زهرة الدنيا ، ولا يكون تخوفه البالغ الا من امر فيه شر ، أو يمكن ان ينجم عنه شر .

هذا : مع انهم يسمون مختلف ما فى الأرض من مال ومتاع وثمر خيرا ، وقد شاعت هذه التسمية شيوعا جعلها بمثابة الوضع اللغوى لها . حتى استعمل الخير فى القرآن بهذا المعنى أكثر من مرة ، ثم ان الانسان بما فطر عليه من حاجة عيش ، وضرورة حياة ، ورغبة تكاثر ، يحب هذا الخير حبا شديدا ، وفيه يقول تعالى :

(ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد) (١) اى : لحب المال .

فاذا كان خيرا فهل يمكن للخير ان يكون وسيلة للشر او ان ينجم عنه شر ، حتى يتخوف الرسول على أمته منه كل هذا التخوف ؟ حقا انه لاشكال دقيق ، يتطلب حلا فلسفيا محكما ضمن اصول الاسلام ونظرته العامة الى الخير والشر .

سمع الرسول صلى الله عليه وسلم سؤال الرجل من اصحابه ، فصمت صمت المتأمل فى فحواه ، المتبصر بنقطة الاشكال الفلسفية التى قامت فى نفسه ، وانتظر فترة قبل اجابته ، ليهيىء أذهان الصحابة جميعا لما سيقدم لهم من حقيقة شاملة فى فلسفة الخير والشر ، طبق اصول الاسلام التى يتلقاها من الوحى .

وبعد فترة من الصمت استعاد الرسول صلى الله عليه وسلم من السائل كيفية سؤاله ليربط له الاجابة بالسؤال ربطا مباشرا ، وليسمع جميع أصحاب الرسول الحاضرين صيغة سؤال الرجل ، قبل أن يشرع فى بيان جوابه ، وحل اشكاله ، وهذا من أساليب التعليم والتربية العالية.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (كيف قلت ؟)

قال الرجل : قلت : يا رسول الله أيأتى الخير بالشر ؟ !

فلسفة الخير والشر فى الاسلام :

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : **(ان الخير لا يأتى الا بخير)** واخذ يكررها ثلاث مرات كما جاء فى رواية اخرى ، ثم قال على طريقة الاستفهام الانكارى : (أو خير هو ؟)

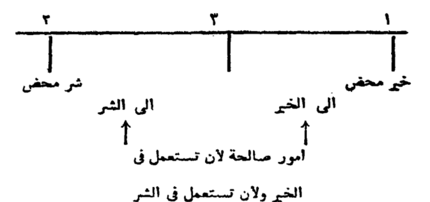
وتتضمن هذه الاجابة نظرة الاسلام الشاملة الى الخير والشر ،

---

(١) سورة العاديات : الاية ٦ ــ ٨ .

وتتلخص هذه النظرة بأن القسمة الحقيقية فى فلسفة الخير والشر ثلاثية لا ثنائية ، كما يسبق الى الوهم .

فهناك خير محض ، وهناك شر محض ، وهناك أمور لا توصف لذاتها بأنها خير أو بأنها شر ، انما هى وسائل صالحة لأن تستعمل فى الخير ، ولأن تستعمل فى الشر .



أما ما هو خير محض : فلا يمكن أن يأتى الا بخير ، ولا يمكن أن ينجم عنه الا خير ، ونستطيع ان نمثل لذلك بمعرفة الله وعظيم صفاته ، فان هذه المعرفة لذاتها خير محض لا يمكن أن ينجم عنه الا خير .

وأما ما هو شر محض : فلا يمكن ان يأتى الا بشر ، ولا يمكن أن ينجم عنه الا شر ، ونستطيع أن نمثل له بالظلم وجحود الحق ، فكل منهما شر لا يمكن لن ينجم عنه الا شر .

وأما الأمور التى لا توصف لذاتها بخير أو شر وهى صالحة بحسب الاستعمال لكل منهما : فجميع ما خلق الله فى الوجود من وسائل سلط يد عباده عليها ليبتليهم فيهـا ، هل يستعملونها فى الخير أم يستعملونها فى الشر ؟ وفى هذا التقسيم النبوى قمة الفلسفة الحقة .

وبناء عليها فان الرسول صلى الله عليه وسلم ينفى ان يكون المـال وسائر ما يخرج الله للناس من زهرة الحياة الدنيا من قسم الخير المحض ، كما انه ليس من قسم الشر المحض ، وانما يصنفه مع أفراد القسم الثالث ، قسم الوسائل الصالحة لأن تستعمل فى الخير ولأن تستعمل فى الشر .

ولما كان فى النفوس شهوات كثيرة ، وغرائز يمكن أن يطغيها المال الكثير والجاه العريض ، والسلطان الشامخ ، فيؤدى بهـا الى الشر وذلك بسبب

ما تجلبه من معصية الله تعالى ، ومخالفة أمره ونهيه ، والغفلة عن مراقبته، كان حقا أن يتخوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته من زهرة الحياة الدنيا كل ذلك التخوف .

مثلان لاستعمال المال وسيلة خير واستعماله وسيلة شر :

وبعد ان قرر الرسول هذه الحقيقة فى حكمة الاسلام الرائعة ضرب للقسم الثالث الذى هو محل شبهة السائل مثلا واضحا قريبا من بيئة العرب فقال : (ان كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم) .

ونوضح هذا المثل النبوى ، ونبسطه فيما يلى :

ما تقولون فيما ينبته الربيع من عشب مختلف الانواع ؟ الستم تسمونه فى مقاييسكم خيرا ؟ . انظروا اليه ، كم من ماشية استطابت طائفة منه ، فاستكثرت حتى انتفخت بطونها ، واعتقلت أمعاؤها ، فهلكت به ، أو اشرفت على الهلاك .

فكيف نجم عما ينبت الربيع الذى تسمونه خيرا الهلاك او ما يقاربه ؟ ولو انه خير محض لم يأت الا بخير .

اذن : ليس هو من قسم الخير المحض ، وانما هو من قسم الوسائل التى اذا اسىء استعمالها أضرت وجلبت شرا ، واذا احسن استعمالها نفعت وجلبت خيرا .

ومثل زهرة الحياة الدنيا للناس كمثل الربيع للماشية ، فاذا استحلى الانسان زهرة الحياة الدنيا فغفل عن واجبه فيها فجمعها بغير ما احل الله واذن ، أو امسكها عن ذوى الحقوق ، ولم يؤد ما فرض الله فيها ، أو انفقها فى غير ما اذن الله ، كانت سببا فى هلاكه وشقائه ، ونجم عنها شر كبير له . وما ذلك لأنها بذاتها شر ، وانما الشر هو استعمال الانسان لها فى سبل الشر التى حرمها الله .

اذا تأملنا فى حال هذا الانسان افلسنا نرى مثله كمثل الماشية التى استكثرت من احرار البقول لما استطابتها واستحلتها ، فانتفخت بطونها فماتت حبطا أو كادت . وفى صورة هذا المثل نشهد أشباح الطمع والشره والرغبة بالاستكثار فى الجمع والمنع . وكذلك الذين يجمعون الأموال بغير حق ، ويمسكونها عن المستحق .

أما من يأخذ من الدنيا باعتدال وطيب نفس كما اذن الله ، ثم يشكر الله على نعمه وينتفع مما آخذ منها بمقدار حاجته دونما شره ولا طمع ولا

اسراف ولا اثم . ثم ينفق منه على ذوى الحقوق ، ويؤدى ما فرض الله فيه ، فان المال يكون معونة له على الخير ، ونعم المعونة هو .

وان مثل هذا الانسان كمثل الماشية آكلة الخضر ، التى لا يستولى عليها الشره والطمع فلا تستكثر فوق طاقتها ، وانما تأخذ من خضر العشب ملء خاصرتيها فاذا احست الامتلاء قنعت ووقفت عن الرتع ، واستقبلت الشمس تستدفىء بها هنيئة راضية ، واخذت تفرغ مما جمعت فى بطنها بعد ان هضمته هضما رقيقا ، ثم أخذت تخرج من كرشها ما لم يتم هضمه فتجتره لتحسن هضمه ، حتى اذا فرغت بطونها واحست الحاجة عادت فأكلت من خضر ما ينبت الربيع . وفى صورة هذا المثل الثانى نلمح طيوف القناعة والرفق فى السعى ، وحسن التصرف فى الجمع، مع حسن التصرف فى الانفاق .

استخلاص الغرض من التمثيل :

واخيرا رتب الرسول صلى الله عليه وسلم على كل من المثلين النتيجة المقصودة فى الارشاد والتربية ، فقال :

(فمن يأخذ مالا بحقه يبارك له فيه ، ومن يأخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع) وفى رواية (ويكون شهيدا عليه يوم القيامة) .

وحق المال ان يجلبه الانسان مما اذن الله وكما اذن ، وأن ينفقه فيما أحل الله وعلى ما أحل ، وأن يؤدى منه واجب النفقة ، وحق الصدقة ، فاذا فعل ذلك كان المال له معونة وبركة ، ووسيلة خير .

اما ان اخذ المال بغير حقه فمثله كمثل المريض المصاب بداء البطنة الذى يأكل ولا يشبع ، فانه لا محالة هالك ، ويكون ماله الذى جمعه شهيدا عليه يوم القيامة ، فيعاقب على جمعه ، وعلى منعه ، وعلى معصية الله فيه ، وبذلك يكون له وسيلة شر .

وارادة الانسان الحرة المبتلاة فى هذه الحياة الدنيا بالخير والشر هى المسؤولة عن كل ذلك .

(د) ـ ما يستفاد من الحديث :

١ ـ التحذير من زيادة الطمع فى الأموال وسائر متع الحياة الدنيا ، لما فيها من الفتنة المؤدية الى هلاك الفرد وفساد الأمة .

٢ ـ جواز سؤال الخطيب وهو فى خطبته عن بعض المشكلات المتعلقة فى موضوع الخطبة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث اقر السائل ولم ينكر عليه ، واهتم باجابته .

٣ ـ سعة صدر الرسول صلوات الله عليه واناته وحكمته فى الاجابة ، وفى ذلك تعليم لنا وارشاد ، حتى نعرف كيف نسلك سبيل الدعوة الى الله .

٤ ـ من الأدب النبوى استعادة سؤال السائل متى طال الفصل بين السؤال والجواب ، لتكون الاجابة مقارنة للسؤال ، وبخاصة اذا كان السائل واحدا من جماعة ، وذلك ليستوعب الجميع صورة السؤال ويتنبهوا الى الجواب ، وهذا من أصول التربية التى وصل اليها المربون حديثا .

٥ ـ من الأدب النبوى ضرب الأمثال المحسوسة لتقريب الحقائق الى المبلغين ، وهذا أيضا من أصول التربية الحديثة وقواعدها .

٦ ـ بيان الفلسفة الاسلامية المبتنية على أن القسمة ثلاثية :

(أ) خير .

(ب) وشر .

(جـ) ووسائل تصلح لأن تستعمل فى الخير أو فى الشر .

الحديث الثالث

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
(تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، « لَا يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيمَاناً بِي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي ، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، » وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَامِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَداً ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُوْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ) .

رواه مسلم

(ا) ترجمة راوى الحديث :

١ ـ كنيته التى اشتهر بها : ابو هريرة .

٢ ـ اسمه مختلف فيـه على وجوه كثيرة ، واصح ما قيـل فيه ، عبد الرحمن أو عبد الله بن صخر الدوسى اليمانى .

٣ ـ صحابى جليل ، من اكثر الصحابة ملازمة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقـد كانت يده مع يده يدور معه حيث دار ، وقد كان يلازم صحبته على شبع بطنه ، وكان جريئا أن يسأل الرسول عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، ودعا له الرسول بأن يحببه الى المؤمنين .

٤ ـ أجمع اهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله صـلى الله عليـه وسلم ، واحفظهم ، روى عنه ما يزيد على (٥٣٠٠) حديث .

٥ ـ أرسل مروان بن الحكم اليه ، وطلب منه أن يحدثه بحـديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يحدثه ، وكان قد أجلس كاتبه خلف السرير ليكتب ما يحدث به ، حتى اذا كان فى راس الحول ، أرسل اليه فسأله ، وامر كاتبه أن ينظر فيما كتب عنه سابقا ، فما غير حرفا عن حرف .

٦ ـ كان اسلامه بين الحديبية وخيبر ، قدم المدينة مهاجرا وسكن الصـفة ، (وهى : ناحية مظللة من المسجد النبوى كان يأوى اليهـا فقـراء المهاجرين ومساكينهم ومن لا منزل له يسكنه ، والصفة هى الظلة) .

٧ ـ استعمله عمر على البحرين .

٨ ـ توفى سنة (٥٧) للهجرة وكان عمره (٧٨) سنة ، رضى الله عنه .

(ب) اللغة :

١ ـ تضمن الله : أى تكفل الله ، يقال : فلان ضامن وضمين ، ككافل وكفيل . وضمن الشيء وضمن به ضمانا أى : كفل به .

٢ ـ لمن خرج فى سبيله : اى لمن خرج مجاهدا مقاتلا فى سبيل الله ، وسبيل الله فى القتـال : هى الطريق التى يتبع فيهـا اوامر الله ونواهيه . والتى تؤدى الى اعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتى توصل السالك فيها الى رضوان الله وثوابه الجزيل .

والجهاد : هو بذل غاية الجهد ، والمبالغة فى استفراغ ما فى الوسع و لطاقة فى مقاومة العدو او اية قوة اخرى معارضة ، وهو مصدر جاهد يجاهد مجاهدة وجهادا ، وصيغة فاعل تدل على المشاركة ، تقول جاهدت العدو اذا قاتلته .

٣ ـ لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى ، وايمانا بى ، وتصديقا برسلى : اى لا يخرجه داعى الخروج الى القتـال الا لاجل الجهـاد فى سبيلى ، والايمان بى ، والتصديق برسلى .

وهذا الكلام من قوله : (لا يخرجه) الى قوله (أو غنيمة) حـديث قدسى منسـوب الى الله ، وهو على تقـدير كلام قبـله يفصل ما بين كلام الرسول وكلام الله ، وقد حذف ايجازا فى القول ، وتقـديره : من خرج مقاتلا لا يخرجه داعى الخروج الا جهادا فى سبيلى ، أو نحو ذلك ، وقد فهم هذا من قوله صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، اى قال فى ضمانه : من خرج مقـاتلا لا يخرجه الى آخر ما أورده الرسول من قول الله فى الحديث القدسى .

٤ ـ فهو على ضامن ان ادخله الجنة ..

اى فهو ذو ضمان على الله ان يدخله الجنة .. الى آخره ..

قال فى لسان العرب : قال الأزهرى : وهذا مذهب الخليل وسيبويه . لقوله تعالى : **(ومن يخرج من بيتـه مهاجـرا الى الله ورسـوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله)** (١) انتهى .

اى ما فى الآية يشبه ما فى الحديث من كون المجاهد صـاحب ضمان على الله ، فهو كالمهاجر الذى وقع اجره على الله .

أو ضامن بمعنى مضمون ، وقـد أورد اسم الفـاعل بمعنى اسم المفعول ، أى فهو مضمون ، وضمانه على الله .

أو فهو ضـامن لنفسـه بشىء محقق حسب وعد الله ، وما ضمنه لنفسه فعلى الله تحقيقه، وقد جاء ايراد الكلام على مثل هذا الاسلوب لان الوعد الحق بهذا الجزاء العظيم قد كان من قبل الله تعالى ، فان احتاجت القضية الى ضامن فانه لا يوجد ضامن من دون الله للمؤمن الا نفس المؤمن بالله الواثق بوعده ، ولكنه اذا ضمن لنفسه ذلك فهو غير قادر بذاته على الوفاء ، لذلك فلا بد أن يكون ضامنا على الله لنفسه أن يحقق الله له ذلك الجزاء الموعود به ، فهو نوع من التفويض الالهى للمؤمن بأن يضمن لنفسه

---

(١) النساء الآية ١٠٠

عن الله بهذا الاجر ، وهذا المعنى دقيق جدا ولكنه فى رأيى سديد يعطى التعبير ما يستحقه من دقة ، وسمو وروعة .

والضمان على الله شبيه بأن تقول : أقرضنى مائة درهم على فلان اذا كان من تعنيه قد فوضك بأن تقترض على ذمته .

٥ ـ ما من كلم يكلم :

اى ما من جرح يجرح ، والكلم بفتح الكاف وسكون اللام الجراحة فى الجسم .

٦ ـ يشق على المسلمين :

بضم الشين ، اى يثقل عليهم وتصيبهم منه شدة ، تقول : شق على الامر يشق شقا ومشقة . اذا ثقل عليك واصابتك منه شدة .

٧ ـ ما قعدت خلاف سرية :

اى ما قعدت بعد سرية دون ان أخرج غازيا معها .

والسرية : جماعة مختارة منتقاة من الجيش لا يتجاوز أقصاها اربعمائة مقاتل ، وجمعها السرايا . سميت بذلك لانها تسرى ليلا فى خفية لئلا يعلم بها العدو ، أو لأن افرادها يكونون فى العادة خيارا من العسكر ينتقون انتقاء ، اخذا من السرى وهو الشريف النفيس .

والسرية فى اصطلاح علماء السيرة النبوية هى الغزاة التى لا يكون فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما التى يكون فيها فتسمى غزوة .

٨ ـ لا اجد سعة فأحملهم :

اى لا اجد لهم عدة كافية للقتال من سلاح أو خيل ، فأتمكن من حملهم كلهم على الخروج الى قتال العدو .

(جـ) الشرح :

ان ذروة السنام فى الاسلام انما هو الجهاد فى سبيل الله ، فيه يكون نشر الدين ، ورد المعتدين ، وعزة الموحدين ، وارهاب عدو الله وعدو المسلمين ، وآخرين مندونهم من المفسدين .

وما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله الا ذلوا ، وما تركوا الاعداد له الا هانوا وضعفوا ، وما اخلدوا الى الأرض ورغبوا فى الحياة الدنيا عن الآخرة الا ضيعوا دنياهم ، وخسروا انفسهم ، ومكنوا عدوهم منهم ، وما اخلوا

بشروطه الا غلبوا وان كثروا ، وما اغتروا بانفسهم واعتمدوا على قوتهم وطمعوا بمتاع الحياة الدنيا الا خذلوا .

والجهاد هو بذل غاية الجهد فى مقاومة قوة أخرى معارضة ، تقول : جاهدت العدو إذا قاتلته فبذلت كل وسعك . وبلغت غاية طاقتك ، وهذه القوة المعارضة قد تكون من داخل نفس الانسان وقد تكون خارجة عنها .
ولنسم جهاد القوة المعارضة الداخلة فى نفس الانسان : جهاد النفس
ولنسم جهاد القوة المعارضة الخارجة عن نفسه : جهاد العدو .

ولكل من جهاد النفس وجهاد العدو اشكال ومراتب ، ولا يتم جهاد العدو على الوجه المثمر ما لم يسبقه ويرافقه جهاد النفس .

جهـــاد النفس :

وجهـــاد النفس يكون بمقاومة جهلها وانحرافاتها الفكرية والاعتقادية بالعلم والمعرفة الحقة ، وبمقاومة شهواتها الجامحة واخلاقهـا الجانحة بوسائل التربية الفضلى والسلوك الاقوم .

الأمثلة :

١ ـ كمقاومة الطمع فيها بالقنـــاعة ، وتحويل اطماعها الى ما عند الله من أجر عظيم لأهل طاعته .

٢ ـ وكمقاومة الحسد فيها بالرضى عن قسمة الله ، والاعتقـاد بأن العطاء والمنع بيده ، وانه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، وان كلا من عطائه ومنعه لا بد أن يكون لحكمة يعلمها ، وقد يكون كل منهما خيرا للانسان متى رافقه طاعة الله ورضوانه .

٣ ـ وكمقاومة الشهوات الملحة بالصبر . واطماع النفس بما عند الله من أجر ، وتغذيتها بما أحل الله ، والكف عما حرم .

٤ ـ وكمقاومة الجبن والشح فيهـا بوسائل الاقنـاع والترغيب التى تغذيها بأن الآجال والأرزاق محتومة . وتفتح امامهـــا ابواب الامل والرجاء بما اعد الله لباذلى أرواحهم وأموالهم فى سبيله من اجر عظيم وثواب جزيل . وباستثارة كوامن الايمان فى القلب حتى تندفع النفس الى مرضاة الله مشحونة العاطفة بقوة الايمان ، ومهدية السبيل بنور الاسلام . وهكذا

وقد كان الصـــدر الاول من المسلمين يسمون جهاد النفس الجهاد الاكبر ، فاذا قفلوا من غزوة قالوا : رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر .

جهـاد العـدو :

اما جهاد العدو فله وسائل شتى ، تبدأ بوسائل الدعوة المختلفة التى تتدرج من الاخف الى الخفيف ، فالى الشـديد فالأشد ، حتى تنتهى بالقتال لتكون كلمة الله هى العليـا .

ووسائل الدعوة هى كل ما يمكن ان يوصل فكرة الحق وتطبيقـاته الى عقول المعارضين ونفوسهم واعمالهم ، فمنها ما يلى :

١ ـ الدعوة الحكيمة وتكون :

(أ) باللسـان : ويقتدى المجاهد فى ذلك بجهـاد الدعوة الذى قـام به الرسول صلوات الله عليـه ، والنخبـة الممتـازة من صحابتـه ، وتابعيهم باحسـان .

وتتضمن الدعوة الحكيمة باللسـان الاقناع بالحديث الخاص ، والاقنـاع بالخطـابة العـامة ، والمجادلة بالتى هى احسن ، وهـذا ما يشـير اليـه قوله تعـالى :

(ادع الى سـبيل ربك بالحكمـة والموعظـة الحسـنة وجادلهم بالتى هى احسن) (١) .

ويمكن ان يكون المراد من الحكمة وسائل الاقناع بالعلم والحجج المنطقية البرهانية ، وان يكون المراد من الموعظـة الحسنة وسائل التأثير الخطـابى بالترغيب والترهيب .

(ب) بالكتابة نثرا وشـعرا : ويكون ذلك بالمؤلفات والمقـالات وسـائل وسائل النشر المكتوبة ، التى تدخل الى النفوس من طريق الاقنـاع الفكرى والتأثير الوجـدانى .

٢ ـ بالأسوة الحسـنة : وتكون بأن يجعل الانسـان من نفسـه قـدوة حسنة محببة يقتدى بها الآخرون ، اعتقاداً وقولا وعملا وخلقا .

٣ ـ بالتربية والتعليم : ويكون البدء بهذه الوسيلة منذ المراحل الاولى للطفولة ، لانهـا حينئذ تكون انفـذ الى اعماق النفس ، واكثر تأثيرا ، وابقى مـع الـزمن .

٤ ـ ببذل عرض الحيـاة الدنيـا لتاليف القلوب على الخير والهـدى : ويكون ذلك ببذل المال والجـاه وانواع المعونات والصـلات المادية والمعنوية والمساعدات والعطاءات ، وما اكثر ما كان الرسـول صلوات الله عليه يبذل

---

(١) النحل الآية ١٢٥

من ذلك لتاليف القلوب اضافة الى كون حب العطاء خلقـــا أصيلا فيه ، قال تعالى : **(وجاهدوا باموالكم وانفســكم فى ســبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمـــون)** (١) .

٥ ـ **بقوة الســلطان :** ويكون ذلك بتسخير قــوة الســلطان المعنوية ثم المادية لهــداية النـــاس الى الخــير ، والزامهم به ، وله وجــوه تطبيقيـــة كثيرة جـــدا .

٦ ـ **باعداد القوة التى تربو على قوة العـــدو** من مال وســـلاح ورجال وخبرات . وغير ذلك ، قال تعالى : **(واعــدوا لهم ما اســتطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)** (٢) .

٧ ـ **بالقتال لاعــلاء كلمة الله :** وتكون هذه الوســيلة فى آخر الأمر اذا لم تجـــد كل الوســـائل الأخرى من دونه ، واصبح المسلمون تحت الخطر بالنسبة الى عدوهم .

وحيث الجأت الضرورة الى سلوك سبيل القتال فان القتـــال يستدعى الجود بالنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

ومن اجل ذلك كان له حظ الشـــهادة فى ســبيل الله ، وكان للمقاتل فى سبيل الله من الضمان الالهى أن يدخله الله الجنة ، وأن ينال ما لا يوصف من اجــر عنــده .

ولكن له ركنا اساسيا لا بد منــه ، وهو أن يكون جهـــاده فى سبيل الله ، ويعنى هذا الركن العام فى دلالته ، ما يشمل تحــديد الباعث له على الخروج الى القتال ، والمطلب الذى يسعى الى تحقيقه فى الدنيا ، والغـــاية القصوى التى يرجوها عنــد الله .

وذلك لأن الضمان الذى ضمنه الله للمقـــاتل انما هو لمن خرج فى ســـبيله لا يخرجه اى دافع دنيوى ، وانما يخرجه ما يلى :

(أ) **باعث اسمى فى نفســـه يحــركه الى الخــروج** ، الا وهــو باعث الايمان بالله والتصديق برسله وهــو ما أشـــار اليــه الحديث فى الفقرات القدسية منه ، وذلك فى قوله : **(ايمانا بى وتصديقا برسلى)** .

---

(١) التوبة الآية ٤١

(٢) الانفال الآية ٦٠

(ب) **ومطلب يسعى الى تحقيقه فى الدنيا** اذ يقذف بنفسه الى معترك الموت باذن الله وطاعته فيقتل أو يقتل : الا وهو نشر دين الله واعلاء كلمته ، ويدل عليه من الحديث قوله : **(الا جهادا فى سبيلى)** أى فى سبيل نشر دينى واعلاء كلمتى ، كما جاء التصريح فى حديث أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، والرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل غضبا ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله)** .

(جـ) **وغاية قصوى يرجوها عند الله** ، الا وهى نيل رضوانه ، وبلوغ جنته وما أعد من عظيم أجر للمجاهدين المقاتلين فى سبيله ، ويدل عليها من الحديث أيضا قوله : **(الا جهادا فى سبيلى)** أى فى سبيل بلوغ رضوانى ، وما أعددت من أجر لباذلى أرواحهم فى طاعتى .

الشروط التى يجب توافرها اثناء القتال :

وهناك شروط لا بد من توافرها أثناء القتال فى سبيل الله ، فبعد تحديد الغاية من القتال ، واعداد العدة له ، والتصميم على مباشرته ، ابتغاء نشر الدين ، ودفعا لعدوان المعتدين ، يجب على المقاتلين فى سبيل الله أن يتقيدوا بالمنهج التطبيقى الذى شرعه الله فى القتال ، ويلتزموا جميع الشروط التى أمر الله بها فيه ، وينتهوا عما نهى الله عنه ونستطيع أن نجمل الشروط التى يجب توافرها فيما يلى اقتباسا من الآيات القرآنية فى القتال :

الشرط	الدليل
١ ـ وحدة الغاية :	١) ـ الآية : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) . التوبة (٤١) والآية : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

الشرط	الدليل
	فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) . الانفال (٣٩)
	والحديث (لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَإِيمَاناً بِي وَتَصْدِيقاً بِرُسُلِي) .
٢ ـ وحدة صف المقاتلين وتماسك جماعتهم	٢) ـ الآية : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) . الصف (٤)
٣ ـ الاعتماد على الله في تحقيق النصر . وعدم الاغترار بالنفس	٣) ـ الآية : (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . الانفال (١٠)
	والآية : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) . التوبة (٢٥)
٤ ـ شدة الباس في القتال .	٤) ـ الآية : (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . الانفال (٥٧)

الدليـــل	الشـرط
٥) و ٦) و ٧) ــ الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . الأنفال (٤٥) والآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) . الأنفال (١٦)	٥ ــ الثبات والمصابرة ٦ ــ عـدم تولية الأدبار ٧ ــ الإكثار من ذكر الله
٨) و ٩) ــ الآية : (وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . الأنفال (٤٦) والآية : (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ	٨ ــ الطـاعة ٩ ــ عـدم التنازع في الأمـر .

الدليل	الشرط
مَا تُحِبُّونَ مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) . آل عمران (١٥٢)	

الروح المعنوية العاليـة فى جيش المسـلمين :

ومتى تلمس المقاتلون فى انفسهم هـذا الباعث على القتـال ، وحددوا لانفسهم سبيل العمل اذ يباشرون جهادهم لاعـلاء كلمـة الله ، واستحضروا فى قلوبهم انهم يبتغون من جهـادهم نيل رضوان الله وثوابه ، وقاموا بشروط القتـال كما أمرهم الله . كانوا كتلة من القـوة والبـأس رهيبـة ، لأن من استجمع كل ذلك نزع الجبن من قلبـه . فلم يخش الموت ، فاقبل على القتال شديد البأس ، ثابت القدم . مشوقا الى بلوغ احدى الحسنيين :

١ ــ النصر واعـلاء كلمة الله .

٢ ــ الشهادة عنده وبلوغ رضوانه .

كما انه يجد معونة الله مصاحبـة له مهما كر أو فر ، ويعلم أن وعد الله بالنصر للصادقين معـه المخلصين له لا بد محقق ، لأنه فيما يقوم به انمـا يقاتل عـدو الله وعدو المسلمين وهو يعتقـد انه يقـاتل باذن الله وامـره ، مؤيدا بعون الله وقهره ، موعودا بأجر الله ونصره .

ولذلك ترتفع قوة المقاتلين فى سبيل الله بحسب ما فى قلوبهم من ايمـان وصبر وصدق مع الله حتى يكون الواحـد منهم مكافئا للعشرة من العدو فى الحد الأعلى ولاثنين من العدو فى الحد الأدنى ، ويدل على ذلك قوله تعـالى :

« يا ايها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منـكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منـكم مائة يغلبوا ألفـا من الذين كفروا بأنهم قـوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة

يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين))(١) .

هذه قوة المؤمن الصابر بخلاف الذى يقاتل حمية وعصبية ؛ أو يقاتل من اجل الوصول الى مال أو مجد دنيوى ، أو يقاتل فى سبيل حزب أو زعيم ، أو غير ذلك من أمور الدنيا ؛ فانه ان يخرج الى القتال فما أسرع ما يدب الذعر الى قلبه . ويصيبه الخوف والهلع ، اذ يقول لنفسه ما قيمة المال اذا فقدت حياتى . ولماذا أموت ليكون غيرى زعيما أو ذا مجد ؛ وأى مجد أمسك به اذا أصبحت فى الغابرين .

ثم انه فى الغالب متى وجد لنفسه منفذا للفرار من المعركة اخذ سبيله اليه . الا ان يغلب على ظنه أنه بقوته منتصر ، وأن عدوه ضعيف أو جبان ؛ او أن يقوم فى نفسه انه اصبح ملزما بالقتال والا قتل ؛ فهو يحاول ان يقاتل ليدفع عن نفسه الموت بما استطاع .

ومن اجل ذلك نلاحظ ان الجيوش تعانى أكبر ما تعانى مما يسمى عند العسكريين بفقد الروح المعنوية .

اما جيوش الاسلام الصادقة مع الله المقاتلة لاعلاء كلمته ، وابتغاء تحقيق رضوانه ،واستحقاق جنته ؛ فانها قلما تصاب بفقد الروح المعنوية . حتى ولو لم يتحقق لها الظفر المادى على العدو ، لأن كل مقاتل فيها يعتقد انه قد ظفر بما يقاتل من اجله وهو بلوغ رضوان الله وتحقيق الأجر عنده ، وأنه يقاتل لغاية هو يرجوها ويطلبها ولم يفرض عليه القتال لمصلحة غيره .

أما النصر المادى فيعتقد أنه بيد الله يؤتيه من يشاء لحكمة يعلمها . وحكمة الله غير متهمة فى قلوب المؤمنين .

ما جاء من الضمان الالهى لمن خرج فى سبيل الله :

يقول الله سبحانه فى الحديث القدسى :

((من خرج لا يخرجه الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن ان ادخله الجنة أو ارجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة)) .

أى من خرج الى قتال اعداء الله مستجمعا هذه الشروط فقد حق له وعد من الله صادق ، فليضمنه على الله لنفسه ، والوعد : هو أن يدخله الله الجنة اذا قتل فى سبيل الله ، أو يرجعه الى مسكنه نائلا من الأجر العظيم ما لا يقدر

---

(١) الانفال الآية ٦٥ ، ٦٦

اذا سلم ، وقد يصيب مع الأجر العظيم غنيمة من العدو يأكلها حلالا طيبا ما لم يأخذها بمعصية أو غلول .

و (او) في (او غنيمة) بمعنى الواو ، ويظهر لى انها استعملت فى هذا المقام بدل الواو لأن المعطوف عليه وهو الاجر امر محقق ، اما الغنيمة فقد تحصل وقد لا تحصل والله اعلم .

ما جاء من الترغيب بالجهاد فى سبيل الله على لسان الرسول :

ولقد رغب الرسول صلوات الله عليه بالقتال فى سبيل الله اذ أوضح فى الحديث صورة صك الشهادة التى يحملها يوم القيامة كل مجاهد أصابه فى سبيل الله جرح ما صغيرا كان أو كبيرا ، اذ يأتى وجرحه ينزف دما ، لونه لون دم وريحه ريح مسك ، وانها لأعظم شهادة مرئية يأتى بها المجاهد فى موقف الحساب ، يشهدها أهل المحشر ويتنسمون ريحها ، ويكرمون صاحبها ، ويشهدها الملائكة فيأخذون بيد صاحبها الى مقام التكريم ، وتكون له وثيقة مباركة يجتاز بها الى ما اعد الله من اجر المجاهدين فى سبيله ، فقال الرسول مقسما :

« والذى نفس محمد بيده ما من كلم ، يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه مسك » .

تقديم الرسول المصلحة العامة على رغبته الخاصة :

واذا كان للقتال فى سبيل الله كل هذا الأجر العظيم ، فلماذا لا يخرج الرسول بنفسه مع كل سرية تقاتل فى سبيل الله ؟ .

سؤال طرحه الرسول على نفسه ولم يصرح به ولكنه أعطى الاجابة عليه ، بكلام يعلن شدة ولعه بأن يكون مع كل سرية تغزو فيقتل ، ثم يغزو فيقتل ، مرات ومرات ، حتى ينال ثواب الغزاة المجاهدين القاتلين فى سبيل الله ، ويكون من الشهداء عنده ، الا انه يرجح مصلحة المسلمين العامة على رغبته الخاصة ، ويعطى فى ذلك سنة للقادة من بعده ، لأنه لو خرج مع كل سرية لشق ذلك على المسلمين ، فاما أن يتحملوا ما لا يطيقون فيخرجوا معه دون أن يكون لديهم العدة الكافية لمقابلة العدو ، فيعرضوا انفسهم الهلاك ، واما أن تتقطع قلوبهم حزنا اذا تخلفوا عنه وتركوه يخرج للقتال مع السرايا ، فقال الرسول مقسما :

« والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعــدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله ابدا ولكن لا أجد سعة فاحملهم ولا يجدون ســعة ، ويشق عليهم ان يتخلفوا عنى . والذى نفس محمد بيده لوددت انى اغزو فى سبيل الله فاقتل ، ثم اغزو فاقتل ، ثم اغزو فاقتل » .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ــ الضمان بالجنة لمن يقتل فى سبيل الله .

٢ ــ الأجر العظيم الذى يفوق التقدير الانسانى للمجاهد فى سبيل الله .

٣ ــ ان الجرح الذى يجرح فى سبيل الله يأتى يوم القيــامة مثل هيئته يوم جرح الا ان ريحه كريح المسك يعبق طيبا .

٤ ــ للقائد العام ان يتخلف عن الجيش المقاتل اذا كان تخلفه لمصلحة عامــة للمسلمين اكبر من خروجه الى القتــال .

٥ ــ مشروعية ارسال السرايا وجواز تخلف قسم من المسلمين عن القتـال وذلك ضمن التخطيط العــام الذى تقتضيه المصلحة السياسية العليا للمسلمين ؛

٦ ــ كون الرسول يود أن ينال منزلة الشهداء فى سبيل الله ، فيغزو فيقتل ، ثم يغزو فيقتل ، ثم يغزو فيقتل ، وهذه المحبة لا تتعارض مع ما وعده الله به من العصمة من الناس ، لأن العصمة التى حفظه الله بها من الناس لمصلحة الرسالة التى يحملهــا ؛ والأمــة التى يقودها ويسوسها ، أما محبته الشــــهادة فى سبيل الله فلينال هو أجر الشــــهداء ، وليبين للمســـلمين انه وهو الرســـول الكريم ذو المنزلة العظمى التى لا يبلــغ شأوها احد ، يود لو يقتل فى سبيل الله ؛ ليضيف الى منزلته العظمى درجة الشــهداء ، وليبين لهم انه أسبق منهم الى بذل روحه فى سبيل الله ، وانه لا يبخل بنفسه ، ولا يجبن عن قتال ، وقد كان صلوات الله عليــه فى الغزوات أشــجع النــاس .

الحديث الرابع

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - : (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) .

رواه البخاري ومسلم

١ ـ ترجمة راوى الحديث :

١ ـ هو ابو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى ، نسبة الى اشعر وهى قبيلة من قبائل العرب ، قال الجوهرى : والأشعر ابو قبيلة من اليمن ، وهو اشعر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

٢ ـ صحابى جليل أسلم قبل الهجرة ، وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد أوتى مزمارا من مزامير داود ، فقد كان صاحب صوت جميل .

٣ ـ استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن ، واستخلفه عمر على البصرة ففقههم وعلمهم ، واستعمله ايضا على الكوفة ، كما ولى الكوفة زمن عثمان .

٤ ـ قال الشعبى : خذوا العلم عن ستة وذكر فيهم ابا موسى الأشعرى، وقال ابن المدينى قضاة الأمة اربعة : عمر ، وعلى ، وابو موسى ، وزيد بن ثابت .

٥ ـ توفى رضى الله عنه سنة (٤٢) للهجرة ، وقيل سنة (٤٤) وقيل غير ذلك ، عن عمر بلغ (٦٢) سنة .

(ب) اللغة :

١ ـ من الهدى والعلم :

الهدى : هو الارشاد ، والدلالة الى طريق الحق والخير والسعادة ، وهو ضد الضلالة ، والهدى يذكر ويؤنث .

ولما كان مما جاء به الرسول صلوات الله عليه بيان الصراط المستقيم المؤدى الى رضوان الله ، وسعادة الانسان فى الدنيا دار الابتلاء والآخرة دار الجزاء كان جديرا بأن يطلق عليه انه الهدى .

العلم : هو الفهم المطابق للواقع ، ويدخل فيه حقائق الأخبار التاريخية، والحقائق الغيبية ، والحقائق العقلية ، والحقائق العملية التى تكسب المتحلى بها سعادة الدارين . ومن تأمل فيما جاء به الرسول مما وصل الينا بطريق يقينى صادق تبين له أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢ ــ كمثل غيث :

مثل ومثل : كلمة تسوية ، يقال : هــذا مثله ومثله ، كما يقال شبهه وشبهــه .

ودخول الكاف على مثل زائدة للتأكيــد ولتزيين اللفظ ، فالمراد من (كمثل) كالمراد من (مثل) ونظيره ما فى قوله تعالى : **(ليس كمثله شىء)** (١) اى ، ليس مثله شىء .

غيث : الغيث المطر . وغاث الغيث الأرض اذا أصابها ويقال : غــاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا انزل بها الغيث .

٣ ــ طائفة طيبـــة :

الطائفة من الشىء جزء منه او قطعــة منــه ، يقال طائفة من الأرض ، وطائفة من الليل ، وصنفة من الناس .

اما الطائفة من الناس فتطلق على الرجل الواحد فما فوق ، وقيل : اقــل الطائفة رجلان .

قال تعالى : **(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما)** (٢) .

طيبة : الطيب خلاف الخبيث ، ويقــال ارض طيبــة اذا كانت تصــلح للنبات ، وامرأة طيبة اذا كانت حصانا عفيفة ، وبلدة طيبة آمنة كثيــرة الخير ، وتربة طيبة أى طاهرة ، وهكذا وكلها ترجع الى معــانى الجــودة والكمال ونفى الخبث .

٤ ــ فانبتت الكلأ والعشــــب :

الكلأ : عند العرب ما تنبته الأرض من مرعى الدواب .

العشب : هو الرطب من البقول البرية ينبت فى الربيـــع ، واحــدته عشبة ، وجمع العشب اعشاب .

٥ ــ وكان منهــا اجادب :

الأجادب من الأرض : قال ابن الاثير : (الاجادب صــــلاب الارض التى تمسك الماء فلا تشربه سريعا) .

قال ابن منظور فى لسان العرب : (وقد يكون جمع اجدب الذى هــو جمع جدب . مثل كلب واكلب واكالب . فهو على هذا جمع الجمع .

---

(١) الشورى الآية ١١

(٢) الحجرات الآية ٩

٦ ـ انما هي قيعان :

القيعان : جمع قاع . والمراد من القيعان فى الحديث انواع من الأرض لا تمسك المـــاء ، ولا تنبت الكلأ . وهذه تكون عادة فى أرض صلبة قاســية مستوية ، او ارض رملية غير صالحة للنبات ، أو صخور قاسية ملســاء .

٧ ـ فذلك مثل من فقه فى دين الله :

فذلك : الاشـــارة الى مختلف أصناف الأرض التى وردت فى التشبيه .

فقه : بضم القاف اى صار الفقه له سجية وخلقـا لازما ، والفقه الذى هو مصدر فقه هو الفهم الدقيق العميق . اما فقه بكسر القاف فمعناها فهـــم .

٨ ـ ومثل من لم يرفع بذلك راسا :

هذا التعبير كناية عن أنه ظل معرضـا ، فلم يستجب لما جاء به الرسول صــلوات الله عليه من هدى وعلم ، ولم يصغ اليه سمعا ، لأن من عرض عليه أمر فلم يكترث به لم يرفع رأســه لاستماعه فضـــلا عن ان يهتم بالعمل بـــه .

(جـ) الشرح :

١ ـ مقدمة :

تضمن هذا الحديث من كلام الرسول صلوات الله عليــه بيـانا لمعظم احوال الناس واقسامهم بالنسبة الى ما بعث الله به رســوله من الهــدى الى الصراط المستقيم ، والعلم بأصول الدين واحكام الشريعة التى اصطفاها الله ، وختم بها رسالاته للناس . وذلك فى صورة تشبيهية بالغة الروعة ، أبرزت أصنافا ثلاثة من الناس ، وأصنافا ثلاثة من الأرض ؛ هذه بالنسبة الى الغيث الذى ينزله الله من السماء الى الأرض ؛ وتلـك بالنســبة الى العلم والهدى اللذين انزلهمــا الله من السماء وبعث بهما نبيه محمد ليبلغهما للناس .

٢ ـ مثل ما بعث الله به نبيه كمثل الغيث

ما أشبه الهدى الاسلامى ، والعلم الربانى بالغيث تجود به السماء .

(ا) فيهما أمران فيهما حياة الناس المعنوية حياة سعيدة باذخة المجد عزيزة الجانب ، والغيث فيه حياة الأرض ونضارتها ورونقها .

(ب) وهما أمران منزلان على رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ مـن السماء ، أى من جهة السمو المعنوى ، والسمو المادى ايضــا بالنســـبة

الى الأرض ، والغيث ينزل من السماء ، اى من جهة السمو المادى بالنسبة الى الأرض ، ومن جهة السمو المعنوى ايضا ، لأنه انما ينزل بمشيئة الله ، وعلى وفق مراده .

(جـ) وهما امران نقيان طاهران من كل باطل أو فساد ، والغيث نقى طاهر من كل رجس .

(د) وهما امران يقدمهما الرسول الى الناس جميعا على السواء ليتعلموا ويهتدوا ، والغيث اذ ينزل فى بلد فانه يشمل رقعة ارضها ، فيصيب مختلف أصنافها على السواء دون ان يفرق بين حجر صلد ، ورمال غير متماسكة ، وتربة خصيبة .

فما بعث الله به نبيه محمدا من الهدى والعلم مشبه ، والغيث مشبه به ، والأمور الأربعة التى ذكرناها هى وجوه الشبه ، ولكن هذه الوجوه لم يصرح بها فى الحديث ، لأنها مما يمكن استنباطه بالتأمل فكان حذفها ابلغ من ذكرها .

انه تشبيه بين منزلين من السماء ، احدهما هدى وعلم ، والآخر ماء طهور .

وفى الحديث تشبيه آخر اذ يشبه الرسول الناس بالأرض ، هؤلاء انزل الهدى والعلم لحياتهم وخيرهم ، وهذه ينزل الماء لحياتها وخيرها ، والناس بالنسبة للهدى والعلم اصناف كما ان الأرض بالنسبة الى ماء السماء أصناف .

٣ — طائفة طيبة من الأرض يشبهها طائفة طيبة من الناس .

ففى الأرض طائفة طيبة . حسنة التربة ، منخفضة الجانب ، متعطشة للغيث ، مستعدة للحياة ، خيرة معطاة ، غنية بالخصب والنماء . يصيبها الغيث فتقبله امتصاصا ورشفا ، وتحتويه فى كل ذرة منها ، حتى اذا بل جفافها ، وخالط ذراتها ، واروى ظمأها ، وسقى بذورها . تفتقت عن خيراتها بزروع شتى ، وثمرات مختلفات ، واهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج ، فأقبل كل منتجع للخير فأخذ منها شبعا ومدخرات ، واستنبط منها ريا اذا شاء .

وهذه الطائفة الطيبة من الأرض متفاوتة فى مقادير جودتها وخصوبتها وعطائها ، فمن خيرة غنية كثيرة العطاء الى رقيقة فقيرة قليلة الخصوبة .

وعلى مثل هذه الطائفة الطيبة من الأرض نجد فى الناس امام غيث الهدى والعلم قسما طيبا ، حسن الفطرة ، لين العريكة ، موطأ الأكناف .

متعطشا للمعرفة ، مستعدا لخير الحياة ، يعرض عليه الهدى والعلم اللذين بعث الله بهما رسوله محمدا صلوات الله عليه ، فيقبله بلهفة وشوق قبول الظامىء اليه ، حتى اذا بالط منه عقلا واعيا ، وقلبا مطمئنا ، ونفسا هينة لينة ، تدفقت منه الأعمال الصالحة ، وتفجرت فيه ينابيع الحكمة ، تسقى الواردين ، وتمنح القاصدين ، وتعطى فضلها للبعداء الجاهلين .
وافراد هذا القسم الطيب من الناس متفاوتون كذلك فى مقادير ما عندهم من استعداد للهداية والعلم والنفع والعطاء ، ففيهم نخبة ممتازة كالخيرة الجلة من اصحاب رسول الله ، وهم السابقون الأولون ، ثم تتنازل المراتب حتى تصل الى أدناها ممن عنده ايمان قليل صحيح مقبول عند الله ، وقليل من خير ونفع للناس .

أفلسنا نرى تشابها كبيرا بين هذه الطائفة الطيبة من الأرض ، وهذا القسم الطيب من الناس ، فى كثير من وجوه الشبه ، امام متشابهين آخرين ، هما الغيث ، وما جاء به الرسول من الهدى والعلم ؟ .

٤ ـ طائفة اجادب من الأرض يشبهها قسم من الناس :

وفى الأرض طائفة لا خصب فيها ، ولا خير عندها ، ولكنها مطمئنة الجانب ، يصيبها الغيث من السماء فتحفظه فى منخفضاتها ، وفى تجاويفها ، ولا تستكبر عن تلقيه وحفظه ، مع انها لا ترتشفه ولا يخالط منها تربة صالحة ، لذلك فهى لا تعطى ثمرا ، ولا تنبت نباتا حسنا ، ولكنها تحفظ ما ينزل عليها من الغيث ، فيأتى الناس فيجدون ما عندها من ماء ، فيأخذونه ، فينتفعون به ، يسقون ويزرعون ، ويردون ويوردون ، وهذه الطائفة من الأرض متفاوتة فى مقادير ما تحفظ من ماء ، على مقدار ما عندها من استعداد للاستيعاب ، فمنها ما يحوى البحيرات الضخمة ، ومنها ما يحوى الجرعات الخفيفية ، ومنها ما هو بين ذلك .

وفى الناس امام غيث الهدى والعلم طائفة اجادب كذلك لاتقبل فى ذاتها الخير والهداية ، فلا تنبت عملا صالحا ، ولا تمنح خيرا ، ولا ثمرا ، ولكنها تستوعب ما يلقى اليها من علم ومعرفة استيعاب الحفظ المجرد ، لا استيعاب الحفظ مع العمل والتطبيق ، فيأتى اليها طلاب الهداية والمعرفة ، فيجدون ما عندها من ذلك ، فيتعلمونه ويعملون به وينتفعون وينفعون ، ويستفيدون ويفيدون .

وهذا القسم من الناس هم الذين يستمعون الى الهداية والعلم ، ويتعلمون ما يسمعونه فيحفظونه كله أو بعضه ، ولكنهم لا يعملون بما يعلمون ، ولا يطبقون ولا ينتفعون .

فيأتى اليهم طالب المعرفة والهداية ، فيجد ما عندهم من علم فيأخذه عنهم فينتفع به ، ويهدى به الناس .

أما هم فمن الخير لأنفسهم بعيدون . وللعمل الصالح مجافون ، وهم العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون .

وقد أنزل الله فى علماء اليهود الذين لا يعملون بعلمهم قوله :

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا) (١) .

وأفراد هذا القسم من الناس متفاوتون فى مقادير ما عندهم من استعداد للاستيعاب والمعرفة . فمنهم من يستوعب علما جما . ومنهم دون ذلك . وتتنازل المراتب حتى مرتبة الذى لا يعلم الا المسائل اليسيرة .

افلسنا نرى تشابها كبيرا بين هذه الطائفة الأجادب من الارض . وبين هذا القسم من الناس الذى يحمل العلم ولا يعمل به . ولا ينتفع فيه ؟

٥ ــ طائفة قيعان من الأرض يشبهها قسم من الناس لا خير فيه :

وفى الارض قيعان . صخور قاسية ملساء . وأرض مستوية صلدة . ورؤوس جبال مستكبرة . ورمال قاسية مبعثرة . ينزل عليها الغيث من السماء ، فيصيبها كما يصيب غيرها من الارض . ولكنها لا تمتص ماء . ولا تمسكه . ولا تحفظه . ولا تنبت كلأ ولا عشبا . فهى لاتنتفع من الماء بنفسها ، ولا تمسكه لمن ينتفع به .

وعلى مثل هذه القيعان من الارض نجد قيعان أخرى من الناس ، يقرع اسماعها هدى الاسلام وعلومه . وتصدم عيونها انواره . وتنزل عليها غيوثه ، ولكنها لا تعبأ بهدى منه ولا معرفة . ولا ترفع بشىء من ذلك رؤوسها ،قسوة فى قلوبها . وكبرا فى انوفها . وجفاء فى طباعها . فهى لا تقبل من الحق الذى جاء به عملا ولا علما . يحجبها عن الخير شىء فى نفوسها ، مثل الشىء الذى نجده فى صخرة صماء من الارض . وان افتخرت على التراب الطيب بقساوتها ، أو ارتفاع مكانها : فما هذا بفخر يذكر . ولا بمجد يؤثر ، وانما الفخر كل الفخر لأرض طيبة تنبت الجنات ، وتعطى الثمرات ، وتفيض بالخيرات والبركات ، وان انخفض مكانها ولان جانبها .

---

(١) الجمعة الآية ٥

او يحجبهـا عن الخير مثل الشىء الذى نجـده فى أرض صلبة مسـتوية ينفسح عنها الماء ، او فى رمل صلب الذرات لا تماسك فيه .

هذا القسم من الناس هو قسم الكفرة الجهلة الذين يستكبرون عـن العلم والعمل معا ، وتقسو قلوبهم ، وتتحجر عقولهم . فهم لا خير عنـدهم لانفسهم ، ولا خير عندهم لغيرهم .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ الناس اقسام ثلاثة :

(أ) متعلمون عاملون نفاعون ، مثلهم كمثل الأرض الطيبة .

(ب) متعلمون غير عاملين ، فيهم نفع لغـيرهم دون انفسـهم ، مثلهم كالأجادب من الأرض .

(جـ) لا عاملون ولا يتقبلون العلم والمعرفة ، فهم لا خير فيهم لانفسـهم ولا لغيرهم ، ومثلهم كمثل القيعان من الأرض .

٢ ـ بلاغة الرسول صلوات الله عليه فى تقريب الحقائق العلمية بالأمثلة والتشبيهات الحسية . لأن ذلـك ادعى الى تثبيت الحقيقـة فى نفـوس السامعين ، واكثر تاثيرا فى توجيهها للخير . .

٣ ـ ما جاء به الرسول من هدى وعلم يتضمن حياة النـاس كمـا ان الغيث فيه حيـاة الأرض .

الحديث الخامس

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ : لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ : رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)

متفق عليه

(أ) ترجمة راوى الحديث :

سبقت فى الحديث الرابع .

(ب) اللغــة :

١ ــ **القرآن :** اسم لكتاب الله المعجز الذى انزله الله على نبيه محمد صلوات الله عليه ، ووصل اليـا بالتواتر .

واصل كلمة قرآن مصدر قرا بمعنى تلا ــ وبمعنى جمع . تقول : قرات السورة قرا وقراءة وقرآنا اذا تلوتها . وتقول : قرات الماء فى الحوض قرآنا اذا جمعته فيه .

وكتاب الله القرآن على المعنى الأول أفضل مقروء متلو ؛ وعلى المعنى الثانى هو افضل واعظم وأحكم ما جمع من كلام .

٢ ــ **الاترجة :** واحدة الأترج . ويقال فيها : ترنجة ، وترنج ، وهو مايسمى فى بلاد الشام (الكباد) فاكهة من الحمضيات ذات رائحة طيبة . وقشرة الكبير منه يبلغ سمكها نحو عقدة الانملة . ويصنع من قشره اجود انواع المربى . ولبه شديد الحموضة كثير الفائدة .

٣ ــ **التمرة :** واحدة التمر . وهو اسم جنس يفرق بينــه وبين واحده بالتاء . فاذا اريد به الانواع جمع على تمور وتمــران ؛ وجمع التمرة تمرات بالتحريك .

٤ ــ **المنافق :** اسم فاعل من نافق ينافق منافقــة ونفاقا . والنفــاق هو اظهار الاسلام وابطان الكفر . وهو بهذا المعنى اسم اسلامى لم تعرفه العرب قبل الاسلام . ولكنه مأخوذ من نافقاء اليربوع (دويبة فوق الجرذ) وذلك لأن اليربوع يتخذ لنفسه فى الارض نفقين او اكثر ؛ يجعل فى الارض بينهما حجابا رقيقا ، ويجعل على احدهما سترا من التراب . والعرب تسمى احد النفقين النافقاء . وتسمى الآخر القاصعاء ؛ فاذا لوحق اليربوع من القاصعاء ضرب الحجاب الرقيق بين النفقين براسه فخرج من النافقاء ؛ واذا لوحق من النافقاء ضرب الحجاب الرقيق الى القاصعاء وفر منها .

وقد شبه ما يفعله من يظهر الاسلام ويبطن الكفر بذلك ، لأنه اذا لوحق من قبل المؤمنين بكفره فر واظهر نفسه فى صف المسلمين ، واذا لوحق من قبل الكافرين فر واظهر أنه منهم ؛ ويصور القرآن حقيقة المنافقين بقوله تعالى :

(واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنــا واذا خلوا الى شيــاطينهم قالوا انا معكم انمـــا نحن مستهزئون) (١) .

٥ ــ **الريحانة :** هى الطاقة الواحدة من الريحان والريحان يطلق على كل نبت طيب الريح من انواع المشموم .

٦ ــ **الحنظلة :** واحدة الحنظل ، وهو ثمر معروف شديد المرارة لشجر يسمى العلقم .

(جـ) الشرح :

مقــدمة :

بدأ الاســلام بالدعوة الى القــراءة فكان أول ما بدىء به من الوحى قوله تعالى لنبيه : **(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) (٢) .**

وذلك لأن القراءة اهم وسيلة لاكتساب المعارف والعلوم ، واعظم وسيلة لتثبيتها ونشرها وتخليــدها للأجيال ، كما انها من أهم الوسائل ذات الأثر فى الفكر والعمل ، لأن القارىء حينما يقرأ النص بعيدا عن صاحبه الذى كتبه او املاه يقــرأه وهو متجرد من اكثر العوامل التى تغذى فى الانسان حب المعارضة ، فتسرى اليه الحقيقة البينة ، دون ان يجد صعوبة فى الاقتناع بهـــا ..

ولما كانت رسالة الاسلام تعتمد على اسس العلم ، وتستند الى الحقيقة النيرة ، وتساير كل معرفة صحيحة ، وتمجد كل نظر سديد ، كان من البدهى فيها أن تحث على التعلم والنظر ، وتتبع الحقائق واكتساب المعارف ، ولما كان القرآن أعظم كتاب يهدى للتى هى أقوم علما وخلقا وسلوكا وتربية كان أفضل مقروء واعظم متلو .

لذلك نجد الرسول صلوات الله عليه يحث على قراءة القرآن وتدبره فى احاديث شتى ، وفى هذا الحــديث يبين الرسول فضل قارىء القرآن على غيره ، فى صورة تشبيهات بأمور محسة ، ويقسم فيها المسلمين الى اربعة اقسام ، يشبه كل قسم منها بثمرة من ثمرات الأشجار مناسبة له ، مأخوذة من واقع البيئة العربية .

---

(١) سورة البقرة : الاية ١٤ .
(٢) العلق الايات ١ ــ ٥

فالمسلمون قسمان : مسلمون صادقون باسلامهم وهم المؤمنون ، ومسلمون كاذبون باسلامهم وهم المنافقون ، وكل من هذين القسمين المؤمنين والمنافقين اما قارىء للقرآن أو غير قارىء له ، فالأقسام اذن اربعة ، وقد اورد الرسول لكل من هذه الاقسام الأربعة تشبيها مناسبا له .

مثل المؤمن القارىء للقرآن :

فالمؤمن الذى يقرأ القرآن مثله كمثل الأترجة ، بجامع طيب الباطن وطيب الظاهر فى كل منهما ، وذلك لانه يحوى فى باطنه جوهرة الايمان التى لا تقدر بثمن فهو طيب الباطن ، وهو ينفح بقراءته للقرآن عطر المعرفة ، وشذا التلاوة ، فهو طيب الظاهر ، كما ان الأترجة طيبة الباطن اذا شق عن باطنها وطعم لبها ، وطيبة الظاهر ، لأن قشرتها تنفح بعطر زكى .

اما المؤمن الذى لا يقرأ القرآن فقد حوى طيب الباطن فقط ، وذلك بفضل جوهرة الايمان التى يحويها فى قلبه ، أما فى الظاهر فقد خسر بعدم قراءته القرآن نفحات زكيات كان من الممكن ان تتضوع منه لو كان قارئا ، فمثله كمثل التمرة .

والمنافق الذى يقرأ القرآن خلا باطنه من جوهرة الايمان ، فهو سيىء الباطن ، لكنه بقراءته القرآن ينفح عطرا زكيا ، فمثله كمثل الريحانة طيبة الرائحة مرة الطعم .

ورابع الأقسام المنافق الذى لا يقرأ القرآن ، وهذا قد خلا باطنه من الخير ، كما خلا ظاهره منه ، فهو كالحنظلة ليس فى ظاهرها رائحة جيدة وطعمها فى باطنها مر علقم .

(د) ــ ما يستفاد من الحديث :

١ ــ فضل قارىء القرآن على غيره .
٢ ــ الحث على قراءة القرآن ، لما للقراءة من أثر فى الفكر والنفس والعمل .
٣ ــ قراءة القرآن وحدها من غير استكمال شرط الايمان لا تضفى حلاوة على مرارة قلب المنافق بسبب نفاقه وان زينت ظاهرة بأريجها .
٤ ــ الأسلوب التربوى النبوى فى تقريب الحقائق الفكرية بأمثلة محسة مستقاة من بيئة المخاطبين ، وقد سبق صلوات الله عليه فى تطبيق هذا المبدأ التربوى علماء التربية بثلاثة عشر قرنا ، كما هو شأنه فى كل المبادىء والأصول التربوية المثلى كيف لا ؟ وقد تخرج من مدرسته عظماء الدنيا ، وقادة التاريخ الأمثلون ، فنشروا الحق والعدل والهدى والعلم فى الأمم والشعوب .

الحديث السادس

عَنْ أبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : جَاءَتْ امْرأَةٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ الرِّجالُ بِحَدِيثِكَ ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفسِكَ يَوْماً نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ ، قَالَ : اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذا وَكَذَا ، فَاجْتَمَعْنَ ، فَأَتَاهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ ، ثُمَّ قَالَ : (مَامِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلاثَةً مِنَ الْوَلَدِ إلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَاباً منَ النَّارِ) فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَيْنِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَاثْنَيْنِ).

متفق عليه

(أ) ترجمة راوى الحديث :

سبقت فى شرح الحديث الثـانى .

(ب) اللغــة :

١ ـ ذهب الرجال بحديثك :

فعل (ذهب) فعل لازم وعدى هنا بواسطة البـاء ، أورد ابن هشام من معانى الباء الجارة التعدية ، قال وتسمى باء النقل أيضا ، وهى المعاقبة للهمزة فى تصيير الفاعل مفعولا . واكثر ما تعدى الفعل القاصر ، تقول فى ذهب زيد : ذهبت بزيد ، واذهبته ، ومنه (ذهب الله بنورهم) هـ .

واصل معني الذهاب السير والمرور ، ولكن المراد هنا أن الرجال استأثروا بحديث الرسول صلوات الله عليه فلم يبق للنســاء وقت خاص بهن ، يتعلمن فيه ما يخصهن ويتصل بشؤونهن من أمور الدين .

والاضافة فى : (بحديثك) تفيــد العموم ، أى ذهب الرجال بكل أنواع حديثك أو بكل أوقات حديثك ، وذلك لأن اضـافة النـكرة الى المعرفة من الصيغ التى تفيد العموم ما لم توجد قرينة صارفة عن ارادة العموم .

٢ ـ اجتمعن يوم كـذا وكـذا :

(كـذا) هنا : كلمــة مركبـة من كلمتين بحسب الأصـل ، هما كاف التشبيه وذا التى هى من أسماء الاشارة ، وتستعمل كلمة واحدة كما هنـا غير ملاحظ فيها معنى الكلمتين الاصليتين ، وانما يجاء بها للكناية عن أمر ما ، اذا لم يقصد المتكلم تحديد ذلك الأمر ، بل قصد أن يشير اليــه اشارة عامة ، أو كان يجهل تحديده .

فاما أن يكون الراوى هنا لا يعرف الأيام التى حددها الرسول لاجتمـاع النساء حتى يأتيهن ويعلمهن ، واما أن يكون رأى ذكر ذلك غير مهم فى الموضوع فكنى عنه بقوله : (كذا وكذا) .

٣ ـ ما منكن من امراة تقدم ثلاثة من الولد :

امراة ، ومراة ، ومرة : مؤنث امرىء ، ومرىء . وهذه المفردات لا جمع لها من لفظها ، الا أنه جاء نادرا من مرء مرؤون ، ومنه قول رؤبة ابن العجاج لطائفة رآهم : أين يريد المرؤون .

الولد ، والولد والولد : بفتحتين ، وبضم فسكون ، وبكسر فسكون ، يطلق على الواحد والكثير ، والذكر والانثى .

والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم : (تقدم ثلاثة من الولد) انهم يموتون قبلها ، فتتقبل قضاء الله وقدره راضية غير متسخطة فكأنها قدمتهم بنفسها الى الله ، محتسبة أجر مصيبتها فيهم عنده ، او على معنى تقدم صبرها على موت ثلاثة من الولد ، والصبر من الأعمال التى يستحق فاعلها الاجر عند الله بحسب وعده الكريم .

٤ ــ **فقالت امرأة : واثنين ؟** : على الاستفهام ، اى او تقديم اثنين من الولد كذلك ، وقد دل على المحاذيف قول الرسول : (تقدم ثلاثة من الولد الا كانوا لهــا حجابا من النــار) وبقى جر اثنين لملاحظة المضاف المحذوف ، وللدلالة عليه .

٥ ــ **فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (واثنين)** على الاثبات ، اى وتقديم اثنين من الولد كذلك .

(الا) حرف استثناء جاء هنا للحصر ، فهو من باب الاستثناء المفرغ .
(كانوا) فعل ماض ناقص والضمير فى محل رفع اسمه .

(لهــا) جار ومجرور متعلق بـ (حجابا) .

(حجابا) خبر كان منصوب بفتح ظــاهر . و (من النــار) متعلق بـ (حجابا) وجملة (كانوا لها حجابا من النار) فى محل رفع خبر المبتدأ .

٦ ــ فقالت امرأة : واثنين ؟ :

(اثنين) مجرور لانه مضاف اليه ، اذ أصل الكلام : (أو تقديم اثنين من الولد كذلك) على حذف مضاف هو مبتــدأ ، وحذف الخبر وهو كذلك . والكلام فى الأصل مصدر باستفهام محذوف ايضا . أو على تقــدير : (أو من تقدم اثنين كذلك) فيكون لفظ (اثنين) مفعولا به لفعل محذوف .

ومثل ذلك فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : (واثنين) الا أنهــا بغــير اســتفهــام .

(جـ) الشــرح :

الجرأة الادبية عند المسلمات فى عصر الصحابة :

هذا حديث من الأحاديث النبوية الكثيرة التى تصور لنـا جراة النســاء المسلمات فى عصر الرسول صلوات الله عليــه ، وذلك فى سعيهن لنيل حقهن من المعرفة بأمور الدين .

فهذه امراة منهن تأتى الى رسول الله بجراة ادبية طيبة ، مع رباطة جأش ، فتقول له : يا رســول الله ، ذهب الرجال بحديثك . وذلك لأن الرجال كانوا يحتلون مكان المقدمة من مجالس الرسول ، فتوجه اليهم أكثر كلماته وعظاته وبياناته ، ولئن كان الاسلام فى دعوته وأحكامه وتكاليفه ومواعظــه يتنــــاول الرجال والنساء على السواء ، فان بعض مسائله وأحكامــه خاص بالرجال ، وبعضها خاص بالنساء ، أما الرجال فينالون حظهم من التعرف على ما يخصهم اذ ليس بينهم وبين الرسول حجاب ، ولديهم من الجراة ما يســألون عن كل امر من امور دينهم ، فهم يسألون الرسول عن ذلك اينما حلوا واينما ارتحلوا ، لكن النساء لا يستطعن دائما ان يسألن عما يخصهن من امور الدين ، ويحللن به مشكلاتهن ، لعدم مشروعية المجتمع المختلط اختلاطا تاما فى آداب الاســلام الاجتماعية ، ولئن كن يحضرن مجالس الرســول منعزلات عن الرجال فانهن ربما يستحين امام الرجال أن يسألن عنها .

لذلك فان تعليمهن ما يخصهن ، وحل مشكلاتهن لا بد فيه من تخصيص مجالس لهن تعالج فيها امورهن ، وتوجه لهن فيها الأحكام والمواعظ بحسب خصائصهن النفسية والفكرية والخلقية والاجتماعية ، وبحسب مسؤوليتهن فى الحياة داخل أسرتهن وخارجها ، ولكل هــذه الامور اتبعت هذه المرأة من الصحابيات كلامهــا للرسول . « فأجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه ، تعلمنا مما علمك الله » .

وهذا هو الحل الوحيد الذى يتم فيه تعليم النســــاء ، واخراجهن من ظلمات الجهل الى نور المعرفة ، حتى يؤدين رسالتهن فى الحيــاة على أحسن وجه وأفضله ، ويحملن مسؤوليتهن كما يجب أن يحملنها ، مع المحافظة على عفافهن واخلاقهن ، وعدم قذفهن الى مجتمع مختلط تسرع اليــه مفاســد المجتمعات المختلطة ، وتشب فيه نيران الشهوات العارمة ، التى تنتشر معها المعاصى والآثام ، ومفاسد كثيرة أخرى .

لأن العلم الصحيح هو الوسيلة الأولى التى لا بد منها لاصلاح كل مجتمع ، رجاله ونسائه كباره وصغاره .

ومن اجل ذلك حمل الاســلام لواء العلم والمعرفة ، فى أصوله وفروعه ،

واحكامه وآدابه ، كما حمل لواء الدعوة اليهما ، بين مختلف طبقات البشر فى كل أمر من أمور الكون والحياة والنفس ، الظاهر منها والباطن .

تعليم المراة :

وقد حرص الاسلام على تعليم المراة ما تكون به عنصر صلاح واصلاح ، فى مجتمع اسلامى متطور الى الكمال ، متقدم الى القوة والمجد ، آمن مطمئن سعيد ، فاذن باشتراكها فى المجامع الاسلامية العامة الكبرى منها والصغرى ، فرغب بأن تحضر صلاة الجماعة ، وتشهد خطبة الجمعة ، وخطبة العيد ، وامرها بالحج والعمرة ، وحثها على حضور مجالس العلم ، وخاطب الله فى القرآن النساء بمثل ماخاطب الرجال ، وادمجهن فى عموم خطاب الرجال فى كثير من الاحوال ، حرصـــا على تعليمهن وتثقيفهن ، وتعريفهن بأمور دينهن ، ونظرة الى واقع الحياة تبدى لنا اهمية صلاح المراة علما وخلقا وسلوكا داخل الأسرة ، ثم فى المجتمع الكبير ، فبمقدار صلاح المراة فى الأسرة يكون غالبـــا صلاح النشء والذرية فيها ، وبمقدار فسادها يكون غالبا فسادهم ، يضاف الى ذلك ما لها من تأثير بالغ على الرجال زوجا كان او أبا او اخـــا ، واهميـــة صلاح المراة لصلاح الأسرة اكثر من اهمية صلاح الرجل لصلاحها ، وذلك لأن المراة تستطيع أن تكون ذات أثر فعال مرشد أو مفسد فى تكوين أخلاق الأطفال الصغار وطبائعهم وعاداتهم ، اكثر من الرجل بكثير ، لعدة أسباب : منهـــا ما وهبها الله من عاطفة متدفقة ، ولين فى الطبع ، وقابلية للاندماج والمشاركة فى أمور الصغار على مقدار طبائعهم ونفوسهم ، مما له اثر كبير فى اكتســـاب حبهم واحراز ثقتهم ، حتى يتخذوها قدوة لهم فى اقوالهـــا ، واعمالهـــا ، وأخلاقها ، وسائر تصرفاتها . ومنها واقع ملازمتها لأطفالهـــا فى أكثر أوقات نشأتهم ، وهم ما يزالون بعد فطرة نقية ، وعجينة لينة ، قابلة للتكيف ، فما طبع فيها من خير جفت عليه ، وما طبع فيها من سوء كذلك ، ثم يعسر بعد ذلك التغيير والتبديل ، متى صلب عود الطفل . واقتبس شيئا بالتقليـــد أو بالعادة ، ومن شب على شىء شاب عليـــه .

ولما كان للمراة كل هذا الأثر فى تربية الطفولة داخل أسرتها أو خارجها ، كان لابد من العناية بتكوينها تكوينا راقيا ، والعمل على جعلهـــا قدوة صالحة واسوة حسنة ، وذلك لا يتم الا بتعليمها ما تكون به المربية الفاضلة ، وتربيتها تربية اسلامية حسنة ، والاستفادة مما وهبها الله من عاطفة رقيقة لملء قلبها ونفسها بالايمان والخير ، حتى تغذى به جيلها الذى تنشئه وتربيه .

ولذلك كثيرا ما نلاحظ اولادا فاضلين مهذبين ، ثم نبحث عن سر ذلك فنعلم ان لهم اما مربية فاضلة ، تقية مهـــذبة ، وان لم يكن أبوهم على مثل ذلك ، ونلاحظ اولادا فاســدين منحرفين ، ثم نبحث عن سر ذلك فنعلم ان لهم أما منحرفة فاســدة ، وقد يكون لهم آباء صالحون فاضلون . فلا عجب بعد كل هذه الموجبات لاصلاح المرأة علما وخلقا حتى تكون مربية فاضلة داخل أسرتها وخارجها ضمن المجتمع النسائى الكبير أن نجد الرسول صلوات الله عليه يأمر النساء أن يجتمعن أياما محددة اجتماعات خاصـــة بهن ويأتيهن ويعلمهن . فقال رسول الله صلوات الله عليه ، (اجتمعن يوم كذا وكذا) .

ولما كانت النساء المسلمات فى الصدر الاسلامى الاول متلهفات لمعرفة أمور دينهن ، وتبين حلول مشكلاتهن الخاصة فقد تبادرن للاجتماع الى مجالس الرسول الخاصة بهن ، فاجتمعن ، فأتاهن النبى صلى الله عليه وسـلم فى المواعيد المحددة فعلمهن مما علمه الله ، فبين لهن مابين ، وسألنه عن مسائل تتعلق بخصائصهن ، واجابهن صلوات الله عليه .

ولما كان فى صحابيات الانصار جريئات فى السؤال عما يتعلق بأحوال النساء وخصائصهن أثنى عليهن الرسول صلى الله عليه وسلم فى احدى المرات اذ دعا لهن بالرحمة فقال : « رحم الله نساء الأنصـــار لا يمنعهن حياؤهن ان يسألن عن أمور دينهن » .

توجيه خاص من الرسول صلوات الله عليه الى النساء :

فكان مما خصهن به من توجيه قضية لها فى واقع حياة المرأة أثر كبير ، الا وهى ما تتعرض اليه من الحزن الشديد على ما تفقده وتقدمه بين يديها من اولادها .

انها قضية الموت ، قضية القضاء والقدر التى لاتستطيع قوة مهما بلغت ان تتدخل فيها أو تغير من واقعها شيئا ، وهى ابتلاء محزن شديد الوقع على النفوس كلها ، لكنه على نفس الأم أشد وقعا ، واكثر ايلاما .

ومعلوم فى حكمة الشريعة وفلسفة الدين ان الابتلاء بالمصائب يحمل فى داخله نعمة تكفير السيئات ، ورفع الدرجات ، وزيادة الحسنات ، ولما كانت المصيبة بالموت من اكبر المصائب فى الدنيا كان الاجر بالصبر عليها والرضاء بقضاء الله فيها من اعظم الأجر ، وبخاصة من تكون مصيبتها به أكبر . الا وهى الأم ، فكيف بهذه المصيبة اذا تكررت فى حياة الانسان مرتين او اكثر ان الأجر بذلك ينمو وينمو حتى يكون حجـابا لصاحبه من النار ، اى مكفرا لخطيئاته وسيئاته التى يستحق عليها شيئا من عذاب النار دون الخلود فيها ، لأن

حصول الأجر على المصائب مشروط بأن يكون المصاب مسلما مؤمنا راضيا بقضاء الله غير متسخط عليه فيما يجرى به مراده .

ولذلك خصهن الرسول بخطابه فقال لهن :

(ما منكن من امراة تقدم ثلاثة من الولد الا كانوا لها حجابا من النار) .

وهنا طمعت امراة من الحاضرات مجلس الرسول الخاص بالنساء ، فقالت على سبيل الاستفهام : « واثنين ؟ » ولعلها كانت ممن قدم بين يديه الى الآخرة ولدين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (واثنين) على سبيل الايجاب .

وقوله صلى الله عليه وسلم (تقدم) دون ان يقول يموت لها أو يؤخذ منها او نحو ذلك ، يشير الى معنى التسليم لله والرضا بقضائه ، وعدم التسخط عليه ، لأن من يقدم الشيء انما يقدمه بحسب العادة عن رضا وتسليم ، بخلاف من ينزع منه الشيء نزعا ، او يغضب منه غضبا ، أو يسرق منه سرقة ، فان ذلك يغضبه ويسخطه حتى يكون منه ما لا يكون ممن يقدم الشيء بنفسه .

ولما كان الموت أخذا لا تقدمنا كان الرضا والتسليم به بمثابة التقديم ، ولا يمنع من ذلك ما يقع في القلب من الحزن الشديد ، وما يظهر في العين من البكاء ، لأنها عاطفة لا يمكن دفعها ، وتأثر لا يملك الانسان رده ، ولا يعارض الرضا والتسليم بما يجرى به القضاء والقدر ، فحينما توفى للرسول صلوات الله عليه ابنه ابراهيم قال : « ان القلب ليحزن وان العين لتدمع ولا نقول الا ما يرضى ربنا : انا لله وانا اليه راجعون » فلم يكن حزن قلبه وبكاء عينه معارضا لتسليمه ورضاه بقضاء الله وقدره .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ــ الجرأة الأدبية عند المسلمات في الصدر الأول .

٢ ــ رغبة الصحابيات بالعلم وسعيهن الى معرفة أمور دينهن .

٣ ــ اهتمام الاسلام بتعليم المرأة حتى تكون عضوا صالحا في المجتمع الاسلامي ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحسن القيام بمسئوليتها في الحياة من عمل وخلق وتربية فاضلة لمن تشرف على تربيتهم .

٤ ــ مشروعية تخصيص العالم الموثوق مجالس لتعليم النساء وموعظتهن ،

تكون بعيدة عن الخلوة المحرمة ، وبعيدة عن أسباب الفتنة .

٥ ــ عظم اجر التى تصاب بموت ولدين لها فاكثر ، الى حد ان يكون ذلك مكفرا لها جميع سيئاتها حتى يكون حجابا لها من النار .

٦ ــ حكمة الرسول صلوات الله عليه فى اختيار الموضوعات التى تناسب النساء فى المجالس التى عقدها لهن .

٧ ــ بلاغة الرسول وايجازه فى المقام الذى يناسبه الايجاز ، واطنابه فى المقام الذى يناسبه الاطناب .

٨ ــ قول الرسول (واثنين) جوابا لسؤال المراة بعد ان نص فى كلامه السابق على ان التقديم لثلاثة من الولد ، يحتمل أن يكون مأذونا بذلك مسبقا ، او ان يكون نزل عليه الوحى بذلك ما بين سؤال المراة واجابتها ، او ان يكون العدد لامفهوم له ، وانما راعى الرسول حالةخاصة عند بعض النساء الحاضرات فنص عليها ، ولما سئل عما دونها أجاب بالايجاب ، وربما لو سئل عن ولد واحد لأجاب بالايجاب أيضا ، والله اعلم .

الحديث السابع

عَنْ أَبِي بِشْرٍ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُ فِيهَا ، فَقَالَ : (أَقِمْ حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا) ثُمَّ قَالَ : (يَاقَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلاَّ لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ : رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّت لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِواماً مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ : سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولُ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ ، حَتَّىٰ يُصِيبَ قِواماً مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ : سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ ، فَما سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتاً) .

رواه مسلم

ا) ترجمة راوى الحديث :

١ ـ هو أبو بشر قبيصة بن المخازن بن عبد الله الهلالى البصرى .

٢ ـ صحابى وفد الى النبى صلى الله عليه وسلم من البصرة ، وروى عنه .

ب) اللغــة :

١ ـ **تحملت حمالة :** الحمالة بفتح الحاء ما يتحمله الانسان عن غيره من دية او غرامة ، كأن يقع قتال او خصام بين فريقين فيصلح انسان ذات بينهم على مال فيتحمله ، ويلتزمه على نفسه ، والتحمل هو ان يحمل الحمالة عنهم على نفسه ، ويسأل الناس فيها .

وتقول لغة : حملت به حمالة اذا كفلت به .

٢ ـ **اسال فيها :** يقال لغة سألته سؤالا ومسئلة بمعنى استعطيته اياه ، واشتهرت المسئلة بمعنى استجداء المال ، ومن ذلك يسمى الفقير سائلا ، وجمعه سؤال . واصل السؤال طلب الشىء فالسؤآل عن العلم طلب بيانه ، والسؤال عن الحادثة طلب الاخبار عنها ، وسؤال المال طلب اعطائه وهكذا .

و (فى) من قول قبيصة : (اسال فيها) :

اما ظرفية ، اى اسال رسول الله المال فى شأن اعطائى مقدار الحمالة التى تحملتها ، والظرفية هنا مجازية .

واما سببية ، وهى التى تأتى للتعليل ، اى اسأل رسول الله المـال بسبب الحمالة التى تحملتها .

وكل من الظرفية والسببية من معانى (فى) كما هو معلوم عند النحاة .

٣ ـ **اقم حتى تاتينا الصدقة :** اى حتى تأتينـا الزكاة ، لأن من تحمل الحمالة يدخل فى عموم الغارمين المنصوص على أنهم من مستحقى الزكاة فى القرآن الكريم .

واصل الصــدقة ما يعطى للفقراء ابتغاء وجه الله ، وتطلق على الزكاة المفروضة ، كما تطلق على صدقة التطوع .

٤ ـ حتى يصيبها ثم يمسك :

يصيبها : اى يجدها ويحصل عليها ، يقال أصاب الشىء اذا وجده وحصل عليــه .

يمسك : اى يسكت عن المسألة ، تقول : امسكت عن الكلام اذا سكت .

٥ ـ **اصابته جائحة اجتاحت ما له** : الجائحة : المصيبة العظيمة التى تحل فى مال الانسان فتستأصله كله ، يقال : اصابتهم سنة شديدة اجتاحت اموالهم ، وجاحتها .

٦ ـ **قواما من عيش ، او قال : سدادا من عيش :**

قواما : بكسر القاف ويجوز فتحها ، هو ما يقوم به أمر الانسان من مال ونحوه ، وقوله : من عيش بيان للمراد من القوام هنا .

سدادا : بكسر السين ويجوز فتحها ولكن الكسر أفصح ، هو ما تسد به حاجة المعوز ، وقوله او قال : سدادا من عيش شك من الراوى .

٧ ـ **من ذوى الحجا** : اى من اصحاب العقل ، فالحجا : العقل والفطنة وجمعه احجاء .

٨ ـ **السحت** : بضم السين ، هو الحرام الذى لا يحل كسبه من المال ، سمى بذلك لأنه يسحت البركة ، اى يذهبها ، واصل السحت مصدر سحت اذا قشر الشىء قليلا قليلا حتى استأصله ، والسحت ايضا العذاب .

(جـ) الشرح :

مقـــدمة :

خلق الله الناس وجعل فى مناكب الأرض وخبـاياها اقواتهم وارزاقهم وسائر أسباب رفاهيتهم ورغد عيشهم ، ومنحهم القدرة على السعى والعمل ، وربط بها تحصيل ما بث لهم فى مناكب الأرض وخباياها ، وقال لهم بمنطق الفطرة وبلسان الشريعة : **(فامشوا فى مناكبهـا وكلوا من رزقه)** (١) فالعمل هو الوسيلة الفطرية المنطقية لاكتساب الرزق وتحصيل أسباب العيش .

وقد جعل الفاطر الحكيم طاقة الفرد على الكسب والاستثمار فى الحالات الطبيعية العادية أكثر من حاجاته الخاصـة به ، فهو يستطيع بطاقتـه ان يكتسب ويستثمر اكثر من حاجات عيشه ورفاهيته التى لا اسراف فيهـا ولا تبذير وذلك ليدخر لنفسـه بعض ما يزيد عن حاجتـه فى أوقات كسبه وسعيه ، وليؤدى بقسم آخر واجبه نحو المجتمع الانسانى الذى يشاركه فى العيش والرزق والرفاهيـة على هذه الأرض ، وليقوم بوظيفتـه الجماعية بوصفه واحدا من هؤلاء الشركاء ، فيقدم قسما مما يزيد عن حاجتـه من كسبه لمستحقى ذلك بحسب فلسـفة العيش الأقوم للانسانيـة على هذه الأرض ، وطبق نظام التكافل الجماعى الذى شرعه الله لعباده .

---

(١) الملك الآية ١٥

وذلك لان الانسان لا بد من ان يمر فى مرحلة الطفولة وهى فترة يعجز فيها عن الكسب فلا بد له من كافل يسعى ليقدم له رزقه ، ويمر فى اواخر عمره بمرحلة الشيخوخة التى تقعده عن العمل فلا بد له من كافل يسعى ليقدم له رزقه وحاجاته ، كما انه قد يتعرض فى ايام شبابه الى العجز عن العمل فلا بد له من كفالة .

والجماعة بحاجة الى تقاسم الاعمال فى الحياة ، ومنها ما يؤدى فيه الفرد خدمة ضرورية للدين او الدنيا ، للاسرة الصغيرة او المجتمع الكبير ، فكان على المتخصصين بالكسب واستثمار الأرزاق أن يقدموا للتمفرغين للقيام بالخدمات الأخرى التى لابد منها ما يحتاجون اليه ضمن نظام التكافل والتعاون فى الحياة .

وهنا تبدو فلسفة العيش فى نظام الاسلام بأروع ما يمكن ان تبدو فيه فلسفة ما فى الدنيا ، فالقادرون على العمل مأمورون بالسعى لاكتساب رزقهم من الطرق التى شرع الله وأذن ، وطرق اكتساب الرزق كثيرة ، منها ما هو استثمار واستنتاج ، ومنها ما هو تصنيع وتحويل ، ومنها ما هو خدمة خاصة او عامة ، وقد أذن الله باكتساب الرزق عن اية طريق من هذه الطرق ، ما لم يكن فى العمل الذى يباشره مكتسب الرزق عدوان على حق غيره ، أو اضرار بالفرد او بالمجتمع ، او بسياسة الدولة الاسلامية ، أو مخالفة لأصل من أصول الدين او حكم من احكامه مما يمس العقيدة أو العبادة او الخلق أو نظام الجماعة ، أو خدمة فى شىء من ذلك أو معاونة عليه .

والمتفرغون عن العمل لمصلحة غيرهم ، أو لمصلحة تقاسم المسئولية داخل الأسرة مكفيون فى نظام الاسلام بالنفقة الواجبة التى فرضها الله على طائفة من القادرين ، فالمرأة متفرغة بحسب الأصل لحمل المسئولية الداخلية فى الاسرة، لذلك فان نفقتها على ولى أمرها واجبة فى نظام الاسلام .

واما العاجزون عن العمل فان كان فى أسرتهم أغنياء بكسبهم أو بما عندهم من مال ممن قرر الله فى دينه قيام نظام التكافل بينهم ، فان نفقتهم تجب على هؤلاء الأغنياء من اسرتهم ، وان لم يكن فى اسرتهم اغنياء بكسبهم أو بما يملكون وجب على المجتمع كله أن يكلفهم ، ومن اجل حل مشكلة هذا القسم شرع الله نظام الصدقة المفروضة وغير المفروضة .

ثم اذا تأملنا فى تفصيل هذه الخطوط العريضة التى أوردناها وجدنا أن الاسلام قد حل مشكلة الحاجة فى المجتمع الانسانى بأبسط حل واحكمه ،

فهو عملى تطبيقى يناسب مختلف المجتمعات الانسانية دون تعقيد ولا عدوان، ولا تحاسد ولا تحاقد ، ووجدنا انه لا مجال فيه للمسألة واستجداء المال الا لطالب حقه من الزكاة المفروضة وهم من نص عليهم هذا الحديث الذى نعالج شرحه ونبين معانيه .

سؤال قبيصة المال من اجل الحمالة التى تحملها :

يقول هذا الصحابى عن نفسه : انه قد تحمل حمالة فأتى رسول الله يسأل فيها ، اى التزم فى سبيل اصلاحه بين فريقين مختصمين من قومه أن يدفع من ماله ما يحل به عقدة خلافهما ، فهو بهذا يدخل فى قسم الغارمين الذين يستحقون ما غرموه من اموال الصدقة ، اخذا من قوله تعالى : (**انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل**) (١) .

ولما سأل رسول الله فيها قال له الرسول صلوات الله عليه : (**اقم حتى تاتينا الصدقة فنامر لك بها**) اى بمقدار الحمالة التى تحملتها ، ودل قول الرسول هذا على أن من تحمل حمالة يدخل فى ضمن المستحقين الذين تدفع لهم الصدقة ، اى الزكاة ، واذا فتشنا عنه ضمن الأصناف الثمانية المذكورين فى الآية وجدناه من صنف الغارمين .

ومن عظيم حكمة الرسول صلوات الله عليه أنه لم يدع هذه الحادثة تمر دون أن يعطى فيها بيانا شاملا يحدد فيه أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة ، وهى استجداء أموال الصدقة ، ردعا للذين تحدثهم نفوسهم باستجداء الصدقات طمعا واستكثارا بدون أن يكون لهم حق شرعى بها فى نظام الاسلام ، لان أخذ أموال الصدقات دون استحقاق شرعى عدوان على المستحقين ، وظلم لا يأذن الله به ، ومكسب حرام يسحت آكله حتى يستأصله ويهلكه .

اصناف الناس الذين تحل لهم المسألة :

أما أصناف الناس الذين تحل لهم المسألة فثلاثة بينها الرسول صلوات الله عليه فى هذا الحديث بيانا تاما ، وهى كما يلى :

الصنف الأول : (رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك) فالغارم له ان يسأل حتى ينال مقدار الالتزام الذى التزمه فى حمالته،

(١) التوبة الاية ٦٠

فاذا ناله وجب عليه ان يمسك عن المسألة وليس له حق في ان يأخذ ما زاد عليـــه .

الصنف الثاني : (ورجل اصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، أو قال ، سدادا من عيش) .

ويدخل هذا الصنف ضمن الفقراء والمساكين الذين نصت عليه الآية ، فهو في الأصل رجل غني بماله ، ولكن اصابته مصيبة اجتاحت ماله ، فأمسى فقيرا ذا حاجة ، فحلت له المسألة ، ولكن الشارع هنا لا يأذن لهذا الرجل بأن يستمر في المسألة حتى يعوض مقدار ما اجتيح من امواله أو يزيد علبها ، وانما يأذن له بأن يسأل حتى ينال من أموال الصدقات ما يكون فيه الكفاية بالمعروف دون زيادة ولا استكثار ، وان كان أقل مما اجتيح من ماله بكثير ، لانه ليس المفروض أن الصدقات ستعيده الى ما كان عليه من غنى ، ولكن المفروض أن تسد بها حاجة عيشه وعيش أسرته ، وهو ما اشار اليه الرسول بقوله : **(حتى يصيب قواما من عيش)** أو قوله : **(حتى يصيب ســـدادا من عيش) .**

الصنف الثالث : (ورجل اصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه : لقد أصابته فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش) .

ويدخل هذا الصنف ايضا ضمن الفقراء او المساكين الذين نصت عليهم الآية ، والفرق بين هذا الصنف والصنف الثاني أن الفقر الذى اصاب هــذا الصنف بعد سابق غنى فقر مستور ترافقه بحسب العــادة شبهة الاحتيال والكذب ، لذلك احتاج الى شهادة ثلاثة من ذوى الحجا من قومه العارفين به ، يشهدون له بأنه قد أصابته فاقة ، بخلاف الصنف الثاني فان الجوائح في العادة ظاهرة لا تخفى ، ويبعد أن يكون معها احتيال أو كذب ، ومتى كان مدعيها محتالا أو كاذبا فلا بد ان ينكشف حاله بسرعة وينقطع به حبل الكذب لذلك لم يلزمه الرسول بأن يكون معــه شـــــهادة من ذوى الحجا من قومه ، وكذلك " [illegible] ، الأول فان من يتحمل الحمـــالة لابد أن يكون ذا وجاهــة في قومه و [illegible] ب شهرة ، وما تحمله من حمالة يكون في العادة امرا مشتهرا لا حاجة فيـــه الى شـــهادة .

وحكم من أصابته فاقة كحكم من اصابته جائحة ليس له أن يسأل زيادة على ما يصيب به قواما من عيش له ولأسرته .

وانهى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه في بيان الاصناف الثلاثة بوعيد من يتجاوز حدود الله فيما أحل من المســـألة فقال : **(فما سواهن من**

المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتا) فكل ما ينال عن طريق مسألة غير مشروعة مال سحت ومكسب حرام،ولم يكتف الرسول بقوله : **(سحت)** بل اكد ذلك بقوله : **(يأكلها صاحبها سحتا)** اشارة الى ما فى كلمة السحت من معنى الاستئصال والعذاب .

اما بقية الأصناف الثمانية المذكورة فى آية : **(انما الصدقات للفقراء ..)** فهم اما داخلون فى واحد ممن تحل لهم المسألة بموجب هذا الحديث ، واما غير مستحقين بذاتهم ان يأخذوا من الصدقات وانما اذن الله للحاكم المسلم بأن يعطيهم منها رعاية لمصلحة المسلمين العامة ، لا أن يسألوا هم من أموال الصدقة بوصفهم مستحقين .

وذلك لأن العاملين على جباية الصدقات موظفون يأخذون اجورهم على اعمالهم ، وللحاكم أن يدفع لهم هذه الأجور من اموال الزكاة ، واما المؤلفة قلوبهم فليسوا أصحاب حق أساسى فى اموال الزكاة لتأليف قلوبهم على الاسلام حتى يطالبوا بها ، وانما اذن الله للحاكم المسلم اذا راى فى اعطائهم مصلحة للمسلمين أن يعطيهم من اموال الزكاة ، واما المجاهدون فى سبيل الله فهم اما فقراء أو موظفون أو متبرعون ، فان كانوا فقراء سألوا بإسم الفقر ، وان كانوا موظفين بالاجر فعطاؤهم مثل عطاء العاملين عليها ، وان كانوا اغنياء متبرعين فللحاكم ان يعطيهم دون سؤال منهم ، واما ابن السبيل فهو منقطع فقير أو اصابته جائحة والله أعلم .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ تحريم استجداء أموال الصدقات الا لأحد أصناف ثلاثة وهم :

(أ) الغارمون ، وهم يأخذون مقدار ما التزموه فقط ثم يمسكون عن المسألة.

(ب) المصابون بالجوائح ، وهؤلاء يأخذون من الصدقات ما يسدون به عيشهم وعيش أسرتهم .

(جـ) المصابون بالفاقة ، وهؤلاء عليهم ان يقدموا شهادة ثلاثة من عقلاء قومهم بأنهم قد أصابتهم فاقة ، ثم لهم ان يأخذوا من الصدقات ما يسدون به حاجة عيشهم وعيش أسرتهم .

٢ ـ الأموال التى يأخذها السائلون بدون حق أموال سحت ، يأكلونها حراما فيه الهلكة والعذاب .

٣ ـ الأسلوب النبوى الرفيع فى تصيد المناسبات لتبليغ أحكام الله وشرائعه .

٤ ـ بلاغة الرسول صلوات الله عليه فى استيعاب الأقسام بأسلوب موجز رفيع ، فى فقرات محكمة دقيقة التعبير كأنها مواد قانونية اجتهدت طائفة من ذوى الاختصاص القانونى فى صياغتها واحكام سبكها ، مع مزج الأسلوب التربوى ضمن البيان القانونى ، اذ اثار المخاوف من عقوبة كسب المال الحرام فى آخر كلامه بقوله : (يأكلها صاحبها سحتا) .

الحديث الثامن

عَنْ عَمْرو بْنِ تَغْلِبَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ - أُتِيَ بِمالٍ أَوْ سَبْيٍ فقَسَّمَهُ ، فَأَعْطَى رِجالاً وتَرَكَ رِجالاً ، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا ، فَحَمِدَ اللهَ ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قالَ (أَمَّا بَعْدُ فَوَاللهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ ، والَّذِي أَدَعُ أَحبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي ، وَلٰكِنِّي إِنَّما أُعْطِي أَقْواماً لِما أَرَىٰ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ ، وَأَكِلُ أَقْواماً إِلَىٰ ما جَعَلَ اللهُ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَىٰ وَالخَيْرِ ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ) قالَ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ : فَوَاللهِ ما أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - حُمْرَ النَّعَمِ .

رواه البخاري

(أ) ترجمة راوى الحديث :

ما جـاء فى ترجمته :

١ ــ هو عمرو بن تغلب النمرى ، (من النمر) .

٢ ــ صحابى أصله من قرية من قرى البحرين تسمى : (جوائى)

٣ ــ روى عن النبى صلى الله عليـــه وســلم ، وروى عنـــه الحسن البصرى .

(ب) اللغـــة :

١ ــ **اتى بمال أو سبى :** شك من الراوى الذى روى عن عمرو هل قال عمرو : (بمال) أو قال : (بسبى) .

والسبى هنا هو المسبى من العــدو ، تقول : سبى العــدو سبيا وسباء اذا اسره ، فهو سبى ، والأنثى كذلك سبى بغير هاء ، ويقال فيها ســبية اى مسبية ، وعلى كل فالمال الذى جـــاءه ليس من قبيــل امــــوال الزكاة او الصــدقات التى تاتى باسم الفقراء ، وانما هو من قبيل الأمـوال العامة التى يكون حق التصرف فيها راجعا الى الرسول صلوات الله عليه ، ثم الى خلفائه من بعده ، حسب المصلحة العامة التى تقضى بهـــا ادارة احـــوال المسلمين وسياستهم الرشيدة .

٢ ــ **فبلغه ان الذين ترك عتبوا :** اى الذين ترك عطاءهم عتبوا .

عتبوا : يقال عتب عليـــه بفتح التـــاء يعتب ويعتب من باب ضرب ونصر عتبـــا وعتابا اذا وجد عليـــه فى نفســه ولامه ، ويكون العتب عادة مع الحب والاجلال ، فالرجل يعاتب صاحبه وصديقه أو من يجله ، ولا يعاتب عدوه أو من يكرهــه .

٣ ــ **فحمد الله واثنى عليه :**

الحمد اللفظى هو الثنـــاء باللسان على الصفات والأفعال الحسنة ، فقول الراوى ثم اثنى عليه يفهم منـــه أن الرســـول صلوات الله عليه بعــد أن اطال عبارات الحمد لله جاء بعبارات الثنـــاء عليه ، وان كان مؤدى كل من الحمــد والثنـــاء واحــدا .

٤ ــ **اما بعد فوالله :**

اما : حرف شرط ، و (بعد) قائم مقـــام شرطها ، والفـــاء من (فوالله) واقعة فى جواب الشرط ، والأصل فى هذا الاستعمال وما يشبهه : مهما يكن

من شيء بعـد ما سبق فوائد ، و (بعد) مبنية على الضم لانهـا قطعت عن الاضافة مع نية المضاف اليه .

٥ — **وادع الرجل** : اى أترك الرجل فلا اعطيـه ، وهذا الفعل يستعمل منه المضارع والأمر ولا يستعمل منـه العرب الماضى الذى هو ودع ولا المصدر الذى هو الودع الا نادرا ، ويكتفون باستعمال ترك تركا ، وهذا الفعل مثل فعل يذر وذر فلا يقال فيه أيضا وذر ولا وذرا . ومن النـادر قول الرسول صلى الله عليه وسلم (**لينتهين اقوام عن ودعهم الجمعـات أو ليختمن على قلوبهم**) ى عن تركهم اياها .

٦ — **لما ارى فى قلوبهم من الجزع والهلع** :

الجزع : بفتحتين الضجر وعدم الصبر وفعله من باب فرح يفرح والجزوع هو من كان كثير الجزع .

الهلع : شدة الجزع عند الشر ، وشدة الحرص عند الخير ، قال تعالى : **ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا**) (١) وفعله من باب فرح ، يقال : هلع يهلع هلعـا وهلوعا فهو هلع وهلوع . اى يعطيهم الرسـول لما يرى فى قلوبهم من القلق والاضطراب وعـدم الصبر ، وشدة الحرص ، والطمع بتحصيل المـال ، فهو بذلك يؤلف قلوبهم لتمكين الايمان فيها ، حتى لا يكون ما فى طبعهـا من الجزع والهلـع صارفا لهم عن الخير لو تركوا فلم يعطوا .

٧ — **واكل اقواما الى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير** :

أكل : بكسر الكاف مضارع وكل بفتح الكاف فهو من باب ضرب يضرب ، تقول : وكلت أمرى الى فلان اى الجأته اليه واعتمدت فيه عليه .

من الغنى : المراد غنى النفس وهى القناعة ، قال صلى الله عليه وسلم : (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) .

والخير : كلمة جامعة لكل انواع الخير التى يمكن أن تتصف بها القلوب ، منها الايمان والعفة والرضا عن الله والرسول وعدم الحسـد وما الى ذلك .

٨ — **حمر النعم** :

حمر : بضم الحـاء وسكون الميم جمع احمـر ، أما حمراء فجمعهـا حمراوات .

---

(١) المعارج الآيات ١٩ — ٢١

النعم : الابل ، وقد يطلق على الابل والبقـــر والغنم ، والابل الحمر هى أصبر الابل على الهواجر ، والعرب تقول : خير الابل حمرها وصهبهـــا ، اى شقرها لأن الصهبة هى الشقرة ، يقال : بعير أصهب اى أشقر .

(ج) الشـــــرح :

مقـــدمة :

ان قائد الجماعة ـ اميرا كان أو رئيسا أو ملكا أو نبيا ـ لا بد أن يعترضه فى سياسته للجماعة مشكلات مهما عدل وراعى المصلحــة الفضلى ، وساس جماعته بحكمة بالغة ، وذلك لأن اشد ما فى الوجود واعقــده معالجة النفوس الانسانيـــة .

وهذا الحديث يبين سياسة الرسول الحكيمة فى قيادته العظيمة ، امـــام احدى المشكلات التى تتعرض اليها القيادات ، انها مشكلة التصرف بما تحت يد القـــائد من أموال او مناصب او امارات بحسب المصلحة التى تمليهـــا السياسة الحكيمة الرشيدة ، بغية تحقيق غاية اسلامية ، وهدف عام أمثل للجماعة ، بعيد عن الأغراض الخاصة للقائد أو لأقاربه وحاشيته .

مال أو سبى يؤتى به الى الرسول فيقسمه :

مال يؤتى به الى الرســـول صلوات الله عليـــه ، وليس هو من أموال الصدقات حتى يوزع على الفقراء بالعـــدل حسب حاجاتهم ، وانما هو من الأموال التى يكون للقائد حق التصرف بهـــا فى مصلحة الاســـلام وجماعة المسلمين ، ونظرا الى انه لم تتكامل بعد لجماعة المسلمين دولة محكمة الامارات والادارات حينئذ ، وانها لم تزل فى دور نشوئها الأول ، فقد كانت سياســـة الرسول صلوات الله عليه أن لا يدخر مالا عاما ، وأن يبـــادر الى تقسيمه على المسلمين بحسب المصلحـــة التى يراها ، لأن ذلك أدعى الى تأليف قلوبهم على الله ، لا على أموال يرقبون مدخراتها ويطمعون فيهـــا ، وادعى الى تدريبهم جميعا على البذل والعطاء كلما حزب جماعة المسلمين أمر ، واعتبـــار جميع ما يملكونه هو الصندوق العام للدولة الاسلامية التى بدأت طلائعهـــا تظهر ، وبدأت نبتتها تزهر .

نظر الرسول فراى ان مصلحة الاســـلام وجماعة المسلمين تقضى فى تلك الفترة بأن يعطى أقواما ويترك آخرين ، وهذا مما له حق التصرف به حسب المصلحة التى تترجح لديه فى سياسته وقيادته كما اذن الله له ، فأعطى رجالا راى أن المصلحة تقضى باعطائهم لاصلاح قلوبهم وتأليفها على الخير والهداية ،

وترك رجالا لنفاذ ما عنده ، وثقة بما فى قلوبهم من القناعة والايمان والرضا عن الله والرسول .

فبلغه ان الذين تركهم فلم يعطهم عتبوا ، وهنا تظهر المشكلة ، وقد كان من المرتقب ان تظهر ، ليس لان الذين ترك عطاءهم يستشرفون الى المال امعين بالاستكثار منه ، ومنهم من لو دعى الى تقديم جميع ما عنده لقدمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغاء مرضاة الله ، ولكن لتوهم ان العطاء مرتبط بالتفضيل فى المحبة ، فمن اعطاهم الرسول احب اليه من الذين لم يعطهم ، وهم يتنافسون جهدهم فى اغتنام مرتبة الصف الاول من محبة الرسول لهم .

وامام هذه العارضة فى طريق سياسة الرسول وقيادته الحكيمة كان لا بد من حسمها بمنتهى الحكمة ، وبالدواء الشافى لعوارض المشكلة ، والمزيل لأسبابها .

خطبة الرسول فى حل مشكلة ما بلغه من عتب :

وقف الرسول فى أصحابه خطيبا فحمد الله بعبارات الحمد ، واطال النفس فى ذلك ، ثم اثنى عليه بعبارات الثناء واطال النفس فى ذلك ، ثم قال : (اما بعد) ودخل مباشرة فى الموضوع الذى قصده فى خطبته ، وأوضح فى كلامه ما هو الدواء الشافى لما وقع فى نفوس الذين ترك عطاءهم من عتب ، فقال مقسما بالله مؤكدا كلامه بابلغ صور التاكيد : (**فوالله انى لاعطى الرجل وأدع الرجل والذى ادع احب الى من الذى اعطى ولكنى انما اعطى اقواما لما ارى فى قلوبهم من الجزع والهلع وأكل اقواما الى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير**) وخص الرسول بكلامه رجلا ممن ترك فقال : (**منهم عمرو بن تغلب**) وهو راوى الحديث .

فكانت سياسة الرسول وحكمته فى هذا ان اصلح قلوب ذوى الجزع والهلع ، بما اعطاهم من مال ، واصلح نفوس ذوى العتب بما منحهم من تكريم ، وبما افصح لهم من حب ، وبما كشف لهم من الغاية التى قصد اليها فى كل من عطائه وتركه .

وفى مناسبات متكررة اكد الرسول صلوات الله عليه لاصحابه هذه الغاية التى بينها فى هذا الحديث ، منها قوله : (**انى لاعطى الرجل وغيره احب الى منه مخافة ان يكبه الله فى النار**) .

ويدل على ان العاتبين كان عتبهم تنافسا على المرتبة الأولى من محبة الرسول صلوات الله عليه بناء على توهمهم ان العطاء دليل زيادة المحبة لا طمعا

بالمال ولا حسدا ، وان كلام الرسول قد تناول مشكلة نفوسهم من أسبابها فأزالها وازال عوارضها ، قول عمرو بن تغلب (فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم) ، لأنه لما علم أن تخصيص الرسول فى عطائه قد كان لاصلاح قلوب من أعطاهم ، وذلك ما تدعو اليه المصلحة الاسلامية العامة ، وان من تركهم احب الى رسول الله من الذين اعطاهم ، زال كل ما فى نفسه من عتب ، وأحس بأنه قد نال عطاء اكبر بكثير من كل عطاء دنيوى آخر ، فهو لا يحب أن يكون له بدل كلمة الرسول هذه حمر النعم كلها ، ومن كان عنده ذلك كان اكثر الناس غنى بأكرم مال عند العرب ، وبخاصة اذا خصص الرسول اسمه بالذكر فقال ، (منهم عمرو ابن تغلب) وفى هذا التخصيص ثناء عليه عظيم بما فى قلبه من القناعة والايمان والرضا وسائر صنوف الخير .

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ـ لقائد الامة فى نظام الاسلام أن يتصرف فى ادارة الأموال العامة ضمن حدود المصلحة الاسلامية وحدود مصلحة المسلمين .

٢ ـ على رئيس الدولة فى نظام الاسلام أن لا يحابى الأحباء أو الأقرباء على حساب المصلحة الاسلامية العامة ، أو مصلحة جماعة المسلمين .

٣ ـ من المصلحة الاسلامية التى تستدعى بذل الأموال فى سبيلها ما من شأنه اصلاح قلوب بعض الأفراد ، وتأليفها على الخير ، وتمكين الايمان فيها ، وطرد نوازغ الشيطان عنها .

٤ ـ سياسة الرسول الفضلى ، وحكمته المثلى ، فى المبادرة الى مداواة قلوب أتباعه متى نابها شيء .

٥ ـ جواز الثناء العلنى على طائفة عامة من الناس أو على شخص بعينه لمصلحة دينية ، واثر ذلك فى مداواة ما قد يعلق فى النفوس من وساوس الشيطان ونزغاته .

٦ ـ ينبغى للقائد أن يكون يقظا يتحسس ما يتهامس به أتباعه من ورائه ، ليبادر الى تدارك الأمور قبل أن تستحفل ، عملا بالحكمة القائلة : (خذ الأمر بقوابله) .

٧ ـ نفاذ نظر الرسول فى معرفة خصائص نفوس اتباعه ، وتربية كل منهم بما يناسب فطرته وميوله ودوافعه الخاصة به .

الحديث التاسع

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هَذَا اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ »

ثُمَّ قَالَ : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ

أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

ثُمَّ قَالَ : « كَلاَّ وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً ، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُم عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنْكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » .

رواه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن

(أ) ترجمة راوى الحديث :

١ ـ هو ابو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل ، وهو هذلى ويلتقى نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدركة بن الياس .

٢ ـ صحابى جليل كان من أوائل من أسلم بمكة ، قيل : وكان سادس من دخل فى الاسلام .

٣ ـ هاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد كلها ، وكان صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أى كان يحمل له نعله حينما يخلعه .

٤ ـ قال له النبى صلى الله عليه وسلم : انك غلام معلم ، وآخى الرسول بينه وبين سعد بن معاذ .

٥ ـ قال ابن مسعود : اخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة

٦ ـ توفى بالمدينة قبل عثمان .

(ب) اللغة :

١ ـ ان اول ما دخل النقص على بنى اسرائيل :

النقص : المراد منه النقص فى الدين عقيدة وشريعة المؤدى الى النقص فى الدنيا والآخرة ، اخذا مما جاء فى الحديث من تصوير واقع النقص الذى أصابهم .

على بنى اسرائيل : هم ذرية نبى الله يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام . قالوا : وكان اسمه اسرائيل ولقبه يعقوب ، والله أعلم .

٢ ـ انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك :

يلقى : على وزن (يفعل) ماضيه لقى من باب فرح يفرح .

اتق : على وزن (افتع) من اتقى : وأصل الكلمة او تقى يوتقى على وزن افتعل يفتعل قلبت الواو التى هى فاء الكلمة تاء وادغمت بتاء الافتعال ، بدليل قولهم فى المصدر وقاية ، وأصل التقوى جعل النفس فى وقاية من أمر مخوف .

دع : على وزن (عل) بحذف فاء الكلمة التى هى الواو ، لأنها من ودع يودع اودع ثم حذفت تخفيفا فصارت الكلمة يدع فى المضارع ودع فى الأمر ،

وقد سبق الكلام على هذا الفعل وأن ماضيه ومصدره متروكان في الاستعمال الا ما جاء من ذلك نادرا .

يحل : بكسر الحاء على وزن (يفعل) وماضيه حل على وزن (فعل) فهو من باب ضرب ، وأصل الكلمة (يحلل) ، ومعنى لا يحل لك ، أى لا يجوز لك ، أما حل يحل بضم الحــاء فهو من باب نصر ، تقول : حل بالمكان يحل اذا نزل فيه ، وتقول : حل العقدة يحلها اذا فكها .

٣ ـ ان يكون اكيله وشريبه وقعيده :

على وزن (فعيل) فى الثلاث ، أى مصاحبا له فى الأكل والشرب والقعود ، وصيغة فعيل هنا بمعنى مفاعل .

٤ ـ ضرب الله قلوبهم بعضهم ببعض :

هو كناية عن القــاء التنافر والخلاف والعــداوة فيها ، جزاء لهم بضد ما قصدوه من تركهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن سكوت اهل الحق عن انكار الباطل انما يكون محافظة على مودات المبطــلين ، فيجازيهم الله بأن يلقى بينهم العداوة والبغضاء بأســـباب أخرى ، ولو جهروا بالحق واقاموه لأثابهم الله بأن يجمع عليهم القلوب فتحبهم وتعظمهم .

٥ ـ « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » :

لعن : على البناء للمجهول ، واللعن هو الطرد من رحمـــة الله ، وانمــا استحقوا اللعن بسبب ما انتهوا اليه من الكفر ، لذلك جاء بالموصــول وصلته اشــعارا بالسبب .

وقوله تعالى : (**على لســان داود وعيسى بن مريم**) مع ايراد فعل اللعن بالبناء للمجهول يشير الى ان لعنتهم قد كان فيما أنزل الله على داود وعلى عيسى ابن مريم ، وهما كتابا الزبور والانجيل والله اعلم .

٦ ـ « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » :

اى ذلك اللعن وما انتهوا اليه من الكفر قد كان بسبب انتشــار العصيان والعدوان فيهم ، المتسببين عن تركهم فريضة التناهى عن المنــكر ، فبئست هذه البدايات التى ادت الى تلك النهايات .

عصوا : على وزن (فعوا) بحذف لام الكلمة وأصلها (عصاوا) التقى فيها ساكنان ، فحذف الأول لأنه من بناء الكلمة ، ولم يحذف الثانى ، لأنه قد جىء

به لغرض ، ولو حذف لم يوجد ما يدل عليه ، فصارت عصوا ، وبقيت الفتحة على الصاد دليلا على الألف المحذوفة . والعصيان هو مخالفة الأمر .

يعتدون : على وزن (يفتعون) بحذف لام الكلمة واصلها (يفتعلون) لأن اصلها من اعتدى يعتدى ، ولما اضيفت واو الجماعة الى يعتدى صارت يعتديون ، ثم استثقلت الضمة على الياء فنقلت الى الدال قبلها فالتقى ساكنان الياء والواو فحذفت الياء لأنها من بناء الكلمة الى آخر التعليل الذى سبق فى عصوا ، والاعتداء هو الظلم وتجاوز حدود الحق .

يتناهون : على وزن (يتفاعون) بحذف لام الكلمة واصلها (يتفاعلون) لان اصل الفعل من تناهى يتناهى ، ولما اضيفت واو الجماعة الى يتناهى صارت (يتناهاون) وضمة الرفع مقدرة على الألف ، فالتقى ساكنان فحذفت الألف لانها من بناء الكلمة كما سبق .

والمعنى : كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه .

منكر : المنكر هو كل امر قبيح ينكره الشرع ويحرمه ، وينكره العقل الصحيح والذوق السليم ، فكأن هذه الاصول لا تعرفه ، لأنها تحرمه وتقبحه ، او تنفر عنه ولا تتلاءم معه .

لبئس : بئس فعل جامد غير متصرف يؤتى به للذم والتقبيح .

٧ ـ « ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » :

يتولون : على وزن (يتفعون) بحذف لام الكلمة ، واصلها (يتولاون) التقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف لأنها من بناء الكلمة كما سبق . ومعنى (يتولون الذين كفروا) يجعلونهم اولياء لهم أى نصراء واحباء ، فيستنصرون بهم على اخوانهم من المؤمنين ، ويحبون طريقتهم لمشاكلتهم لهم فى ارتكاب الآثام ، والانغماس فى العصيان والعدوان . وفى هذا عرض للون من الوان عصيانهم وعدوانهم ، أو ان عدوانهم ادى بهم الى موالاة الكافرين ، وبذلك قدموا لانفسهم اعمالا سيئة فكأنهم قدموا لأنفسهم سخط الله عليهم وخلودهم فى العذاب ، فبئس ما قدمت لهم أنفسهم .

٨ ـ « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون » (١) :

(١) المائدة الآيات ٧٨ ـ ٨١

وفى هذا بيان لعلة العلل واصل الداء الذى أوصلهم الى اتخاذ الكافرين أولياء الا وهو عدم كمال ايمانهم بالله وبالنبى وبما أنزل اليه من عند الله ، ولو كانوا يؤمنون بأركان الايمان هذه ما اتخذوهم أولياء ولكن تناقص الايمان فى قلوبهم أثمر كثرة الفساق فى جماعتهم ، فشاكلت اعمالهم أعمال الكافرين فتقاربوا معهم واستحلوا مجالسهم فاستحبوا طريقتهم ، فاستنصروا بهم على اخوانهم فخسروا اصل ايمانهم .

٩ ـ كلا والله لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يد الظالم ولتاطرنه على الحق اطرا ولتقصرنه على الحق قصرا :

لتأمرن : على وزن (لتفعلن) اصلها لتأمرونن بنونات ثلاث . الأولى نون الرفع فنون التوكيد الثقيلة ، وقد حذفت نون الرفع لتوالى الأمثال فصارت لتأمرون ، فالتقى ساكنان واو الجماعة والنون الساكنة الأولى فحذفت الواو وبقيت الضمة على الراء دليلا عليها ، ومثلها الأفعال التالية : (لتأخذن ـ لتأطرن ـ لتقصرن) .

اما (لتنهون) فهى على وزن (لتفعون) لأن أصلها (لتنهاونن) حذفت الألف لالتقاء الساكنين فصارت (لتنهونن)ثم حذفت نون الرفع لتوالى الأمثال فصارت (لتنهون) بسكون الواو والنون الأولى من نونى التوكيد الثقيلة ، فحركت الواو بالضمة وابقيت ولم تحذف لأنها لو حذفت لاشتبه الفعل بالمفرد دون أن يوجد دليل على واو الجماعة فصارت (لتنهون) والمراد من الأخذ على يد الظالم منعه عن الظلم ومحاسبته ومعاقبته عليه بالعدل .

ومعنى لتاطرنه على الحق اطرا : لتعطفنه ولتثننه على الحق ، واصل الأطر هو ان تاخذ بطرفى الشىء فتعطفهما وتثنيهما الى بعضهما ، ومنه الاطار لانه يدور بعطف طرفيه المتباعدين حتى يجتمعا فى دائرة . وفعل أطر : من باب ضرب ونصر ، تقول اطره يأطره ويأطره .

ومعنى لتقصرنه على الحق قصرا : لتلزمنه طريقته ولتردنه اليه ، تقول : قصرت ابنى على طاعتى اذا رددته اليها وألزمته بها ، وهو من باب نصر ، تقول : قصرته اقصره .

(جـ) الشـــرح :

مقـــدمة :

من اهم الواجبات التى تصان بها الجماعات عن أن ينتشر فيها الفساد ، ويستشرى فيها الشر ، ركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، انه أول

مسؤولية يجب على جماعة المسلمين ان تضطلع بها فى نطاقها الداخلى ، وهو فى هذا النطاق الداخلى شبيه بركن الجهاد فى سبيل الله فى النطاق الخارج عن حدود جماعتهم .

فالمسلمون اذا كانوا على مستوى اسلامهم كانت عين كل فرد فى جماعتهم رقيبة على ما يحدث فى صفوفهم من خلل ، وفى افرادهم من فساد او انحراف ومخالفة لأوامر الله ونواهيه ، ولسان كل فرد فيهم ناصح امين حكيم آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهم جميعا متآزرون متعاونون على رفع المنكر ودفعه وازالة الشر واسبابه ، والأخذ على يد الظالم وعقابه ، بسلطان الجماعة ، طبق أحكام شريعة الله لعباده . ومن أجل ذلك نجد الاسلام يعلن مسؤولية المسلمين الكبرى أمام هذا الركن من الأركان التى تصان بها التطبيقات الاسلامية ، ضمن جماعة المسلمين ، وينذرهم بالخطر العظيم الذى ينزل فيهم اذا تهاونوا بالقيام به كما أمر الله .

وبسبب تطبيق هذا الركن جعل الله امة محمد خير امة اخرجت للناس فقال تعالى : **(كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)** (١) .

ونظرة شاملة فى النصوص الاسلامية تبين لنا ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل فرد من افراد المسلمين ذكرا كان او انثى كبيرا او صغيرا ، ولكن كلا منهم يتحمل من المسؤولية على مقداره من العلم بالدين ومن القدرة على الحكمة المطلوبة فيه لدى القيام بهذا الواجب ، ومن الهبة الربانية التى حباه الله اياها ، من سلطان او بيان فى قلم او لسان ، فكل انسان داخل اسرته ، أو فى مركز عمله مسؤول عن القيام بهذا الواجب فى حدود ما يعلم من شريعة الله .

أما القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بصفة عامة فينبغى فيها أن يكون من يضطلع بها متحققا بشروط لا بد من توافرها فى كل من يتسلم توجيها عاما من هذا القبيل ، ويمكن تلخيص هذه الشروط بما يلى :

(أ) أن يتفقه فى الدين بنسبة حسنة حتى لا يامر بمنكر وينهى عن معروف جهلا منه وهو يحسب انه يحسن صنعا .

(ب) أن يتادب بآداب الاسلام ويتدرب على استعمال الحكمة فى قيامه بمهمته ، عملا بقول الله تعالى : **(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)** (٢) حتى لا يسىء الى الاسلام بدعوته أو بطريقته واسلوبه .

---

(١) آل عمران الآية ١١٠

(٢) النحل الآية : ١٢٥

(جـ) أن يلتزم تطبيق ما يأمر به ، ويكف عما ينهى عنـه ، حتى لا يكون قوله منافيا لعمله ، فيكون قدوة سيئة ، أو محلا لتندر النـاس به ، وحتى لا ينطبق عليه قول الله تعـالى لبنى اسرائيل : **(أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون)** (١) وقوله تعالى : **(لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)** (٢) .

هذا ، ونحن الآن امام حديث عظيم من كلام الرسول صلوات الله عليه ، يبين لنا اهمية هذا الركن الذى يجب على جماعة المسلمين أن يضطلعوا به ، ومدى الخطورة التى تهددهم اذا اهملوه او تخلوا عنـــه ، وقد جاء الحديث مقسما على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : عرض واقع تاريخى لأمة ذات شـــأن فى تاريخ الشرائع السماوية ، ألا وهم بنو اسرائيل .

المرحلة الثانية : الاستشهاد بنص قرآنى على هذا الواقع التاريخى لهــذه الأمـــة .

المرحلة الثالثة : الانتقال الى ما يجب على المسلمين ان يفعلوه مستفيدين من العبرة التاريخيـــة التى سـلفت فى بنى اسرائيل ، حـــذر ان يصيبهم ما اصابهم ، وذكرى بأن سـنة الله فى عباده لا تتغير مهمـا اختلفت الامم والعصـــور .

وفيما يلى تفصيل هذه المراحل اخــذا من الحديث الذى نحن فى صـدد شرح معانيه وتدبر مراميـــه .

اول ما دخل النقص على بنى اسرائيل :

لقد سـبق ان جعل الله بنى اسرائيل مفضلين على العـــالمين ايام حملهم شرائع الله ورسـالاته اذ كانت غالبية الشعوب وثنية كافرة بالله وبانعمه عليها ، ثم دخل على اجيالهم المتتابعة النقص فى الدين والدنيا ، وانتشر فيهم الفسـاد ، واستشرى فيهم الشر ، حتى اصابتهم لعنة الله والمرسلين وضرب الله عليهم الذلة ، فسيئت وجوههم ، وشتتوا وقتلوا تقتيلا .

وللعظة والاعتبار يجب دراسة الأسباب التى ادت بهم الى هذا المنحـدر السحيق بعد ذلك المجد الشامخ الذى كانوا فيه ، وهنا يكشف لنا الرسول صلوات الله عليــه السبب الأول الذى أطلق شرارة الشر الأولى فى جماعتهم ، فسرت نارها حتى اتت على كل صلاح وخير ومجد لهم فأكلته فقال رسول الله

---

(١) البقرة الآية ٤٤

(٢) الصف الآية ٢ ، ٣

صلى الله عليـه وسـلم : **(ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هـذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك ان يكون أكيله وشريبه وقعيده).**

وفى هذا يبين الرسول صلوات الله عليه ان مبـادىء النقص الذى اصاب بنى اسرائيل فى أمور دينهم وامور دنيـاهم قد كان بتركهم فريضـة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبعدم مقاطعتهم مرتكبى المعـاصى ، وذلك انهم كانوا اذا وجـدوا واحـدا منهم على اثم ومعصية وعظوه اول الأمر ونصحوه وذكروا له حـكم الله ، فاذا لم يتعظ ولم يرتدع عن اثمه تهاونوا فى امره ، واغضوا عنه محافظة على مودته ، واستمروا على حالهم معه ، فلم يهجروه فى الله ، بل آكلوه وشـاربوه وجالسوه ، كأنه لم يرتكب حراما ولم يفعل اثاما ؛ وهذا بالطبع يؤدى فى المجتمعات الى انتشار المعصية ، حتى تكون امرا مالوفا معتادا ، ومتى اصبحت امرا معتـادا لم تجـد من ينكرها ، بل ربما اصبح الحرج من فعلها امرا معيبا ، وجمودا مشينا ، ومشـارا للازدراء والسخرية ، وبذلك يعم الفساد ، وتنتشر الوان المعـاصى ، لانه متى حصل السكوت عن واحدة منها فانتشرت سرت عدواها الى المعـاصى الأخرى ، وما تزال تنتشر كما تشتعل النار فى الهشيم حتى تفقد الأمة كل مقوماتها الدينية العملية ، ثم ينتقل ذلك الى اصول العقيدة فنقتلعها من جذورها ، وتنسفها رياح الشهوات حتى لا تبقى فى المجتمع منهـا شـيئا ، فاذا ظهر فيهم ناصح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبين لهم ما وصلوا اليه من واقع سيىء ازدروه واحتقروه ، ثم اذا الح عليهم صابرا محتسـبا ضاقوا به ذرعا فاعتدوا عليه بالضرب أو السجن او القتل ، ثم تستحق هذه الأمة بما وصلت اليه من فساد أن يحل عليها سخط الله وعذابه .

ولما كان السكوت عن العصاة بسبب المحافظة على موداتهم ، ورغبة بعدم قطع الصلات معهم فان الله يعاقب الأمة بالشىء نفسـه الذى سكتت عن انكار المنكر من اجله ، فيلقى فى قلوب افرادها العداوة والبغضاء ، وهذا ما كشفه الرسول صلوات الله عليه بقوله : **(فلما فعـلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهـم ببعض) .**

وحينما يشتد الخلاف فى الامة ويستحكم الشقاق فى صفوفهـا ، يتلمس كل فريق منهم الانصـار من غيرها ، فلا يجدون الا الذين كفـروا يوالونهم ، ويستنصرون بهم على اخوانهـم لم لا يعلمون ذلك ! وقد تشـاكلوا معهم فى الأعمال ، وتماثلوا معهم فى كثير من العادات والمفـاهيم ، واستحبوا مجالسهم على مجالس المؤمنين ، وانسوا بمخالطتهم ومداخلتهم ، ووجدوا عندهم مرتعا

سهلا للشهوات المحرمة ، بعيدين عن نقد ناقد او اعتراض معترض . ثم لا تتم لهم النصرة التى يطلبونها من الذين كفروا على اخوانهم الا بتنازلات كثيرة من مبادئهم ومساومات كثيرة على عقائدهم وكراماتهم ، فيقدمونها الى اوليائهم زاعمين ان الضرورة هى التى املت ذلك عليهم ، ومتى كان منهم ذلك وقع عليهم سخط الله وحلت عليهم لعنته ، وسلموا انفسهم للشياطين تستهويهم وتستحوز عليهم ، ثم اهلكهم الله فى الدنيا وسلبهم كل معونة وعز ومنعة ، واعد لهم فى الآخرة عذابا هم فيه خالدون ، وهذا ما اوضحته الآيات العظيمة التى استشهد بها الرسول مبينة ما أصاب بنى اسرائيل ، وهى قوله تعالى :

(لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون) .

وفى هذه الآيات نرى سلسلة من السيئات التى تتابعت فى بنى اسرائيل حتى استحق الذين كفروا منهم اللعن من الله على لسان داود وعيسى ابن مريم . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلون ، فنشأ من ذلك انتشار العصيان فيهم ، ثم انتشر فيهم الظلم والعدوان ، ولا بد ان يكون مع الظلم والعدوان شقاق وخلاف وعداوات فى الامة ، تؤدى بكثير منهم الى موالاة الذين كفروا ، ولهذه الموالاة ذيول تنتهى بسخط الله والخلود فى العذاب ، ولدى البحث عن السبب الرئيسى الاول الذى يهون على الأمة اتخاذ الكافرين أولياء لهم ، نجده تناقص الايمان بالله والنبى وما انزل اليه حتى يكون منعدما او شبيها به او قريبا منه ، وما سبب تناقص الايمان الى هذا الحد الا انتشار الفسق والعصيان فى الامة ، ووقوف حركة الصيانة لاخلاقها واعمالها ومبادئها بانعدام واجب التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر والأخذ على يد الظالم والزام المنحرفين بالاستقامة على صراط الله .

استخلاص العبرة :

ولما وصل الرسول فى عرض الواقع التاريخى الذى اصاب بنى اسرائيل المبلغ الذى اراده ، واستشهد عليه بالنص القرآنى ، ووجه المسلمين الى الاستفادة من العبرة قال :

(كلا والله لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يد الظـالم ولتاطرنه على الحق اطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، او ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم) .

فحمل بذلك المسلمين المسئولية الجماعية فى صيانة المجتمع المسـلم من الانحراف ، وذلك بالقيام بركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم ، وردعه عن ظلمه ، وعقابه عليه بموجب احكام الاسـلام ، والعمل على عطف كل منحرف ، ولفـه فى دائرة الجماعة بمختلف وسائل التربيـة والتوجيه والالزام ، حتى لا يشذ عن جماعة المسلمين ، واحاطتـه بمختلف الوسائل التربوية والالزامية لقصره على الحق ضمن دائرة الجماعة .

ثم يبين لهم أنه لن تكون نتيجتهم بأحسن مما وصل اليه بنو اسرائيل اذا تخلوا عن مسئوليتهم هـذه وخالفـوا امر الله ، وذلك بأن يضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، فيدخل الى صفوفهم الخلاف والشـقاق ، ويصيبهم داء العداوة والبغضاء ، ثم تتسلسل فيهم السيئات حتى ينتهى بهم الأمر الى ان تحل عليهم لعنة الله كما حلت على بنى اسرائيل .

ومن يتأمل فى الواقع الأليم الذى وصلت اليه الأمة الاسلامية وبخاصـة العرب منهم فى هذه الفترة من تاريخهم يتخوف عليهم تخوفا بالغا من النهـاية المخزية التى تنتظرهم ما لم يراجعوا دينهم ، فان عصا أليمة من عصى التأديب الالهى قد أصابتهم فى هذا العصر على يد الأمة التى سبق أن حلت عليها لعنـة الله وضربها الله بالذلة والمسكنة وهذه العصا الربانية انذار خطير بالعاقبة الوخيمة التى ستحل فيهم ما داموا على ما هم عليه من تنكر لشرائع الله . وتهاون بمسئوليتهم التى تصون دينهم واخلاقهم ومجدهم الذى منحهم الله اياه بسبب كونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

(د)ـ ما يستفاد من الحديث :

١ ـ التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر مسؤولية كبرى تقـع على جماعة المسـلمين صـيانة لاخلاقهم واعمالهم وعقائدهم عن الانحراف وتنكب صراط الاسلام فى عقائده وشرائعه ومبادئه واخلاقه وآدابه .

٢ ـ السبب الرئيسى فى النقص الذى اصاب بنى اسرائيل انمـا هو تركهم ركن التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر والتهاون فيه .

٣ ـ ترك هذا الركن يؤدى الى انتشار المعاصى ، وانتشـار المعاصى يؤدى الى انتشـار الظلم والعدوان ، وهذا بدوره يؤدى الى داء التباغض والتخالف

والشقاق ، والأخير ايضـا يؤدى الى موالاة الكافرين على المؤمنين ، ثم تتسلسل الشرور حتى يحل الكفر محل الايمان ، فتستحق الأمة سخط الله وعذابه ولعنته .

٤ ـ سنة الله فى عباده لن تتغير فما أصاب بنى اسرائيل سيصيب أمة محمد اذا فعلت مثل أفعال بنى اسرائيل .

٥ ـ لا تقتصر مسؤولية الأمة على مجرد التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر اللفظى بل لا بد من اتخاذ جميع الوسائل الحكيمة التى من شـأنها أن تردع الظـالم ، وترد المنحرف ، وتصون الملتزم بسياج من المراقبة والتوجيه المستمرين حتى لا يخرج عن دائرة الاستقامة .

٦ ـ من وسائل التربيـة الاسـلامية فى ردع الآثم عن اثمه هجره فى الله ومقاطعته وعدم مؤاكلته ومشاربته ومجالسته .

٧ ـ روعة الاسـلوب التربوى النبـوى بعرض التحليل التـاريخى ، ثم بالاستشهاد عليـه ، ثم باسـتخلاص العبرة منه ، ثم بتوجيه النصيحة بعد استخلاص العبرة .

الحديث العاشر

عَنْ أَبِي زَيْدٍ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ - سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - يَقُولُ : (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَا ، فَيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلانُ مَالَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) .

رواه البخاري ومسلم

(ا) ترجمة راوى الحديث :

١ ــ هو أبو زيد او ابو محمد اسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى .

٢ ــ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبه وابن حبه ، لم يعرف غير الاسلام لأنه ولد بعد البعثة وعاش فى كنف الرسول .

٣ ــ استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش فيه أبو بكر وعمر فلم ينفذ حتى توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعثه أبو بكر الى الشام وكان عمره حينئذ (١٨) سنة وقيل (٢٠) سنة .

٤ ــ سكن مدة فى قرية من قرى دمشق اسمها (المزة) ثم انتقل الى المدينة فمات بها سنة (٥٤) وقيل سنة (٥٨) أو (٥٩) وقد بلغ عمره نيفا وستين سنة .

(ب) اللغــة :

١ ــ فتندلق اقتاب بطنـه :

فتندلق : الاندلاق خروج الشيء بسرعة وتتابع ، يقال : اندلق السيل على القوم اى هجم متدفقا سريعا ، واندلقت الخيل اى هجمت متتابعة متدافعة سريعــة .

اقتاب بطنه : اى أمعاء بطنــه ، والاقتاب جمع مفرده قتب وقتب بكسر القاف وسكون التاء وبفتحهما .

ولفظ البطن مذكر ، وحكى أبو عبيدة ان تأنيثه لغة .

٢ ــ فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى :

الرحا : مؤنثة اللفظ ، وهى الحجر العظيم الذى يطحن به ، ، والف الرحا تكتب بالياء وتكتب بالألف ، لأن أصلها متردد بين الياء والواو ، تقول : رحيت الرحى أى عملتها ، وتقول رحوت الرحى أيضا ، وتثنية رحا رحوان ورحيان ، وجمعها أرح وأرحاء .

٣ ــ يا فلان ما لك ؟

فلان وفلانة : كناية عن الذكر والأنثى من الناس وهما معرفتــان فاذا كنيت بهما فى غير الناس قلت الفلان والفلانة بالألف واللام .

ما لك ؟ : يعنى اى شيء كائن لك حتى صرت من اهل النار ؟ .

٤ ــ فيقول : بلى :

بلى : حرف جواب ، ولا تأتى الا بعـــد نفى ، وتفيد ابطاله فتجعل المنفى مثبتا ، سواء أكان النفى مقترنا باستفهام او غير مقترن به .

ولا يصح استــعمال حرف (نعم) فى مواقع (بلى) لان نعم حرف جواب لتحقيق ما جاء قبلها وتصديقه ، موجبا كان او منفيا ، لا لابطاله بخلاف بلى فانها لابطاله كما ذكرنا .

(جـ) الشرح :

عرفنا فى شرح الحديث السابق ما يجب على من يتصدى لمهمة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بشكل عام من تحل بالشروط الأساسية التى يجب توافرها فى كل داع الى الله قائم فى الناس على تنفيذ شرائعه بالحكم والسلطان ، او بالامر والنهى والموعظة ، أو بالفتوى والقضاء ، وهى :

اولا ــ أن يكون عالما متفقها فيما يبثه فى الناس من علم او فتاوى او اقضية ، وعارفا بحكم الله فيما يأمر به او ينهى عنه .

ثانيا ــ ان يستعمل الحكمة فيما يأمر به او ينهى عنه ، ويقتدى فى دعوته وتأدية رسالته بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويعمل بقوله تعالى : **(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن)** فيســلك كل الأساليب التربوية الحكيمة التى من شأنهــا ان تحبب بدين الله والتزام شرائعه .

ثالثا ــ ان يتحلى بالفضائل الخلقية . ويقوم فى نفســه بتطبيق ما يعظ الناس به ، ويجعل من نفسه قدوة حسنة بالتزامه شريعة الله ، وبعده عما حرم ، وسبقه الى كل فضيلة ، وتنافسه فى كل عمل مبرور .

وهذا الحديث يعالج هذا الشرط الثالث باسلوبه البيانى الرائع ، اذ يكشف لمن يتصدى لمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مخلا بشرط العمل بالمعروف الذى يأمر الناس به ، والبعد عن المنكر الذى ينهاهم عنه صورة واقع العذاب الأليم المخزى الذى يلاقيه يوم القيامة فى النار .

انه بسبب سوء عمله وبسبب مخالفة افعاله لاقواله يستحق العذاب فى النار ، فيؤتى به يوم القيــامة ، تأتى به ملائــكة العذاب **« فيلقى فى النار »**

قذفا مشينا مهينا ، فيصطدم بما فيها اصطداما عنيفا مهشما للعظام ، شاقا للبطن « فتندلق أقتاب بطنه » الذى إكل فيه الأموال باسم الدين ، وحشاه فى الدنيا حشو الجشمين ، وتعاظم به تعاظم المترفين ، فيطير صوابه ، ويتعاظم عذابه ، وتتراكب عليه الذلة **((فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى))** فرارا مما يلاقيه من عذاب ، ولكن أين المفر ؟ انه يفر فيجد نفسه يدور فيعود الى المكان الذى فر منه ، ويرى الناس الذين كانوا يشاهدونه فى الدنيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهم منغمسون فى معاصيهم غير مكترثين بموعظة ولا تذكير ، وقد كان يتعاظم عليهم بفضل العلم وبفضل التقوى التى يرائى الناس بها ؛ فيناله الخزى ، فيخفض رأسه ويغمض عينيه ، فتكون صورته فى كل ذلك كصورة الحمار الدائر فى الرحى ، بدورانه وذلته واغماض عينيه ، ولكن الناس الذين كانوا يرونه فى الدنيا واعظا مرشدا يعجبون لأمره ، فيأتون اليه **((فيقولون: يا فلان مالك ؟ ! الم تكن تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر))** اذ كنت عالما بالحلال والحرام ، متصديا لمهمة التوجيه العام ، والأمر بوجوه الخير والنهى عن وجوه الشر ، **((فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وانهى عن المنكر وآتيه))** .

ان هـذا العذاب هو نتيجة المقت الربانى الذى يحل بالذين يقولون مالا يفعلون ، قال الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون)) (١) .

اعاذنا الله من ذلك ومن كل سوء ..

(د) ما يستفاد من الحديث :

١ ــ يجب على الداعى الى الله ان يكون متحليا بما يدعو الناس اليه من قول وعمل .

٢ ــ عذاب الذى يخالف اوامر الله ونواهيه ــ وقد جعل من نفسه داعيا الى الله وقدوة الناس فى اقواله وأعماله أومنحه الله ولاية تتصل باقامة دينه ــ اشد من عذاب غيره ، لأن مسئوليته فى الدنيا اكبر من مسئولية غيره اذ المسئولية تناسب مقدار المنحة .

٣ ــ الأسلوب النبوى الرائع المتضمن عرض المطلوب فى صورة مشهد حى يلفت النظر ، ويؤثر فى النفس ، وقد انضم اليه الحوار الذى يحكى الواقع الذى سيكون فكأنه واقع كائن .

٤ ــ التربية بوسيلة الترهيب من العواقب الوخيمة .

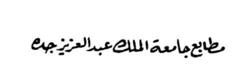
تم بعون الله تعالى وتوفيقه

---

(١) سورة الصف : الآية ٢ ، ٣

فهرس

الموضـــوع	الصفحة


مطابع جامعة الملك عبدالعزيز جدة

ردمك : X - ١١٠٠-٦
٠٦-٢٢٦-٠

مطابع جامعة الملك عبدالعزيز